حميد العقابي

أصفر إلى رمادي

دار الينابيع

الأستاذ حسين الكاف

مع فائق الاحترام

حميد العقابي
٥/١/٢٠٠٤

أصغي إلى رمادي

◆جميع الحقوق محفوظة

◆الكتاب: أصغي إلى رمادي

◆تأليف: حميد العقابي

◆الطبعة الأولى: ٢٠٠٢

◆الإخراج الفني: أليسار محفوض

◆تصميم الغلاف: أليسا زيلينوفا

دار الينابيع
طباعة . نشر . توزيع
دمشق ــ مزرعة ــ شارع الملك العادل
☎ ٤٤٦١٣٣٠ - ٤٤٦١٣٣٥ ✉ ٦٣٤٨

حميد العقابي

أُصغي إلى رمادي

فصول من سيرة ذاتية

مكتبة
حسين السكاف
٣
موبايل: 0045 27440907

الإهداء

الى ابنتيّ دجله ونور

الوجود والعدم

عنوانٌ غريبٌ أثار فضولي وشهوة الإدّعاء والتميّز بين الأقران، وقفتُ عنده طويلاً وأنا أقلّب القصاصات التي كُتب عليها عناوين الكتب في خزانات المكتبة العامة في المدينة، وبعد تردد سجلتُ العنوان على ورقة الاستعارة وسلّمتها إلى موظف المكتبة العجوز الذي وخزني بنظرة من عينيه اللتين غطاهما جفنان مجعّدان لم أجرؤ على النظر إليهما وهما يحدقان بي من فوق نظارتين سميكتين تقيسان قامتي التي لم ترتفع عن عارضة شباك الاستعارة إلا قليلاً، ولإني أعرف هذا الموظف العجوز وهو الشاعر إبراهيم الشيخ حسون فقد كنتُ أشعر (بحكم الزمالة !) بأنه لن يسخر مني وربما هو نفسه قد أدرك بأن نصائحه لي بقراءة شعر جميل بثينة ونزار قباني وروايات نجيب محفوظ واحسان عبد القدوس لن تجدي بي نفعاً فسلّمني الكتاب مُشفقاً ولعله رأى الفرحَ في عيني وأنا أحمل الكتاب فغيّر انطباعه عني.

حينما دخلتُ الزقاق المفضي إلى دارنا متأبطاً (الوجود والعدم)، وجدتها تقف عند باب دارهم بانتظاري وهي تحاولُ أن تطيل الحديث مع صديقتها، وحينما اجتزتهما سمعتها تقول " إنه شاعر " فكدتُ أطير فرحاً ولكني حاولت إخفاء مشاعري فلم التفتْ وسرتُ بخطوات واثقة من استقامة طريقها ويزهو مفتعل. وهكذا صرتُ أسمعها كل يوم عند عودتي من المدرسة ولم التفتْ إليها مرةً على الرغم من الندم الذي كان ينخرني كل ليلة وأنا أفكر بها حتى صادفتها مرة بصحبة الصبي النزق ابن جارنا الذي طلب مني مرات عدة بأن أملي عليه

رسائل غرامية بأسلوب عاشق متوله ولم أكن أعرف بأنه يبعث بتلك الرسائل إليها عندها شعرت بندم شديد، وحينما علمتُ بأنه هجرها إلى عشيقة أخرى عاد الأمل إلي فقررتُ أن أسحق كبريائي وألتفتُ إليها وأعرض أمامها موهبتي بصياغة أجمل عبارات الغزل وأرق الرسائل الغرامية، غير أنها لم تعد تقف بانتظاري، بل إنها كانت تشيح بوجهها عني بازدراء واضح كلما رأيتها مصادفةً.

تألمتُ لفوات الفرصة لكن اعترافها "بأني شاعر" كان عزاء جميلاً لخيبتي.

ثلاثون عاماً مرت وقد أصدرتُ العديد من المجموعات الشعرية ولكني لا أستطيع إحصاء الخسارات التي سبّبتها لي عبارة "إنه شاعر"، خسرتُ المستقبلَ الباهر الذي كان يتوسمه الأهل بي، وحُرمتُ من الجسارة التي تجلبُ اللذات فصرتُ كلما التفتُّ إلى قصيدة خسرتُ امرأة، ارتضيتُ بالقليل مما ترميه الحياة لي، فشلتُ في كل المهن التي زاولتها، المطرقةُ في يدي لا تعرف طريقَ المسمار فأدفع ثمن سهوي رضوضاً وانخذالاً أمام زوجتي فأسمع قهقهات الجدار "إنه شاعر، إنه شاعر"، خسرتُ العديد من الأصدقاء، ارتضيت بعزلتي وغيّرت النظامَ وفقاً لنزواتي وما يتطلبه انتظار القصيدة، تهجأت الحياة وفقَ نصيحة الشعراء فحفظتُ السنوات على ظهر قلب ثم نسيتها فتكررتْ أخطائي وظلتْ تتكرر حتى غدوتُ خطاً هرماً أبيضَ الشعر، خسرتُ الأهل والوطن متعللاً ببيت شعر قاله أبو الطيب المتنبي، وكم من مرة كنتُ أخرج من بيتي ملتجئاً إلى الغابات في ليالي الشتاء الدنماركي مصطحباً الفرزدق معي نصرخ بالجنّ "أخاكم أخاكم"، خسارات كثيرة ربما كان أفدحها بأني ألهيتُ عن كلّ مكرمة بقصيدة لم أقلها.

بعد ثلاثين عاماً أجلس خلف طاولة الكتابة بانتظار قصيدة وكلما شرعتُ بالكتابة بكتْ طفلتي فأترك كل شيء وأهرع إليها، أحملها، أغيّر ملابسها، أهيّىء

رضاعتها، أطعمها، يخنقني القلقُ حين تمرض، أرقبها وهي تحبو وأفرح حينما تمتدُّ يدها نحو مكتبتي وأضحكُ حينما أشاهدها تمزقُ كتبي وأوراقي.

سنة مرتْ وأنا لم اجترحْ سوى مرثيتين. هل فقدتُ القدرة على كتابة قصيدة ؟ هل أصبحتُ بليداً ؟ لماذا لا يقلقني الوجود والعدم بقدر ما يقلقني عدم تبرز ابنتي منذ يومين ؟

هل أنا نادم ؟

لا أدري.

عزائي مقولة للفيلسوف الدنماركي سورن كيركغورد، أرددها مع نفسي كثيراً:

(إن تتزوج تندم، وإن لم تتزوج تندم كذلك

إن تنجب أطفالاً تندم، وأن لم تنجب أطفالاً تندم كذلك

إن تعش تندم، وإن لم تعش تندم)

وهكذا . . . . . .

فايله / دنمارك

١٩٩٩/١٢/٣١

مفتتح

ينفردُ بذكرياتهِ
يقلّبها
يُصلحُ هيأتها
يرممُ ما تآكل منها
وكقبلة تبحثُ عن فمٍ
يبحثُ لَها عن موضعِ قدمٍ في الزحام
لكنّ
أسئلةً تتعاظمُ
تهجسُ
تتوجسُ
تشتعلُ
تتجمرُ
ثم تنطفئُ عند سقوطِ رذاذ القادم عليها

* * *

يظلُ يصغي إلى رمادهِ

المسبحة

كنتُ وحدي جالساً في مقهى عندما اقترب مني عجوزٌ دنماركي، معتذراً بسبب اقتحامه عزلتي طالباً مني السماح له بالجلوس معي، رحبتُ به بأدب وفي داخلي امتعاضٌ من الأسئلة التي كنتُ أتوقعها، من أين أنتَ ؟ ماذا تعمل ؟ كم هو راتبك ؟ كيف الطقس عندكم ؟ هل تحب الأكل الدنماركي ؟ وغيرها من الأسئلة التي اعتاد الدنماركيون أن يجعلوا منها فاتحةً لعلاقة جديدة أو لقتل الفراغ الذي ينخرهم، لكن هذا العجوز فاجأني بسؤال ما كنتُ أتوقعهُ (ما هذه ؟) وأشار الى المسبحة التي بين يدي، أجبته بأني لا أعرف لها اسماً بالدنماركية، ولم ينتظر مني توضيحاً فسألني (وما نفعها ؟) قلتُ (إنها تدوزنُ قلقي) بدت على وجهه علامةُ استغراب فظننتُ بأني لم أستطع لفظَ الجملة بشكلٍ صحيح فأعدتُ عليه الجملة مرةً أخرى، إلا أنه أخبرني بأنه قد فهم الجملةَ ولكنَ الذي لم يفهمه هو علاقة القلق بالمسبحة وكيف للمسبحة أن تدوزن القلق ؟ وهل التسبيح طقس ديني ؟ عرفتُ من خلال أسئلته بأنه متلهف للمعرفة وليس فضولياً جاء ليقتل ضجراً يعاني منه فاستجمعتُ معلوماتي ورحت أوضح له علاقة المسبحة بعبارة (سبحان الله) وماذا تعني لغوياً وحينما وجدتهُ يعاني من صعوبة الفهم لعلاقة هذا الموضوع باللغة العربية والدين الإسلامي، قلتُ له بأن للمسبحة وظيفة روحية وهي تهيئة الإنسان للدخول في عالم التأمل **(Meditation)** وذلك بتهدئته ليستطيع التركيزَ على نقطة واحدة والغور في عمق ذاته. طفح وجهه بالفرح كمن اكتشف صديقاً كان ينقب عنه طويلاً، اعتدل بجلسته وأشعل

غليونه وبهدوء قال " الآن أدركتُ ما كنت تعنيه بعبارة دوزنة القلق " ثم أردف كلامه " أوافقك الرأي حيث أن لخرز المسبحة كما هو الحال مع الأحجار الكريمة تأثيراً ـ قد لا يبدو واضحاً ـ على الأنامل فينتقل بدوره إلى الدماغ "، شجعتني معرفته بمصطلحات التأمل والباراسايكلوجيا فاستغرقنا بحديث طويل عن التأمل والتصوف والأديان، ودونما وعي امتدتْ يده إلى المسبحة وبودّ أخذها مني وراح يحرك خرزاتها وهو يتحدثُ أو يصغي إلي.

* * *

في الطائرة الذاهبة إلى دمشق من بودابست كنتُ أعدد أسماء الأشخاص الذين أتوقع رؤيتهم بدمشق بعد غياب عنها دام عشر سنوات في الدنمارك، شريطٌ من الذكريات امتد منذ مغادرتي العراق عام ١٩٨٢ وحتى هذه اللحظة، كانت الوجوه تمر على شاشة الذاكرة مثلما تركتُها، وجوهٌ لم تعرف تجاعيد الشيخوخة بعدُ على الرغم من إدراكي بأن من بينهم من قد شاخ وآخرين قد رحلوا إلى الجهة التي لا يعودُ منها المسافر. وجدتُ في استفزاز الذاكرة لعبةً مسلية أقتلُ بها الساعات الثلاث التي تفصلني عن مطار دمشق فرحتُ أسرد لنفسي قصصاً عن الأحداث والأشخاص والأمكنة التي تركتْ آثارها في الذاكرة. وليس كمن يروي لنفسه نكات لتسليتها فيكتشف بأن ما يرويه ليس بجديد فلم يفلح في إضحاك نفسه، بل إن من يتذكر الماضي المؤلم كمَنْ يزيلُ بظفره خثرة الجرح متأملاً الدم وهو ينزف ثانيةً، يتألم حينما يطل على الهوة التي سببتها السنوات، ويبكي حينما يكتشف الأثر الذي سببته الخسارات الكثيرة، وقد يفرح حينما يتأكد من وجود جسده على مقعدٍ في طائرة، وها أنا ومنذ أكثر من خمس عشرة ساعة متجمدٌ في المقعد وأن تغيرتْ وسائل النقل فمن مقعدٍ في قطار إلى مقعدٍ قرب

نافذة في باخرة أبحرت بي بين الجزر الدنماركية ثم مقعد الحافلة ثم مقعد الطائرة التي أقلتني من كوبنهاكن إلى بودابست ثم مقاعد صالة الترانسيت قرأت عليها روايةً وثلاث صحف قديمة، رحلة طويلة لم يبق لنهايتها غير ثلاث ساعات خصصتها للعبة التذكر. رحتُ أعدد أسماء الأمكنة التي مررتُ بها مستخدماً خرز المسبحة كطفلٍ يتعلم الحساب، أتذكر اليوم الأول الذي دخلت فيه كل مدينة ويوم مغادرتي لها، الفنادق، البيوت، الجبال، الأنهار، الجسور، مراكز الشرطة، السجون، المستشفيات، الحدود، المطارات . . . الخ، مكان واحد كنتُ أحاول إلغاءه من ذاكرتي، ولكن حينما تذكرتُ الأصدقاءَ الذين رحلوا وجدتني هائماً بكل تفاصيله، حتى تحول إلى أطلسٍ مفتوحٍ أمامي يستفز لونُه الأحمر حواسي كلها فكانت صرخات القتلى وأنين الجرحى، أصوات المدافع والانفجارات تطغي على صوت محرك الطائرة، هتافات الجنود المحكومين بالإعدام قبل أعشار الثانية من تنفيذ الحكم أسمعُها تحشرجُ في حنجرتي، صرخة نائب العريف (علي) الذي هرب إلى الجانب الإيراني فانفجر عليه لغم، جسد الجندي الذي اختفى حينما تزامن سقوط القذيفة ولحظة عبوره الجسر، الجثث التي تناثرت في مياه الكارون .....

رؤوس المسافرين اختفت في أجسادهم كقنافذ والمضيفات بزي عسكري، وجوههن بلا تقاسيم، صمتٌ تقطعه قهقهات صدام حسين.

○ (عبد المجيد زاده) اسمٌ خطر على ذهني قبل أيام وقد حاولتُ أن أتذكر أين التقيته لكني ما استطعت، الآن يرتسم الاسم أمامي بوضوح. طلبَ منّا العريف (عفتان) أن نذهب معه لنقل (أي شيء) من بيوت (المحمرة) التي احتلها الجيش العراقي قبل عشرة أيام بعد معارك طاحنة قُتل فيها (علي فرهود) رامي الدبابة التي كنتُ سائقها، قام العريف بتوزيعنا ـ كلّ جندي على بيت ـ

دخلتُ البيتَ الذي سأغزوه وأستبيحُ صمتَ أمواته وقد كان قلبي يرتجف ليس من هلعٍ بل من الخجل فأنا لم أسرق في حياتي قشةً حتى هذه اللحظة، لكن الحظ أنصفني هذه المرة فلم أجد أي شيء في البيت سوى أكداس من الكتب العربية والفارسية، تناولت واحداً منها كان يحمل عنوان (صد سالْ أز عزلت) لفتَ نظري اسم المؤلف في أسفل الغلاف كنتُ قد قرأت عنه بعض المقتطفات في الصحف والمجلات الأدبية، إذن إنها رواية (مائة عام من العزلة) لكابريل كارسيا ماركيز التي قرأت عنها ولم تكن قد صدرت ترجمتها العربية وقتذاك، كانت أصوات المدافع العراقية تخلخل البيت وبين الحين والآخر تسقط قذيفة فيتذكر السارقُ عندها شناعة فعلته غير أني كنتُ مشغولاً بفرحِ مَنْ تخلص من الإثم فماذا سأحملُ من هذا البيت الخاوي؟ وماذا يعني ماركيز، لوركا، سارتر، حافظ شيرازي، فروخ زاده وغيرهم للعريف عفتان ؟ هناك التقيتُ بصديقي (عبد المجيد زاده)، ما لقيتهُ وجهاً لوجه بل قلباً لقلب، لقد قرأتُ عبارةُ (من مكتبة عبد المجيد زاده) مكتوبةً على الصفحة الأولى من كل كتاب. صرخ العريف طالباً منا التجمع فخرج الجنود وكل منهم يحمل غنائمه إلا أنا، لم يصدق العريفُ عفتان حجتي فذهب بنفسه إلى البيت ليتأكد من خوائه فعاد وهو يشتم (المجوس). كانت غنائمنا تتكون من صحون وملاعق وطناجر وألبومات صور عائلية وكذلك سجادة صلاة فتحها العريف فسقط منها قرصٌ ترابي ومسبحةٌ سوداء (يسر) دسّها العريف عفتان في جيبه راكلاً قرص التربة بحقد. في الليل وأثناء نوبة الحراسة كانت إذاعة بغداد تذيع بياناً عسكرياً عن سير المعارك في القاطع الجنوبي وكان البيان يبدأ بـ (وما ظلمناهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون) وكنتُ أفكر بأمرين، كيف يتسنى لي الهروب إلى الأمام أو إلى الخلف والأمر الثاني سؤال بالغتْ نفسي كثيراً بالقلق في البحث عن جواب له وكان

السؤال هو (ماذا حلّ بالصديق عبد المجيد زاده ؟) وقد ظل هذا الاسم مطبوعاً في ذاكرتي حتى أني سألت عنه الكثير من النازحين من مدينة خرمشهر (المحمره) حينما كنتُ لاجئاً في طهران، أما الأمر الأول فلم يتسنَ لي تحقيقه إلا بعد سنة من الآلام غزت ذاكرتي خلالها عشرات الأمكنة والمواضع وآلاف القتلى [شلامجه، نهر الكارون، قرية المارد، معمل السفن، مشارف عبادان، نهر بهمشير، مستشفى التعليمي، مدفع ١٠٦، حارق خارق، ملازم عاد، نقيب موفق، رئيس عرفاء محمد، عبد الامير كاظم، تيسير غثيث، سبع إبراهيم سبع، عبد الحسين خابط صافي، إسماعيل خليل، هتلر (رئيس عرفاء انضباط كان اختصاصه في وحدتنا هو معاقبة الجنود المخالفين بشدهم على مقدمة الدبابة أثناء القصف)، محمد تركي (الذي قُطّ جسمه إلى نصفين، العلوي طار مع البرج والنصف السفلي بقي في ما بقي من الدبابة حينما قُصفتْ بصاروخ مضاد للدبابات)، نزار جرجيس (خادم آمر السرية الذي مُنح رتبة ملازم ثاني لرفضه الإخلاء من الجبهة حينما أصابته شظية هاون) و . . . . .] أسماء قتلى كانت تتقاطر على ذاكرتي وكنتُ أستخدم خرز المسبحة لعدّها وكم هالني أني أنهيتُ دورة مسبحتي (٩٩ خرزة) مرات عدة ولم تفرغ الذاكرة.

مرت المضيفةُ بقربي، أخبرتها بأن رأسي يؤلمني فأحضرتْ لي قرصي بانوديل تناولتهما (ألم أقرر بأني سألغي من ذاكرتي السنة التي قضيتها في الحرب العراقية الإيرانية ؟) ورحتُ أطلُّ من النافذة الصغيرة، كان القمرُ منيراً، بدا لي في تلك اللحظة بأن الزمن توقف بي، فها هي الذاكرة تعيدني مرة أخرى إلى الوراء حالما رأيت القمر فرحتُ بلا شعورٍ أرددُ مع نفسي بعضاً مما قرأته في

الصف الأول الابتدائي (القمرُ منير . . البازُ يطير . . قَلَبَ لبيب برميلي . . بلبل . . لقلق . . . . .) فوجدتني أتذكر (القراءة الخلدونية) كلها .

* * *

المدينة لا تشبه الإنسان فكلما مر الزمن تتجدد المدن وتزداد شباباً تتغير بفعل العامل الحضاري فتنجب أبنيةً ومتنزهات وقد لا يلاحظ ذلك المقيم في المدينة ولكن من يعود إليها بعد عشر سنوات سيلاحظ التغيرات التي طرأت بسهولة بل أن أول شيء يبحث عنه الزائر هو ما تغير في المدينة لأن ذلك مرتبط بذكرياته عنها . لا أدري لماذا أشعر بأن دمشق أكثر المدن التي زرتها أنوثةً ولكن أليس من المفروض أن تتحول هذه الأنوثة إلى أمومة بفعل الزمن ؟ لم تزل دمشق كما تركتها قبل عشر سنوات ، شوارعها ، فنادقها ، مقاهيها بل حتى نادلو باراتها لم يتغيروا . . . ألم تتزوج هذه الغانية ؟ ألم تشخ ؟ ولأنها لم تحفر في ذاكرتي جرحاً ولم تترك قبلةً على مدى الستة أشهر التي ألممتُ فيها قبل عشر سنوات لذا فقد بدتْ لي كعذراء خجولة ينبغي استنطاقها وعليّ إذن البدء بالمداعبة .

العراقيون وحدهم الذين يتغيرون في هذه المدينة ، تكتظ (مقهى الروضة) بوجوه عراقية جديدة ، وجوه تعرف عراقيتها بالنظرة الأولى من تجاعيدها وتقطيب جباهها . لم أتعرف على أحدهم سوى الصديق (سمير السعيدي) الذي كان في استقبالي أمس في مطار دمشق وقد صار أباً لثلاثة أطفال كبيرهم بنت عمرها تسع سنوات ، عندها شعرتُ بأن ليس دمشق وحدها التي لم تتغير فها أنا في الأربعين ومازلتُ في منظار نفسي ولداً يخاف كل أنواع المسؤوليات . في (مقهى الروضة) وعلى طاولة تقع مقابل المدخل يجلس (أبو حالوب)، هو الآخر لم يزل كما رأيته من قبل لم يتغير ولكن ازدادت معلوماته فبعد أن كانت معلوماته

تقتصر على دمشق، أماكنها، أحيائها، دوائرها الرسمية، العراقيين المقيمين فيها، أصبح الآن وبحق مختاراً للعالم، فهو يعرف أسماء مدن وشوارع الدنمارك والسويد والنرويج وهولندا كمن يقيم فيها، سمعته يجيب على أسئلة شخص يريد السفر إلى هولندا فهو يعرف أي الطرق أسهل وأقل كلفة بل إنه يعرف سعر تذكرة القطار المغادر من مدينة (كيف) إلى موسكو وفي أية محطة على المسافر أن يستبدل القطار ومواعيد إقلاع الطائرات أو إبحار البواخر. سألته عن الأصدقاء الذين كنت أتوقع رؤيتهم في دمشق فكانت أجوبته تلخص ضياعاً لم يمر على شعب من قبل، في كوبنهاكن، آغوس، مالمو، استوكهولم، امستردام، برلين، كيف، بطرسبورك، لندن، .....

مرةً التقيتُ مصادفةً في مدينة ورزبورك الألمانية بصديق كان جندياً معي في الوحدة نفسها، جلسنا في محطة القطار وتذكرنا الماضي، وقبل أن نفترق قال لي أتذكر !؟ كان الجندي العراقي في الستينات حينما يفرّ من (حرب الشمال) يلتجئ إلى الأرياف فتأتي النساء لمؤاساة أمه بالمقولة المعروفة (بالعربان ولا بالتربان) فهل ستتغير هذه المقولة لتصبح (عند الألمان ولا بالتربان) . . . ضحكنا وسار كل منا في طريقه. وقبل أيام قرأتُ خبراً في صحيفة يومية عن قيام السلطات الهولندية باقتطاع مساحات من البحر وتحويلها إلى أراضٍ تصلح لإقامة أحياء سكنية عليها نظراً للكثافة السكانية التي تعاني منها البلاد، فماذا يفعل عربي هناك وأرضه تمتد من المحيط إلى الخليج ؟ كل الأجوبة السياسية والمنطقية المعروفة لا تقنعني فمأساتنا خرافة والذي يحاول أن يجد مبرراً لها يصطدم بألف معضلة وسؤال والذي يريد إلقاء اللوم على شخص أو جهة أو دولة تتكشف أمامه حقائق تمسه في الصميم وألوف المتهمين أقاموا ويقيمون على أطراف المكان والزمان فلا الحاضر بريء من الدم ولا الماضي، لا هو ولاهم، إنها دائرة لا يُعرف

محيطها ولا مركزها ..... صوتٌ رخيمٌ كان يخترق (الصالحية) يرتل آيات قرآنية بطريقة حزينة هي أقرب إلى الغناء منها إلى التجويد، صوتُ شامي يحمل نبرةً شجيةً لحزن عراقي أليف ... الصوت يقترب .. دخل المقهى رجل بدين قصير القامة أحمر الوجه تلوح عليه إمارات الإنهاك، يحمل على كتفه حقيبةً صغيرة ومن يده تدلتْ مجموعة من المسبحات مختلفة الألوان. دار على الجالسين بكبرياء وصمت فأشاع في المقهى جلالاً. توقفت الأيدي عن رمي النرد وساد الصمت بين الذين تعالت أصواتهم بالنقاش السياسي رافعين وجوههم باتجاه الرجل الذي لم يدفعهُ انتباههم إليه إلى تملقهم وعرض بضاعته عليهم كعادة البائعين الجوالين وبائعي بطاقات اليانصيب، دورة واحدة لا غير ثم خرج من الباب الذي دخل منه بخطوات وئيدة. في الشارع كان صوته يخترق الزحام ويطغى على زعيق أبواق السيارات ونداءات الباعة :

(سبح باسم ربك الذي خلق).

* * *

قضيتُ شهرين وأنا أتصفح كتاب دمشق وكم مرة حاولت أن أهمل الكتاب ضجراً وأرحل لكني كنت أتراجع عن قراري في اللحظات الأخيرة طمعاً في قراءة الفهرست، حتى جاء اليوم الذي حسبتُ بأني قد ختمت الكتاب. دخلتُ صالة الانتظار دون أن ألتفتَ إلى الصديق الذي جاء إلى المطار لتوديعي. قلتُ لنفسي ها أنت تضيف إلى ماضيك ماضياً وليكن ما رأيته تجربة تضاف إلى تجاربك السابقة، وليكن نجاح التجربة أو فشلها هامشاً أما المتن فهو تأثير التجربة وغناها الروحي ومتى كنت تحسب الوقت والتجارب في حساب الربح والخسارة ؟ وإذا مررت بتجربة خاسرة فتذكر أنك تلعب في الوقت الإضافي فلو شاء القدرُ أن

يهديك شظيةً في الحرب أو رصاصة من بندقية توجه إليك ذات صباح في ساحات الإعدام أو موتاً يهديك إياه زهوك في لحظات إثبات الذات لكنت الآن عظاماً في الأرض الحرام أو جثة في وادٍ أو على رابية محترقة ، لكنك الآن تقيم في بلاد يحسدك عليها الجميع ، تسافر بجواز دول السوق الأوربية المشتركة وحقيبتك مليئة بالكتب والهدايا تودعك امرأة في دمشق وتستقبلك أخرى في (فايله) وما بينهما بقايا عائلة (أخ حمل حيامنه في نهاية عام ١٩٧٧ بعد أن استشعر الخطر وغادر العراق إلى هنكاريا فصارت ولداً وبنتاً هما بانتظارك الآن) ، وكما في حالات تهيئة النفس للدخول في عالم السكون والغور في أعماق الذات يتم التركيز على نقطة واحدة ، كذلك من يريد استعادة صورة المدينة . تركتُ جسدي يتسرب من بين أصابع المكان ورحتُ أتصفحُ كتابَ دمشق ثانيةً ، شوارعها ، باراتها ، مقاهيها ، مكتباتها ، وجوه الأصدقاء القدامى والجدد ، نسائها .....

كانت صورة بائع المسبحات هي شمعة تأملي ، ربما هي الصورة التي جئتُ من أجلها ، ربما هي الإطار الذي كنتُ قد وضعته (واهماً) للشرق الذي كنتُ أخفيه في داخلي عشرة أعوام ، ربما هو الحنين إلى اللحظات الجليلة التي أتمناها ، ولكن هل أنا في هذه اللحظات هو أنا ؟ أم أني أبحثُ عن خاتمٍ رميتهُ في لحظة عبث ؟ أم تراني أبحث عن خاتم الوهم لتبرير ضعف القدرة على دوزنة أوتار نفسٍ مقطوعة عن ماضيها وحاضرها ومستقبلها ، هذا الوهم الذي علمني لعبة الهرب من المأزق ومن مواجهة أي معضلة . أخرجتُ ورقةً ورحتُ أكتب :

(دمشقُ افتراضٌ

دمشقُ افتراء)

حاولتُ أن أضيف إلى هذا المفتتح كلمةً أخرى لم أستطع، اشتقتُ إلى تدخين سيجارة وكنتُ قد تركتُ التدخين منذ خمس سنوات، حاولت أن أكبح في نفسي هذه الرغبة ولكنها استبدت بي أكثر فطلبتُ سيجارة من شاب يجلس خلفي سمعته يتحدث باللهجة العراقية ورحتُ أدخن متحججاً بأن ليس بمقدور الإنسان أن يقاوم كل الرغبات بوقت واحد.

* * *

ذات مرة كنت جالساً في حديقة جرداء أتوهم موعداً، قفزت قطة ناشبةً براثنها بوجه الهرّ الذي كان يبدو متعبا من اللحاق بطريدته المتعالية، جلسا متقابلين يحدقان إلى بعضهما، هي تنظف فروتها وهو يلهث، تمطت فتكور متحفزاً، تقدم منها بخطوات وئيدة، زفرت عليه فارتد متقهقراً (هذه الكلمة أكرهها كثيراً فهي تذكرني بالبيانات العسكرية العراقية إبان الحرب) والهزيمة تنخره لكنه لم يفقد الأمل، ولكي يداري فشله راح ينظف فروته بافتعال ذكوريّ واضح كذبه حيث أنه يقطع الاهتمام بنفسه كلما أبدت الأنثى حركة، صمتٌ مقطوع بقرقرات وزفير كالصمت الفاصل بين قذيفة وأخرى، نهضتْ بتثاقلٍ، تمطتْ بتجاهل لعوب فنهض وعيناه تقدحان بشرر الشبق وذل التوسل، تقدمت نحوه بخطوات واثقة، تراجع بقدر ما تقدمت، أدارت إليه ظهرها رافعةً عجيزتها محركة ذنبها إلى اليمين وإلى الشمال بحركات سريعة كأنها تهش عن جسدها ذبابة، وبسرعة خاطفة قفز مختصراً المسافة بنطّة واحدة، أعتلى ظهرها عاضاً رقبتها بتشبث وحقد، لحظات متوحشة وصراخ جسد يحاول الإفلات من قبضة الغرق بتوسلٍ ورعب، غريق تسعفه كف لا صفةَ لها، تندفع لإنقاذه بلا وعي منها، وكماً ينطرح الجسد الذي أنهكته المكابدة على الساحل مسترخياً انطرحت القطة لاحسةً

ما بين فخذيها بينما كان الهر ينزف تعبه وكرامته المجروحة ، تطلع إليها بحقد ثم أدار لها ظهره ومشى.....

نهضتُ من المصطبة لاغياً الموعد الذي توهمته.....

لم تكن المرأة في حياتي سوى وهمٍ من أوهامي الكثيرة التي أهرب اليها حينما أشعر بالوحدة أو بالهزيمة وهذه عادة مازالت تلازمني فأنا لا التجئ الى ممارسة عاداتي السرية في لحظات استبداد الشبق أو في حالة مشاهدتي لقطات مثيرة بل إن ما يدفعني إليها هو التوتر الروحي أو الخوف من الموت هذا الهاجس الذي يستبد بي كلما اختليت بنفسي وكذلك في لحظات القلق والانتظار ، أتذكر أني مرة مارستُها في عيادة طبيب الأسنان وكان الألم يمنعني عن الاستقرار على الكرسي في صالة الانتظار ومرة مارستها في كنيسة ملحقة بمستشفى في مدينة آغوس الدنماركية وكنت أنتظر موعد تسليمي جثة صديقي عادل العرس لدفنها ، وكانت هذه العادة تلح عليّ كثيراً في الدقائق الأخيرة من وقت العمل اليومي ، لا أدري لعل في داخلي امرأة ضعيفة مستبدة أكرهها ولكي أنتقم منها أجلد عميرتي . وهكذا كنت أهرب من رغبة الى رغبة وأستبدل وهماً بوهمٍ كمقامرٍ يطحن دمه بالرهان وحينما يترك طاولة الروليت يكتشف بأنه ليس برابحٍ فيفرح وليس بخاسرٍ فيحزن وهكذا تتكرر لياليه دونما مفاجأة ، تخذله إرادته كلما فكر بالإقلاع عن هوس المقامرة .

كنتُ أنا المراهق الوحيد من بين أقراني من لم يشغله الحديث عن الجنس أو المفاخرة بإغواء الفتيات حيث كان شعوري بأني شاعرٌ يجعلني أنظر بسخرية لكل ما يشغل أقراني ، زاد شعوري هذا أني دخلتُ السجن وأنا في سن الرابعة عشرة بسبب فتاة سرقت بيت جارنا وحينما تم ضبطها في البيت ادّعت أنها دخلته خوفاً من ولد كان يلاحقها وكان ذلك الولد هو أنا ، اعتقلتني الشرطة من المدرسة فخرج المدرسون والطلاب من الصفوف يراقبون المشهد باستنكار وصمت وقد

كنت ألمح (أو أتوهم ذلك) الحسد في عيون المشاكسين من الطلاب، كانت في نفسي رغبة أن أصرخ (على طريقة المناضلين حينما يسيرون إلى حبل المشنقة) بقصيدة الجواهري التي تبدأ بـ (أتعلم أنتَ أم لا تعلمُ / بأن جراح الضحايا فمُ) أجلسوني على مقعد في سيارة البيك آب المكشوفة وجلس شرطي إلى جانبي يقاسمني الجامعة (الكلبجة)، مرت السيارة بسوق المدينة المزدحم وكنتُ مطأطأ الرأس. صفعني ضابط الشرطة فأقسمتُ أمامه بـ (العباس أبو رأس الحار) بأني لا أعرف هذه الفتاة ولم أرها (طيلة حياتي !)، وبعدها بسنة وقفتُ أمام محكمة جزاء الكوت واضعاً يدي على (المصحف) مؤدياً اليمين بأني لا أقول إلا الحق وبعدها بسنة أخرى استدعيتُ إلى محكمة الأحداث ببغداد فاصطحبني أبن عم لي كان قد خرج من السجن قبل بضعة أيام بعد أن قضى أحد عشر عاماً فيه راح يطمئنني طوال فترة الانتظار، ثم دُعيتُ شاهداً فوقفتُ أمام الحاكم وبكيتُ....

كان ذلك بسبب فتاة لم أرها.

المرأة وهمٌ أعلّق عليه هواجسي لأنام والنوم معها هروب من انطباق جدران الصمت علي، والمتعة عندي هي متعة اكتشاف الطبيعة بتضاريس الجسد أو اختراق الأشياء الغامضة بافتضاض بكارة السر أو متعة الاسترخاء لتهيئة النفس للدخول إلى عالم التأمل، قبل العملية الجنسية أشعر برغبة فاجرة تدفعني إلى تلفظ كلمات تدل على نفس داعرة وبعد العملية أشعر بإشعاع الفضيلة يغمر روحي فأشعر بمتعة تتضاءل أمامها متعة التقاء الجسدين حتى صرت التجئ إلى الجنس ليس بدافع المتعة بل بدافع التخلص من سطوة الجسد فصارت المرأة في نظري وسيلةً لا غاية.

وعودةً إلى دمشق التي مهما حاولت أن أتجنب الحديث عن نسائها أجد استحالة الفصل بين المدينة والمرأة، فكما يقول الشاعر صلاح نيازي (لكل مدينة ابواب سرية، لا تعثر عليها في أية خريطة. المرأة فقط تدلّكَ عليها بالغريزة باباً باباً)، لذا فأني لم أستطع اكتشاف دمشق إلا بالمرأة، ولكن المرأة وإن كانت تدلّكَ على الأبواب السرية للمدينة إلا أنها وبسبب ضعفها وبغريزتها الدفاعية المتمثلة بالكيد تُبقي المفاتيح بيدها كما يحتفظ الرجل الشرقي بالعصمة، فأنها تستطيع إغلاق أبواب المدينة متى ما شاءت ولا تبوح بالسر كإجراء احترازي ضد دكتاتورية الرجل، المرأة الشرقية تستطيع تمثيل دور عاشقة لعشرين رجلاً في وقت واحد أو بالأحرى تكون معشوقة من قبل عشرين رجلاً على أمل أن يتزوجها واحد من أولئك العشرين، وما أن تتزوج أحدهم حتى تبدأ تنازلاتها لتسعة عشر ثوراً يهددونها بالفضيحة ومسكينٌ هذا الذي تورط بحبها فهي إن كانت واضحة معه وكشفت عن أوراق ماضيها أكتشف بأن سهم اليانصيب الذي توقف عنده بعد أن دار على تسعة عشر مقامراً هو الذي جعلها تختاره لا الحب الذي كان يتوهمه، وإن صمتت سيكتشف الحقيقة يوماً، وقد لا يشكل ذلك مشكلة لرجل يؤمن بالمساواة ويحق المرأة بممارسة الجنس إلا أن تحايل المرأة الشرقية من أجل الحصول على هذه المتعة بأقصى السرية يجعلها تدمن الحيلة والكذب وبالتالي تتحول الحيلة ذاتها إلى متعة تضاهي متعة الجنس نفسه.

تركتُ دمشق شتاءً على أمل العودة إليها في الربيع وقد كنت حسبتُ نفسي قد أكملت قراءة كتابها.

* * *

لا أظنُ أنها مشكلتي وحدي بل هي مشكلة الرجال الشرقيين كافة ترتبط عندهم الفضيلة والرذيلة بعلاقتهم بالمرأة فكلهم شهريار لو امتلكوا سطوته وإن ادعوا عكس ذلك فلأنهم يشيحون وجوههم عن ذواتهم وإن كرهوه فحسداً أو لأنهم يهربون من حقيقتهم التي اصطنعوا الفواصل بين حروفها، يهربون لكن ظل شهريار يتبعهم لذا فأنهم خلطوا نون النسوة بنون النسيان بنون والقلم كي يطمسوا الحقيقة في أنفسهم. وهذا ما كان معي فما أن اكتشفت بأن المرأة التي تركتني أتهجى على جسدها تضاريس المدينة قد ضللت خطوتي حتى عادت دمشق أمامي مغلقة الأبواب كما كانت في اليوم الأول من زيارتي الأولى لها، لكني وبعد أحد عشر عاماً عشتها في الدنمارك منبتّاً صرت أرى الأشياء بعين ذاتي وأنظر الى قيمتها بقدر ما تتركه في نفسي من متعة أو نفور حتى أنني كنت أتساءل مع نفسي وأنا أحاول اكتشاف دمشق هل حقاً أني أريد اكتشاف المدينة أم أني أسعى إلى إكتشاف ذاتي من خلالها. وكعادة المنبتّ يقيم في المكان ولا ينتمي اليه ولكن كانت دمشق ـ وعلى الرغم من هذا الشعور الذي ما انفك يلازمني ـ بالنسبة إلي مكاناً لم أزره كسائح بل كانت ملاذا ووطنا أسعى إلى مد شعيرات في تربته أحسبها جذراً أبحث فيها عن دفء وهكذا بدأت أعيد ترتيب الماضي وأزيل آثار الدبة عن الروح التي طمرها الثلج، أستبدل سنةً بسنة وامرأةً بامرأة وأزيل الغبار عن فضة الذكريات، صرت أخلق من الأشياء العابرة متعاً أطيلها أو أقصرها حسب مشيتي. أواظب على قراءة الصحف اليومية وأناقش القضايا الراهنة بمسؤولية ابن البلد، أبرر السلبيات بما تمليه الظروف الموضوعية. وعلى الرغم من الهستيرية التي كان يسببها لي صوت الأغاني الساذجة وزعيق أبواق السيارات كان هناك صوتان يغمرانني بالبهجة، صوت أذان الفجر الذي كنت أحرص على سماعه يومياً وصوت بائع المسبحات الحزين الذي كنت أتبعه من بوابة الصالحية وحتى مقهى

الروضة وفي بعض الأحيان كنت أغير مسار طريقي متتبعاً خطواته البطيئة وصوته الذي يخترق جدار الضوضاء.

هذا أول صيف حقيقي بعد أحد عشر صيفاً دنماركياً كانت دمشق تغلي بالناس وقد اعتدتُ أن أقضي ساعات الظهيرة في مقهى الروضة حيث يتجمع العراقيون بنقاشاتهم العقيمة وطموحاتهم المكبوتة، أحلامهم تتعفن بدنان المقاهي والبارات.

ما أن دخلتُ بوابة الصالحية متجهاً إلى المقهى حتى لمحته متجهاً بالاتجاه نفسه، ولأنه قصير القامة فأنه يضيع في الزحام فعادةً كنتُ أسمع غناءه قبل أن أراه لكن هذه المرة لمحتُ ظهره ولم أسمع صوته، كان يسير صامتاً على غير عادته بخطوات واهنة، أسرعت بالمشي كي ألحق به حتى أصبحتُ قريباً منه وقبل أن أجتازه التفتُ إليه، كان يحمل حزمة من مكشّات الذباب يعرض بضاعته على المارين ويتملقهم كما يفعل بائعو بطاقات اليانصيب.

* * *

في الطائرة العائدة من دمشق كنتُ أدخن بشراهة وأتساءل هل اكتشفتُ دمشق ؟ هل اكتشفتُ نفسي ؟ ما الذي أبغيه ؟ حقاً ما الذي يبغيه هذا الكائن الكامن فيّ ؟ يراهن على المرور من ثقب إبرة، وحينما يمرّ يستسخف الأمر ويراهنُ على الطيران وحينما يحلّق أعلى من كل الطيور يتهم الفضاء بالضيق، مالذي يبغيه الإنسان في حياته ؟

صورتان كانتا عالقتين بأجفاني، صورة بائع المسبحات أومكشّات الذباب، ودموع زوجتي . . . زوجتي التي تتلهف على الإقامة معي، هي لم تكن تدري

بأن بحيرتي حملتْ نوارسها وملحَ تخومها وتسترتْ بالليلِ واختارتْ رحيلاً لا يقرُّ لهُ وطن.

أخرجتُ ورقةً ورحتُ أكتب:

(معي طللٌ لأفتتحَ القصيدةَ

غير أن الأرضَ ما عادتْ مكاناً

والزمانَ بلا زمانٍ

قلتُ:

إن الشامَ شمْرُ عصىً

ولكني أضعتُ الدربَ نحو الشيخ محي الدين ظهراً

- كنتُ أحملُ ما تبقى من رؤىً

وأريدُ ظلاً أحتمي بهِ من ضلالي -

في الرواقِ

سمعتُ نادبةً

ترددُ (كلُّ شيءٍ باطلٌ)

فرجعتُ أبحثُ

هلْ نادلةً

تروضني بحكمتها

فارجعُ عن قراري

* * *

قلتُ :

إنّ الشام رميُ حجرْ

وبعد الشامِ شاماتٌ

ولكنْ

ما وصلتُ .....)

* * *

أيلول ١٩٩٦ فايله

بـــــزّون

في أمسية صيفية من عام ١٩٧١ كان متكئاً على الصوفة وقد بدأ يتماثل إلى الشفاء من إصابته بالشلل النصفي يحيطه إخوانه وبعض الأصدقاء الذين جاءوا لزيارته.

في ضحى يوم شتوي من عام ١٩٨١ كانت تتنقلُ ما بين سريرها والمرحاض ماسكةً بطنها بكلتا يديها مضطربةً وتبدو عليها علامات الانهيار واضحة، قلقةً على غير عادتها فهي وإن كانت تحمل أطناناً من الحزن إلا أنها نادراً ما كانت تبدو ضعيفة.

كانتْ عيناه زائغتين تحدقان في وجوه الحاضرين تستجدي منهم لحظةَ إصغاء أو شفقة، يحاولُ النطق فتخذلهُ شفتهُ الهاطلة إلى أسفل ذقنه.

كانتْ بقامتها النحيلة ونظراتها القاسية تبدو كتمثال حجري تصوّبُ نظراتها إلى الجدران تارة وتارة ترمق السماء بنظرةِ لومٍ وعتبٍ متمتمةً بخليط من الدعاءِ والتجديفِ تحاولُ إخفاء الضعف بكلامٍ توجهه إلى بناتها بصيغة الأمر.

على الرغم من مرضه الآن إلا أن صورته ليست غريبة عليّ فأني لم أره يوماً قوياً بل هكذا كانت صورته دائماً كما أراها اليوم، قسماتهُ تدلُّ على القوة إلا أنه رجل منخورٌ، ضعيف الإرادة مستكين إلى قدره، طموحهُ لا يتعدى رغباته الآنية في الأكل والنوم، يتوسل إلى الله ويطيل دعاءه في الصلاة باكياً إذا أصيب بالأنفلونزا، وإذا طُرق الباب ليلاً تمثل له شرطي جاء لإعتقال أحد أبنائه، لم يشتم شرطياً في حياته وإذا اضطر لمراجعة دائرةٍ حكومية لغرض إصدار وثيقة

رسمية فأنه يقضي ليله ساهراً متأففاً قلقاً وما أن يكمل المعاملة حتى يأتي إلى البيت طائراً من الفرح ليسرد حكايات تخترعها له أوهامُه، فإذا دعاه موظفٌ أو عاملُ تنظيف إلى الجلوس جعل من ذلك قصةً طويلة يسردها بزهو ويحركات تمثيلية غبية تدل على كذب فاضح، يروي لنا كيف نهض المتصرفُ من كرسيه قائلاً " هاي وينك أبو هادي ليش ماتزورنه، احنه بالخدمة لأبو هادي. "

لم أرها ضعيفةً أو منهارة في أشد الظروف قسوةً، أتذكرُ حينما نهضتْ من سرير الفحص وقفتْ بصلابة تحدق إلى وجه الطبيب الذي أخبرني بالإنكليزية بأنها مصابة بسرطان في الأمعاء، أدركتْ ما يعنيه الطبيب فابتسمتْ وهزتْ يدها استخفافاً وهي تردد " ليش آنه أحسن من هالشباب الجاي يموتون ". لم ترضخ لرغبة أحد ولم تتشبثْ في الحياة بوهمٍ وان مرضتْ كانت ترفض الذهاب إلى الطبيب إلا بعد إلحاحٍ منّا، ترفع وجهها إلى السماء وتحكي مع الله كمن يتحدث مع طفل مذنب " اسلتْها هي روح وحده قابل روح جلب "، كانت تحمل صينية الشاي وتدخل إلى الغرفة حيث رفاق ابنها يعقدون اجتماعاتهم السرية، ساخرةً من جبنهم وغبائهم الذي يدفعهم إلى مصالحة أعداء الأمس مرددةً عبارات الاستخفاف من رجال آخر الزمان الذين يساقون كالخراف إلى المسلخ ولسان حالها يقول (قد ينبت المرعى على دمن الثرى وتبقى حزازات النفوس كما هي)، لكنها اليوم منهارة على غير عادتها.

وعلى الرغم من بلادته إلا أنه كان سريع التأثر وبإمكان أي شخص أن يستفزّه وإذا غضبَ فأنه لا يشتم أو يضرب أحداً بل ينزع طاقيته بهدوء ثم ينهالُ على نفسه بالضرب، ولا أحد يستطيع الإمساك بيديه ومنعه فقد تتحول يداه وقتذاك إلى كتلة لا يمكن ليّها حتى يزرقّ وجهه ويسيل الدم من منخريه بغزارة

مخيفة، عندها يجلس صامتاً وعيناه تقدحان شرراً يحدق إلى زوايا الغرفة ويرتفع شخيره كثور مذبوح.

كانت تنسلُّ بهدوء إلى المطبخ ومن هناك يأتي صوتها محطماً صنم الرهبة بسخرية تفضح زيف جلال الموقف نادبةً حظها بأغنيات لم أسمعها من غيرها، دقائق وتطل حاملةً إجانة من الثريد، تجلس إلى جانبه بثقة البريء من أي ذنب ثم تدفع الإجانة بقدمها نحوه، كل مرة أتوقعُ بأنه سيقذفها بالإجانة ليحرق وجهها بالمرق الساخن، إلا أنه لا يفعل ذلك بل يلتهم الثريد بشراهة مَنْ لا يعرف موقعَ فمه.

أتذكر مرة حينما كنت في السابعة من عمري كنا جالسين بانتظار أن ينتهي من صلاته وكان من عادته أن يرفع صوته في الصلاة ويطيل الدعاء وكنا نحن الصغار نتذمر لأننا لا نستطيع البدء بالعشاء ما لم ينته من الصلاة، بعد أن انتهى وجلس على الحصيرة ومد يده إلى الطعام بادرتْهُ بالقول "بويه صلاتك غلط"، ارتجفتْ يده فسحبها عن الصحن، أزاح بها طاقيته وراح يضربُ وجهه ورأسه، رحتُ أوضح له بأنه يقرأ (قل والله أحد * الله الصمد) والصحيح هو (قل هو الله أحد ◆ الله الصمد) إلا أنه وكلما ازدادتْ سرعةُ كلامي لتوضيح القصد، راح يزيد من سرعة ضرب رأسه حتى هربتُ إلى سطح البيت خائفاً. بعد يومين تكرر المشهدُ ثانيةً فقد كنا بانتظار العشاء وكان يصلي بصوت هامس إلا أنه رفع صوته بشكل مفاجئ (قل هووو الله أحد ◆ الله الصمد) عندها نطتْ من فمي ضحكةٌ شامتة فتوقف عن الصلاة خائرَ الإرادة وراح يمارسُ طقسَ تعذيب نفسه بقسوة غريبة.

كانتْ جالسةً بهدوء وترفع تحدق في وجوه النسوة اللواتي جئن لأمر غامضٍ لم أستطعْ إدراكه إلا بعد أن خرجن وبعد إلحاحٍ مني لمعرفة الأمر، كانَ

الأمر يعني إحدى أخواتي. لم يمضِ على جلوس النسوة عندنا سوى دقائق معدودات ثم خرجن بغضب متمتمات بكلمات لم أفهمها ، لم ينطقن سوى كلمات تدل على رفضهن شرب شاينا ، عندها نهضتْ بقامتها الفارعة كتمثال من جبروتٍ ، أدارت مقبض الباب بحزمٍ باسطةً كفها نحو الخارج كإشارة أمر إلى النسوة بالخروج من بيتنا. أتذكر عندها كنتُ فخوراً بها وفرحاً خاصة بعد أن أدركتُ بأن النسوة جئن لأخذ أختي لابنهن كي يتزوجها وكان الزواج بالنسبة إلي وقتذاك لايعني غير ممارسة الجنس وهذا ما كان يثير في نفسي الرعبَ والغثيان.

كان عاطلاً عن العمل ، يقضي نهاره في المقهى التي تقع مقابل مدرستنا ، وكم مرة بعثني مدير المدرسة إليه كي يدفع أقساط الدراسة أو يشتري لي دفتراً أو قلماً فكنتُ أراهُ ينهض إلى صاحب المقهى أو إلى أحد الجالسين ماداً يده فيعطيه درهماً بامتعاض.

كانت تعمل ليلاً ونهاراً بخياطة عباءات النساء أو بغزل الصوف.

كان حلمهُ أن يسافر إلى(مكة) ويسمع الناسَ تناديه (حجي بزون) .

كان حلمها أن تنتهي الآم البشرية.

* * *

في أمسية صيفية من عام ١٩٧١ كان متكئاً على الصوفة يحاول النطق وكان زائروه يفتعلون الإصغاء والاهتمام ، سمعته يتحدث عن أبنائه ، عن أيام ولاداتهم عن طفولتهم عن طريقة استقباله خبر ولادة كل منهم ، حسنيه ، فاطمه ، هادي ، وداد ، مهدي ، محمد ، توقف قليلاً ثم انفجر ضاحكاً بصوت عال واستمر بضحك يشبه الصراخ حتى بدا للجالسين بأن شلل لسانه يمنعه عن التوقفَ ، ارتسم القلقُ الممزوج بالشفقة على وجوه الحاضرين ، لم يستطيعوا مجاراته

بالضحك، بل إن بعضهم انزوى بعيداً باكياً حاسباً أن الشلل قد تسرب إلى رأسه فجُن الرجل. فجأة توقفَ ووجهه مبتل بالدمع، تجرع شيئاً من الماء وصمتَ قليلاً ثم حاول أن يتحدث ثانيةً قاطعه أخي الكبير محاولاً تغيير مجرى الحديث إلا أنه بعد صراع مؤلم مع التلعثم نطّت من فمه جملةٌ سقطت مدوية في أذني:

ـ أما حميد فجاء عن طريق الغلط

قالها ثم انفجر ثانيةً بضحكٍ هستيري يثير الرعب.

في ضحى يوم شتوي من أواخر عام ١٩٨١ كانت تتنقل ما بين سريرها والمرحاض ماسكةً بطنها بكلتا يديها وتبدو عليها علامات الانهيار واضحة، قلقة على غير عادتها، كان وقتها قد مرّ أسبوع على هروبي من الخدمة العسكرية وكنتُ مختبئاً في البيت، أثار اضطرابها انتباهي، هل سمعت خبراً عن مهدي (أخي الذي اعتقلوه منذ أكثر من سنة)، خاصة وأني قد خبرتُ أسرار بيتنا فهو على الرغم من كونه مغلق الأبواب على أربع عانسات اخترن الاعتكاف طوعاً إلا أني لا أعرف كيف تتسربُ الأخبار إلى البيت ففي كل يوم أراهن يتحدثن عن أحداث ويتناقلن أخباراً كنتُ أحسبها من صنع أوهامهن إلا أنني سرعان ما أتحقق من صحة تلك الأخبار وتبقى طريقة نقلها مبهمة، لا يبحن بالسر مهما أغريتهن على ذلك، إنهن وكالة أنباء تتلقى المعلومات بطريقة الحدْس، لذا فأنهن لم يثرن فضولي هذا اليوم لمعرفة سر هذا التكتم على شيء مهم جعل من أمي مضطربة إلى درجة الضعف. مرت ساعات النهار فأدركتُ بأن شيئاً خارج دائرة المألوف قد حدث، سألت أختي الكبيرة فتكتمتْ فرحتُ ألح باستفساراتي:

"هل أعدم مهدي ؟ "

"لا "

"هل وصل خبر عن هادي ؟ "

"لا "

"هل تم استدعاء محمد ؟ "

"لا "

"هل مات أحد ؟"

"لا..... "

"شنو المشكلة إذن ؟"

قلتها بغضبٍ ونفاد صبر فجاءني جوابها هامساً:

"خالي يحتضر"

انزاح كابوسٌ عن عيني وتنفستُ بعمقٍ كمَنْ يتخلص من حمل ثقيل فقلتُ بسخريةٍ:

"وين المشكلة ؟ رجل شايب يحتضر، آلاف الشباب يُقتلون يومياً في الحرب أو في السجون. "

قالت:

"لكنه طلب يشوف أمي قبل ما يموت"

"وليش ما تروح تشوفه ؟ "

سألتُ باستنكارٍ وحيرة.

"ما تريد تشوفه"

هنا أدركت بأن الأمر ينطوي على سرّ لا أعرفه ، اقتربتُ من أمي محاولاً تهدئتها ، كانت جالسةً تحدق في الجدار وعيناها غائرتان تفتشان عن شيء لا وجود له.

"ليش ما تروحين تشوفين أخوج ؟ "

سألتُ بنبرةٍ حزينةٍ لا تخلو من اللوم واستنكارٍ إصرارها على عدم زيارة أخيها.

"أكرهه "

قالتها وكأن الحقد كلّه قد تجمعَ في كلمةٍ ، ثم أردفتْ:

"حالفه ما أشوفه لو شوفته تدخلني الجنة"

لم أرد أن أطيل الكلام معها فتوقفتُ عن الإلحاح بالأسئلة ، إلا أن هاجساً راح يقلقني ويحضني على معرفة السبب . كنتُ أعرف أن هناك مشاكل كثيرة بين أهلي وأقاربنا وقد كنتُ على يقين دائما بأن السبب لكل هذه المشاكل هو أنهم لا يطيقون استبداد أمي وعنجهيتها ولسانها الآمر المتسلط في كل الأمور ، وأمي وعلى الرغم من البؤس الذي نحن فيه لم تتنازل عن رأيها حتى لو كانت على خطأ ، بل هي لم تسامح أحداً حتى لو سجد لها وأعتذر .

كانت تحدق إلى الأرض وتدير إبهاميها حول بعضهما بحركةٍ تدل على الغضب وفقدان التوازن.

"ليش ما تريدين تشوفين أخوج ؟"

"أكرهه"

"مسكين خاف يموت وما يشوفج"

"إلى جهنم "

قالتها بغضب وكراهية ثم أردفت:

"ما أبريه الذمة ماطول بيّ نفس "

"ليش تكرهين أخوج ؟"

سألتها بإصرار مَنْ لا يريد الانتظار طويلاً كي يعرف الجواب، وعلى الرغم من إشفاقي عليها في تلك اللحظات إلا أن فضولي كان يمنعني عن التوقف عن طرح الأسئلة محاولاً سرقة لسانها لمعرفة السر الكامن وراء هذا الحقد الدفين، الحقد الذي كنت أكاد أسمعهُ يقرقرُ في نفسها. حاولتْ الهروب من حصار أسئلتي فنهضتْ إلى المرحاض ماسكةً بطنها وحينما عادتْ قرأتُ في وجهها رغبة البوح بالسر، جلستْ صامتة تحاول أن تخفي قلقها بأن تسل خيطاً من السجادة، تبرمه بسبابة وإبهام مغمضة عينيها لتوقف دوران أفكارها.

"ليش تكرهين أخوج ؟ "

أعدتُ طرح السؤال عليها فرفعتْ رأسها عن الأرض، حدقتْ إلي بعيني صقر فارتجف شيء في داخلي، شعرتُ بالخوف من معرفة حقيقة لا أستطيع تحمل وزرها، لحظات من الصمت مرت لم أشعر بأن هذا الكائن الذي يقابلني هو أمي التي أحبها بل إنه عدو يطلب المبارزة ولكي أخفي عليها ضعفي وأمارس رجولتي كررتُ السؤال مرة أخرى وبنبرةٍ أعلى:

"ليش تكرهين أخوج ؟"

"لأنه زوّجني لأبوك رغماً عني "

قالت عبارتها هذي كمَنْ يتقيأ سماً يمزق أحشاءه، كانتْ تحركُ كتفيها متغنجةً بغطرسة فتاة تنتصر على رغبة والدها برفضها الزواج من الشخص الذي

لا تحبه وكأنها أعادت الزمن خمسين عاماً إلى الوراء لتغيير مساره، فها هي تستعيد شجاعتها صارخةً بوجه أخيها رافضة الزواج من ابن عمها الذي لا تطيق رؤيةَ وجهه، تحرك الدمُ في وجهها وطفح فرحٌ ونشوة انتصار في عينيها، إنها أخيراً وجدتْ من يصغي إلى رغبتها المكبوتة. لم تكن تنظر إلي كابن لها بل راحت تنظر إلي نموذجاً لذلك الزوج الذي ما استطاعتْ أن تقول له ذات يوم قبل خمسين عاماً "إني أكرهك" وها هي الآن تأخذ بثأرها من نموذجه الجالس أمامها. لو كان في داخلي وقتذاك جهازٌ يكشف لاشعوري لظهر على شاشته خليطٌ غريبٌ من المشاعر التي استيقظتْ فجأة، أقولُ (خليط من المشاعر) كي أهرب من حقيقة شعوري تلك اللحظة وخوفاً من البوح حتى لنفسي خجلاً منها وقد كنتُ أخفي ذلك وأتهرب منه كلما تذكرت ذلك الحديث الذي كان بيني وبين أمي، لقد كنتُ أشعر لحظتئذ بحبٍ عميق لأمي، حبٍ خال من الشفقة ولأكون أكثر صدقاً فقد استبدتْ بي هواجسُ شبقية وشهوة.

هذه المرة جاء دوري في التحايل أمسكتُ بطني وأسرعت إلى المرحاض، هناك كدتُ أتقيأ أحشائي وكأن روحي تفترسُ روحي. رحتُ أقطع الممرَ بين الغرفة والمرحاض، أدخنُ بشراهة وأدخل الغرف متحججاً بالبحث عن شيء مبهمٍ كي أخفي احمرار عيني وقلقي، لا أدري كم من الوقت مر قبلَ أن أدخل غرفتها ثانية، تسمرتْ عيناها على قامتي، عيناها اللتان امتلأتا بنظرة شماتة وهي تحدق إلى جبروت الرجولة الخاوي، هذا هو رجلٌ ينهار أمام ضربات معول مشاعرها التي خبأها الحيف خمسين عاماً، ارتجفتُ كنتُ أظن أنها تنظر إلي بشبق فارتبكتُ ثانية ولكي أخفي ذلك الشعور الغريب الذي طمرني رحتُ أحدق إليها بكراهية وعتب، كانت تتوقع مني العودة إلى طرح أسئلة أخرى، بل إنها كانت تتوقع تلك الأسئلة فأحضرتْ لكل سؤال تتوقعه مني جواباً سريعاً.

"لكن خمسين سنة مرت على زواجك من أبي ، ما نسيتي ؟"

سألتها برقّةٍ مفتعلة ، فأجابتْ على الفور:

"لو تمر مليون سنة ما أنسى الضيم اللي شفته"

"من أبي ؟"

"إي من أبوك"

صمتتْ لحظات كنتُ أرى الألمَ وهو يتحركُ في مفاصلِ روحها متألماً لألمها فنسيتُ بأننا نتحدث عن ماضٍ بعيد وعن رجل مات منذ أكثر من ست سنوات ، رفعتْ رأسها وراحتْ تحدق في عينيَّ ببرودةٍ وكبرياء:

"كان أثول"

قالتها بغطرسة مراهقة فاتنة لاويةً عنقها بحياء مفتعلٍ وتصابٍ عنيد فأدركتُ بأن لجملتها معنىً واحداً:

"أربع بنات وأربعة رجال، ما عوضوكِ عن الضيم ؟"

قلتها كمَنْ يؤنب شخصاً ارتكب خطأً جسيماً في أمر بديهي.

عادت إلى صمتها حتى حسبتُ بأن سؤالي أحرجها وأشعرها بالخجل ، لكنها سرعان ما راحتْ تحدق إلي بعينين صارمتين كأنها تذكرتْ كبرياءها التي ينبغي لها أن لا تهزم في هذا النزال حتى لو كان مع ابنها ، وبإصرارٍ وحزم أجابتْ :

"لا"

* * *

لم أشعر يوماً بأن أبي رمزٌ للقوة أو التسلط بل على العكس تماماً فهو أمامي يتمثل رمزاً للانخذال والضعف، رمزاً للغباء والكسل، وحقاً هو الرجل الذي تنطبق عليه مقولة (ما يحل رجل دجاجة) وهو يعرف ذلك، وعلى الرغم من إحساسه بالإحباط والمهانة إلا أنه لم يسعَ إلى تحسين وضعه ونتيجةً لإدمانه الكسل لم يعد يؤلمه الخجل من التسول أو الإهانة، عاطل عن العمل يقف مخذولاً عند الباب قبل خروجه إلى المقهى يصطنع التريث أو نسيان أمر ما مادأ يديه في جيوبه كأنه يبحث عن شيء منتظراً أمي أو إحدى أخواتي تمده بدرهمٍ، يدعي أستذةً في البناء إلا أنه لم يمارس المهنة إلا ظلاً لغيره وفي أيام معدودة من السنة. مرةً حاول إصلاح كرسيٍّ في البيت فكانت يداه ترتجفان ليس من ضعفٍ بل بسبب مراقبتنا له.

"ما يصير"

قال محمد (أخي الذي يكبرني بثلاث سنوات وكان وقتذاك في التاسعة من عمره) .

احمرَّ وجهه وحاول أن يتجاهلَ ما سمعه إلا أن محمد أعاد عليه القول بثقةٍ وقحةٍ مجهزاً عليه بضربة قاضية:

"والله ما يصير"

عندها رفع الكرسي المتضعضع إلى أعلى من رأسه وألقاه إلى الأرض فتناثرت أشلاؤه ثم هجم على محمد ليمسكه وهو يرتعد من الغضب غير أن محمد استطاع الإفلات من قبضته فاراً إلى خارج البيت، دخل الغرفة وألقى بجسده الضخم على سريره فتعالى شخيره. خرج من الغرفة عصراً فوجد أشلاء الكرسي وقد عادت كرسياً قوياً، حدق إلى الوجوه التي كانت تنظر إليه بسخريةٍ

مقنعة بالحياء، ولكي يغطي فشله اصطنع ضحكةً بلهاء محركاً كرشه بافتعال واضح ثم ألقى سؤالاً إلى الفراغ:

"منو صلّح الكرسي ؟ "

فرد محمد بتحايل وشماتة:

"أني "

أقول لم يكن أبي يشكلُ عندي رمزاً للقوة والتسلط ولكني كنتُ أكرههُ وكنت أتلذذ بقتله بأحلام يقظتي حتى أني لم أحضر وفاته وقد كنتُ وقتها أدرس ببغداد، سمعتُ بالخبر فتجاهلته بل إني فرحتُ في لحظة سماعي الخبر واستمر فرحي فترة زمنية لا أستطيع حساب مدتها إن كانت ثواني أم سنيناً لكن فرحي بوفاته أنقلب تأنيباً قاسياً مازلت أشعر به حتى هذه اللحظة.

ثلاثة أسباب كانت تجعلني أكره أبي، ضعفه والجملة التي ظلت مدوية في أذني (أما حميد فقد جاء عن طريق الغلط) والسبب الثالث كان اسمه الذي يعتز به كثيراً.

* * *

دخل معلمُ اللغة الإنكليزية غرفة الدرس وكنتُ سنتتلك في الصف الخامس الابتدائي وفي المرحلة الأولى من دراسة مادة اللغة الإنكليزية. وقف أمام الطلاب وراح يحدق إلينا وهو يخفي ابتسامةً غريبة، تطلعَ في الوجوه بتلهفٍ كأنه يريدُ اقتناص أحدها ثم سأل:

"وين حميد بزون ؟"

"نعم أستاذ "

صرختُ جافلاً كمَنْ يستيقظ من غفوة ونهضتُ، لم أخفْ وقتها حيث أن وجهه كان يوحي ذلك اليوم بالمرح، اجتاز الممر الفاصل بين المقاعد حتى وصل عندي، مدّ يده ماسكاً يدي وراح يسحبني بغبطة، أوقفني عند السبورة، تطلعَ ثانيةً إلى وجوه الطلاب التي بدتْ عليها علامات الغيرة من الإهتمام الغريب الذي كان يبديه معي معلم اللغة الإنكليزية المعروف بقسوته، التفتَ إلي آمراً:

"اجلس على ركبتيك تحت المنضدة " !

جلستُ.

"أبركْ، وضعْ يديك مطويتين تحت صدرك " !

فعلتُ.

"أرفع رأسك وأنظر إلى الأمام " !

فعلتُ

وقف أمام الطلاب بقامته الطويلة بينما كنتُ أرى من تحت المنضدة الطلاب يتهامسون ووجوههم تترقب كيف ستنتهي هذه اللعبة، ولمَ أختار حميد بزون بالذات لينال شرف هذا الاهتمام، لحظات مرت كنت أحسبها طويلة جداً، انتظرَ اللحظة المناسبة كي يطلقَ صرخة أجفلتْ الجميع:

" Where is the cat "

انفجر الطلابُ بالضحك، فأعتصرَ الألمُ قلبي الصغير بكفّ قاسية، ليس بسبب خيبة أملي في اللعبة التي كنت أتوقع منها الحصول على مكانة متميزة بين أقراني وسأفخر بأني كنتُ المصطفى بينهم لتمثيل اللعبة، بل إن ما آلمني أكثر أنني أصبحتُ موضع سخرية للجميع بسبب اسم أبي، حتى جاسم زرزور الذي كان يعاني كذلك من مشكلة اسم أبيه راح صوته يعلو على أصوات الآخرين

بالضحك والسخرية مني ، يا الهي حتى محمود صاحب اللسان المكسور والذي يعاني من عقدة في لسانه تثير سخرية الجميع إلا أنا فقد كان يثير شفقتي وقد كنت أصغي إليه باحترام كاتماً شفقتي عليه هاهو الآن لا يستطيع التوقف عن الضحك بل إنه راحَ يحركُ جسده كله ضارباً جبهته براحة كفه بافتعال . توقف الطلاب عن الضحك على أثر إشارة وصرخة من المعلم فظننتُ أن اللعبة قد انتهت وانتظرتُ إشارته إلي بالنهوض إلا أن ظني قد خاب . وقف المعلم بصمتٍ ثم صرخ ثانية:

" Where is the cat "

هب الطلاب واقفين موجهين سبّاباتهم نحوي وعَلَتْ صرخاتهم المختلطة بالضحك:

" The cat is under the table. "

ليت هذه اللعبة السخيفة قد انتهتْ بانتهاء وقت الدرس فقد ظل الطلاب يلاحقونني بتهكمهم وسخريتهم في الوقت ما بين الحصص وظلت عبارة" Where is the cat "ترن في أذني وأسمعها حتى لو لم ينطق بها أحد.

في اليوم التالي تكرر المشهدُ، دخل المعلم بابتسامته الخرقاء يجوسُ المكان بنظرة ثعلب بحثاً عن (حميد بزون) ، طلبَ مني الجلوس تحت المنضدة وتمثيل دور القطة ، امتثلتُ للأمر على مضضٍ وبالطريقة نفسها صرخ:

" Where is the cat "

وجاء الجواب نفسه من الطلاب مشيرين إلي بسبّاباتهم ضاحكين:

" The cat is under the table. "

توقف قليلاً محاولاً تكرار السؤال إلا أنه فوجئ بتوقف الطلاب المفاجئ عن الضحك وقد ساد بينهم صمتٌ أثار انتباهه ، كانت أنظارهم مشدودة إلى تحت المنضدة فأحنى قامته ليرى ماذا يجري للقطة الجالسة (under the table)

فوجدني جاهشاً بالبكاء، تجمدَ الدم في وجهه وأرتبك فعَلَتْ همهمات الطلاب، توقف أمامي كانت عيناه تزوغان متحاشياً النظر إلي، في الحقيقة لم أستطع وقتها معرفة كنه مشاعره بالضبط إلا أنني أستطيع تخمين بأن تلك القطة قد استطاعتْ أن تنشب براثنها في عقله وتلقنه درساً لن ينساه. ومن الغريب أن القصة نفسها قد تكررت بعد ثماني سنوات من ذلك اليوم وفي درس اللغة الإنكليزية كذلك حيث كنا نقرأ قصةً عن شخصٍ متهمٍ بقتل زوجته، كان اسمه George) Elephant) يستطيع محاميه أن يكسب القضية لصالحه بعد أن يعرض للمحكمة المشكلة التي كان المتهم يعاني منها في حياته والتي تكمن في سخرية الناس منه بسبب الاسم، حتى زوجته كانت تسخر منه مما دفعه يوماً في حالة من الغضب إلى قتلها. وهكذا وجد الطلاب في القصة ما يشفي غليلهم بي رداً على مشاكساتي الكثيرة لهم فقد كنتُ حينها مراهقاً نزقاً سليط اللسان لم ينجُ طالبٌ أو مدرس من تهكماتي وهجائي لهم بأبيات من الشعر أو تحوير بالأغنيات الشائعة ، عندها وجدوا في قصة جورج الفيل نقطة ضعفي فتحول الاسم من(George Elephant) إلى (Geroge Bazzoon)(أو Hamid Elephant)).

ليست السخرية من اسم أبي وحدها ما كان يغيظني بل لقد تحولتْ هذه السخرية إلى سوء حظ يلازمني دائما فلم أقم بإصدار وثيقة أو شهادة إلا ويخطئ الموظف المختص باسم أبي فأعيد عملها ثانية وثالثة وكم قد فاتني من الفرص بسبب التأخر بإنجاز وثيقة أو معاملة في الدوائر الرسمية فيسبب لي ذلك حنقاً ليس على الاسم فحسب بل أصب لعناتي وغضبي على حامل الاسم الذي كان يشعر بالعار كلما تحدثنا عن فكرة تغيير الإسم.

دخلتُ ايران لاجئاً نهاية عام ١٩٨٢ وتم نقلي من الحدود العراقية إلى مدينة طهران بعد المرور بمدن وسجون كثيرة، هناك تم حجزي مع بقية اللاجئين في مجمع يدعى (بارك إرم)، في اليوم الأول أدركتُ ماذا تعني الغربة ولم تكن أيران سوى محطة أولى من رحلة نفي قد لا تنتهي، كان بعض اللاجئين مشغولاً بترتيب أمور السفر إلى السويد، الدنمارك، ألمانيا، بلاد لم تكن تخطر في بالي يوماً فكرة الوصول إليها بل إني لا أعرف عنها سوى ما كنت قد شاهدته في الأفلام عن طبيعتها الجميلة ونسائها الشقراوات ولكن كيف يستطيع لاجئ لا يملك غير ملابسه الوصول إليها ؟

"هل عندك جواز سفر ؟ "

سألني المحقق الإيراني

"لا "

أجبته، وفي الحقيقة كان معي جواز سفر إلا أني أضعته في كردستان أثناء الرحلة.

"هل لك أقارب أو معارف إيرانيون ؟"

"لا"

"إذن عليك البقاء في الاوردكاه حتى يسقط صدام حسين وتعود إلى وطنك "

قالها المحقق وهو يجمع أوراقه ويأمرني بالخروج.

"متى ؟ "

قفزتْ هذه الكلمة وهذا السؤال المبهم دون شعور مني فتداركتُ الأمر:

"أعني متى أستطيع الخروج ؟ "

"لا يمكنك الخروج لحين نقلكم إلى أوردكاه آخر "

قال المحقق، وفي الحقيقة أني أردتُ أن أسأله " متى سيسقط صدام حسين؟ "

ثلاث سنوات مرت على وجودي في ايران، رأيت خلالها مجمعات لاجئين مختلفة، غرفاً لا يسكنها غير الشحاذين والفئران، سجوناً، حدوداً، مدناً يقيم فيها أناس متمدنون بوجوهٍ بيض وعيون زرق أو خضر وأخرى يقيم فيها مغوليون بوجوه صفر كأنهم خارجون من ظلام التأريخ ترتسم أمامك من نظرتك الأولى إليها صورة هولاكو أو جنكيزخان فتتذكر سقوط بغداد المدوي في وادي الفرون، مدناً يسكنها عرب يتراطنون بلهجة غريبة هي خليط من لهجة أرياف جنوب العراق واللغة الفارسية أمثالهم وحكمهم ساذجة حد التقزز ويحفظون الشطر الأول والأخير من الأبوذية أو الموال، وكذلك مرت عليّ وجوهٌ عراقية كثيرة أقامت هنا وسافرت الى السويد، الدنمارك، المانيا، النرويج، بريطانيا، الهند، باكستان، أفغانستان، سوريا وبلدان أخرى. كان أملي الوحيد هو أن يعمل لي أحدهم دعوة من سوريا لغرض الحصول على وثيقة لسفرة واحدة تدعى (ليزه باص) أو (بروانة عبور) كما تسمى بالفارسية، لذا فأني رحت أتملق الراحلين إلى سوريا عسى أن يقوم أحدهم بعمل الدعوة لي، أستقبل الوافدين الجدد وأودع المغادرين، وكم مرة حملتُ حقائبهم إلى المطار غير أن أخبارهم تنقطع عني حال إقلاع الطائرة من مطار طهران.

كان أوركاه كرج يتكون من بنايتين محاطتين بأسلاك شائكة وساحة للعب كرة الطائرة، تنتصب أربعة أبراج مراقبة في زوايا المكان يتناوب فيها الحراسة ليل نهار جنود فظّون لا يستطيع أحد التنبؤ بلحظات غضبهم أو رضاهم ولا

بلحظات عفتهم أو عهرهم فهم زاهدون ومرتشون في لحظة واحدة، ويدير هذا المجمّع عسكري بزيّ مدني قيل إنه كان من رجال السافاك الذين أعلنوا التوبة النصوح، استطاع أن يقرّب إليه بعض العراقيين من الذين امتهنوا حرفة الوشاية ومسح أكتاف المسؤولين. كان يُسمح لكل لاجئ بالخروج نهاراً واحداً كل أسبوع فكنّا نقضي ذلك النهار في (كوجه مروي) وهي عبارة عن زقاق طويل يقع في قلب العاصمة تتوسطه ساقية لمجرى الأوساخ اتخذه العراقيون مكاناً للقاء وبيع البضائع المهربة وتزوير الوثائق الرسمية وتصريف العملات الأجنبية بكافة أنواعها من الدولار وحتى الين الياباني ففتحتْ المطاعم التي تبيع الطعام العراقي والمقاهي التي يراهن فيها المقامرون سراً، وفي الأزقة الطويلة والملتوية كأفاعٍ ملتفّة على بعضها والتي تفضي إلى (كوجه مروي) هناك بيوت تبيع العرق وأجساد العاهرات أو الغلمان، وفي (الكوجه) حمّام رجالي شهير خُصصت فيه غرفة غالية السعر ويتم حجزها للشخص الذي تتم تزكيته من عملاء حميمين لصاحب الحمّام، فهي تحوي على ثقبٍ يطل على حمام النساء، ولا تخلو (الكوجه) من رجال الشرطة السرية الذين يعملون لصالح جهات مختلفة كوزارة الداخلية والمخابرات الإيرانية ومنظمات الحرس الإسلامي (باسداران) وكذلك المجلس الأعلى للثورة الإسلامية في العراق، بل إن هذا الزقاق الذي يخلو من شبكة لتصريف المياه الوسخة لا يخلو من شبكات تجسس للنظام العراقي وللموساد الإسرائيلي وللسفارات العربية والأجنبية. تستطيع الحصول على جواز أي بلد ترغب وبأسعار مختلفة وتستطيع مقابلة أي مسؤول حكومي رفيع المستوى عبر سلسلة مراتب تتصاعد ويتصاعد معها مبلغ الرشوة الذي يجب دفعه، وهكذا فأن كوجه مروي أو كما يسميها الإيرانيون (كوجه عرب) تشكل عالماً مستقلاً بذاته.

تضم بنايتا الأوردكاه ثماني عشرة قاعة طويلة صُف في كل منها أربعون سريراً بطابقين، وتحمل كل قاعة اسم عالم ديني تم قتله من قبل المعارضة الإيرانية فهذه قاعة (بهشتي) وتلك قاعة (سرفراز) وثالثة تحمل اسم (مطهري) .... الخ، كذلك يوجد مسجدان واحد للسنة والآخر للشيعة ومؤذنان يتباريان برفع صوتيهما، ولا يخلو المجمع (طبعاً) من السجن.

كنتُ أقضي معظم النهار بالنوم، أما الليل فعلى ضوء الشمعة أقرأ بعض الكتب والقصاصات التي كان يبعثها إلينا الأصدقاء مع الرسائل وكنا نتداولها كمناشير سرية فقد كان يمنع علينا قراءة غير الكتب الدينية وسماعُ الأغاني. في الليل كنتُ أصغي الى كوابيس النائمين التي تلخص الرعب المتكدس في أرواحهم والشبق المتكلس في أجسادهم، وإلى وقع خطى عباس المجنون الذي يذرع الممرات ولا ينام.

هناك كتبتُ مجموعة شعرية أسميتها (العزف على مقام الليل كاه) ضاع معظم قصائدها وبعض منها ضمّنته مجموعتي الأولى (أقول احترسْ أيها الليلك):

(الليلُ في الشرفاتِ يسعلُ شهوةً
إنْ شاء
يعدو تاركاً خلف المسافاتِ اتقادَ العمقِ
أو طابتْ له الأحلام
ينصبُ خيمةً
أطنابها الشجرُ اليتيمُ

يلعبُ بالنجومِ النردَ
يخنقُ ضحكةَ الباكين)

وأخيراً وصلتني رسالة من (حسن فليح) يخبرني بأنه عمل (دعوةً) لي ولخمسة آخرين وبإمكاننا الآن استلامها من السفارة السورية بطهران، كان ذلك اليوم هو يوم من أيام الفرح النادرة في حياتي حيث أصبح بإمكاني مغادرة ايران بعد شهرين كحد أقصى، لم أنم تلك الليلة، وفي الصباح ذهبنا أنا والخمسة الآخرون إلى السفارة السورية وانتظرنا عند الباب موعد تسليمنا أوراق الدعوة. في الساعة الثانية عشر ظهراً خرج موظفٌ وراح ينادي بأسماء أصحاب الدعوات، خمسة أسماء أذيعت فقلت لعلي سادسهم إلا أني رأيتُ الموظف وقد أفرغ كل ما في يده من أوراق ولم يكن اسمي بينها، عاد إلى داخل بناء السفارة وأغلق الباب، تفرق الحشد منهم من كتابه في يمينه ومنهم من عاد خالي الوفاض، شعرتُ بالاختناق، توسلتُ بوّاب السفارة الإيراني كي يدخلني لأستفسر عن الأمر إلا أنه رفض السماح لي بالدخول، جلستُ على الرصيف المقابل للسفارة حتى الساعة الثانية ظهراً عندها خرج الموظفون بعد انتهاء الدوام الرسمي، خرج الموظف الذي قام بتوزيع أوراق الدعوات أخيراً فقفزتُ إليه بجنونٍ جعله يرتد إلى الوراء مرتبكاً متوجساً شراً، وقفتُ بينه وبين السيارة التي كان ينوي الصعود إليها فرفع وجهه ينظر إلي بامتعاض فرحتُ أستفسر منه عن (دعوتي) بتوسلٍ، أزاحني بذراعه عن طريقه باحتقارٍ وجلس وراء مقود سيارته، وقبل أن يدير مفتاح القيادة قال لي:

"يا أخي لم تتبقَ أية دعوات جديدة غير واحدة باسم حميد براون"

"هو أنا "

جاءت عبارتي وكأنها انفجار لغم في داخلي، حدق إلي باستصغار وخاطبني بنصف إغماضة من عينيه:

"يا سبحان الله، أنت ما تفهم ؟ أقول لك إن الدعوة باسم حميد براون"

فأجبتُ على الفور:

"نعم أنا حميد بزون، حميد براون، حميد لعنة "

لم يدعني أكمل عبارتي حيث أنه انطلق بسيارته متأففاً من إلحاح هذا المجنون الذي لا يعرف اسم أبيه.

تسعة أشهر مضتْ سافر خلالها الآخرون وأنا مازلتُ أنتظر تصحيح الاسم واكمال معاملة السفر، وإذا كان الأمل هو برودة مُحمّصة على نار التريث فأن الأمل في وزارة كشْوَر (الداخلية) الإيرانية برودةٌ محمصةٌ على جليد. تسعة أشهر مضت حتى جاء ذلك اليوم الذي استلمت فيه تأشيرة الخروج، ومن فرحي سامحتُ الأمل واللعنة ولم أكُ أعرف أن اللعنة لا يوقف تربصها بي السماح، ففي الليلة نفسها التي كنت أنتظر ضحاها أعلنت القيادة العسكرية العراقية ببيان لها بأن سماء طهران ساحة حرب وهددتْ بقصف أية طائرة عسكرية كانت أم مدنية، ولن أنسى وجه ذلك اللآجئ العراقي العجوز الحاصل على شهادة الدكتوراه في علم الإجتماع والذي انتظر سنة للالتحاق بعائلته في بولونيا حينما أعلمتنا الخطوط الجوية بتوقف رحلاتها حتى تتوقف الحرب، خرجنا منكسرين من المكتب فأنهار فجأة على الرصيف ماسكاً قلبه، في المساء علمنا بأنه غادر، ولكن ليس الى عائلته بل إلى المكان المجهول، المكان الذي لا يتطلبُ الرحيل إليه بطاقة سفر أو جواز.

في نهاية عام ١٩٨٥ نفسه وصلتُ الدنمارك بعد إقامة بدمشق دامت ستة أشهر، وفي أجراء سريع عند شرطة المطار طلبوا مني ملء استمارة طلب اللجوء فكتبتُ عند حقل الإسم:

Mehdi " .B ." Hamid

طلب مني الشرطي أن أكتب اسم أبي كاملاً، فأخذ المترجم الاستمارة وسألني:

"ما اسم أبيك ؟"

فأجبتُهُ على الفور:

"برجيت باردو"

حدق المترجم إلي بابتسامةٍ وقد حسبني (ظريفاً)، لا أتخلى عن المزاح حتى في أقسى الظروف.

* * *

في منتصف ليلة السادس والعشرين من أيلول عام ١٩٨١ كانت سريتنا المدرعة تتمركز على مشارف عبادان وبالقرب من معمل السفن شرقي نهر الكارون، كنتُ واقفاً في نوبة الحراسة عند باب الملجأ حينما خرج آمر السرية صارخاً بأن الجيش الإيراني قد التفّ حولنا وقد استطاع أن يدمّر سرايا الإسناد ويحتل جسرين من الجسور الثلاثة التي أقامها الجيش العراقي على نهر الكارون، التفتُّ باتجاه الأفق الشمالي كانت النيران تتصاعد من الآليات وأكداس العتاد، صعدنا إلى الدبابات وبدأنا الرمي بشكل عشوائي، كنت أجلس في موقعي كسائقٍ وأنتظر أوامر قائد الدبابة الذي يتلقى أوامره من آمر السرية، اشتد القصفُ

المدفعي الإيراني علينا مصحوباً بزعيق راجمات وصواريخ مضادة للدبابات وما بين قذيفة وأخرى كنّا نسمع هتاف (الله أكبر) قريباً منا ، فجأة شبّت النيران في دبابة آمر السرية التي كانت تقف إلى يسار دبابتي وتبعد ما يقارب عشرة أمتار عنها ، انقطع الاتصال اللاسلكي عن دبابتي كان آخر عبارة وصلتنا عبر جهاز اللاسلكي قبل أن ينقطع الصوت هي بصوت آمر السرية ، كان يردد (آدم آدم كيف تسمعني أجبْ) لكن آدم لا يجيب حيث لا وجود لآدم في ذلك الحين وعلى ذلك المكان ، كان قائد الدبابة النائب ضابط محمد يردد آية الكرسي مرتعباً ومع سقوط كل قذيفة يصرخ (دخيل محمد) ، (دخيل علي) ، (دخيل الحسين) ، (دخيل العباس) حتى سقطت قذيفة عند مقدمة الدبابة فانهال التراب والشظايا على البرج وكنتُ قبل ثوان قد أغلقت باب القيادة علي ، اهتزت الدبابة هزات عنيفة وما أن استقرت في مكانها حتى سمعتُ النائب الضابط محمد يبكي ويردد عبارة (دخيل عبد الله الطفل) صرختُ به ويرامي الدبابة أن يقفزا منها فقد أصيبت ، قفز محمد وعامر واختفيا بين طيات الليل والمواضع . خرجتُ من الدبابة ودخلت موضعاً قريباً ، كسرتُ باب الموضع من الداخل فانهال التراب حتى غطى مساحة كبيرة من فتحة الباب ، أطفأتُ فانوساً كان مضاءً في الموضع ورحتُ أدخن وأصغي إلى صرخات الجنود وبين الحين والآخر أخرج رأسي من الباب لأستجلي الموقف ، شاهدت جندياً ايرانياً يحمل مايكرفوناً يدوياً يركض بين المواقع ويردد عبارات التقطتُ منها (الله أكبر خميني رهبر) توقفَ عند باب الموضع الذي اختبأتُ فيه فأدخلتُ رأسي لكني كنت أسمع خطواته وصوته المشروخ وهو يردد العبارة برعبٍ وحماس.

(الموت) هذه الكلمة المرعبة لم تعد تخيفني مذ نُقلت إلى الجبهة في الشهر الثاني من بدء الحرب لا بسبب شجاعتي بل بسبب يأسي ورغبتي في الموت خلاصاً

من حياة لا توصف بالتفاهة فالتفاهة مديحٌ لا تستحقه حياة الجندي العراقي المدفون في جحرٍ ينتظرُ رصاصة الرحمة يهديها إليه تافهٌ آخر في حرب لا ناقة لهما فيها ولا جمل.

استيقظتُ الساعة الثانية عشرة ظهراً تلمستُ جسدي لم أصدق بأنني مازلتُ حياً ولم أصدق أني بهذه الشجاعة أو البلادة التي جعلتني أغط في نومٍ عميق لم يمر على انسان في أكثر أوقاته بطراً أو كسلاً، صمتٌ رهيبٌ كان يستولي على المكان، هل مات الجميع ؟ هل انسحبتْ سريتنا ؟ هل فشل الهجوم الإيراني؟ كنت أسمع صوت الريح ودحرجة الأواني المعدنية، مددتُ رأسي بحذر شديد كي أستجلي الوضع، لا شيء سوى رائحة الدم تملأ المكان ممتزجة بالغبار وصفير الرياح وأصوات مدافع بعيدة ومحركات الطائرات السمتية، أخرجتُ جسدي ببطء، لم أرَ أثراً لجندي عراقي أو ايراني سوى أجساد الدبابات منهمدة برعونة كانت النيران تلتهم بعضها، تجرأت أكثر ورحتُ أجوس المكان ابتعدتُ قليلاً عن موقعي شاهدتُ جثثاً لجنود عراقيين أعرفهم، أمس كنّا معاً نتحدث ونضحك ونحلم ونخطط لحياتنا بعد الحرب، لم أستطع أن أكتم ضحكتي حينما شاهدتُ جثة جندي ايراني شاب بلحية كثة لونّها الغبارُ بلونه، عيناه مازالتا مفتوحتين وفمه كان مفتوحاً بحجم صرخة وقد تجمدتْ على شفته عبارة (الله أكبر خميني رهبر)، كانت كفه لاتزال قابضةً على المايكرفون اليدوي. عدتُ إلى موضعي الأول، جلستُ في مكانٍ مرتفع لعلي ألمح أحداً أو يلمحني أحدٌ، ولكن لا أحد، هل صعد الجميع إلى السماء كشهداء وفاتني موكبهم ؟ هل ابتلعتهم الأرض ؟ لا أدري كم من الوقت مر عليّ فليس للزمن قيمة وقتذاك، خفتُ من حلول الظلام وأنا وحدي في هذا المكان ولكن ما العمل ؟ طريق العودة طويل ومكشوف والجيش الايراني قد أكمل احتلاله للجسور الثلاثة كما ظننتُ. خطرتْ

في بالي فكرة تسليم نفسي إلى الجيش الايراني قبل أن يتم أسري من قبلهم وبلحظة يأس اتخذت القرار، انطلقتُ إلى الأمام مجتازاً خنادق المغاوير التي كانت تبعد خمسين متراً أمام مواقع دباباتنا، كانت الخنادق مليئة بجثث الجنود العراقيين والإيرانيين، متكدسة على بعضها يستفز منظرُها مشاعرَ الحجر، أغمضتُ عيني وعبرتُ إلى الجانب الايراني حاملاً فانيلتي التي لا ترمز للاستسلام لاختفاء بياضها، اجتزت حقل الألغام بشكل لا يُصدق حتى وصلتُ إلى المواقع الايرانية. يا الهي أين اختفى الجميع ؟ هل انتهت الحرب ؟ هل استطاع الجيش العراقي دفعهم بهجوم مضاد ؟ كانت المواضع الايرانية خاليةً حتى من الجثث. انتظرتُ قليلاً صرختُ بصوت عال (الله أكبر)، فلم أتلقَ جواباً، وحده الله كان يسمع صرختي، وما نفع ذلك؟ استبد بي قلق واجتاحتني رغبة مفاجأة بالحياة فقررتُ العودة متحاشياً جهد إمكاني الوقوع في الأسر، ركضتُ، ركضتُ ولم أدرِ هل كان صوت لهاثي يتبعني أو صوت أنين جرحى يحتضرون، خفتُ فازدادت قوة تشبثي بالحياة، جلستُ عند باب ملجأي، كانت حاوية الماء الفلينية لاتزال في محلها غير أن الريح أطارتْ غطاءها، شربتُ ماءً أو بالأحرى طيناً ودخنتُ سيجارة، تذكرت أن دبابتي لم تصب بأذى، جلستُ في موقع القيادة لكني اكتشفتُ بأني قد نسيتُ أمس إغلاق قناني الهواء فتسرب منها وكذلك البطارية قد نفدت شحنتها، خرجت خائباً فأطلقت ساقي راكضاً نحو مقر الكتيبة، وجدتُ دبابة سليمة تركها طاقمها ولاذ بالفرار، قدتها باتجاه الجسر الثالث لعله لايزال تحت سيطرة الجيش العراقي، وبعد أن قطعتُ مسافةً في العراء لا تحسب بالأميال أو الكيلومترات بل تحسب بالرعب والرغبة بالحياة، وعلى الرغم من اشتداد القصف عليّ إلا أني استطعتُ الوصول بها إلى المكان الذي كان بالأمس ورشةً ميدانية لتصليح الدبابات المعطوبة، أوقفتها هناك وانحدرتُ يميناً

مع النهر راكضاً حتى صرت خلف ساتر ترابي عند كتف الكارون كان الجيش العراقي قد أقامه أمس تحسباً للانسحاب، رأيتُ هناك جنوداً عراقيين يسيرون باتجاه الجسر الثالث وضابطاً برتبة رائد ركن يسحل أقدامه بوهنٍ وامتعاض كان الدم يلوث بدلته وقد لفَّ ساقه بخرقة كاكية غطاها الدم، كان لا يتجرأ على طلب المساعدة من أحد، لا ترفعاً بل لعلمه أن هذا الأحد مشغول في نفسه ولم يعد الصقر الذي يحط على كتفه ذا قيمة في فضاء محكوم بالأسر والخنوع . بضعُ دبابات عراقية كانت تقف خلف الساتر الترابي على بعد أمتار قليلة من الجسر الثالث، هناك رأيت النائب ضابط محمد ورئيس العرفاء تيسير غثيث وكان الأخير أقرب شخص في وحدتنا إلي فهو على الرغم من كونه ريفياً وساذجاً إلا أنه كان مولعاً بحفظ الزهيريات والأبوذيات وقد كنت وقتها أحفظ منها الكثير وهذا ما جعله يتودد إلي كي أُسمعه بعضها فجمعتنا ألفةٌ، تعانقنا مهنئين بعضنا على نصف السلامة وقد كانَ فخوراً بأنه استطاع أن يوصل دبابته إلى هذا المكان، همس لي بأنه نسيَ بسطاله ولم ينس ديوان (حجي زاير). كان القصف المدفعي الإيراني كثيفاً وقد استهدف الجسر الثالث حتى أصبح العبور إلى الجهة الثانية مجازفةً كبيرة وقد رأيتُ وأنا أتأمل الجسر والعابرين عليه كيف القدر يحقق نزواته السخيفة، فمرة تسقط القذيفة بعد مرور العابرين ببضع ثوانٍ فيفترسُ النعجةَ المتخلفة عن القطيع ومرة تسقط القذيفة في منتصف الجسرِ لحظةَ اكتظاظه بالقطعان الهاربة فتنهش ما شاءت من الخراف المستكينة لقدرها، ولا أحدَ يستطيعُ التكهنَ بنزوات هذا الطفل الوقح ولكن لابد من العبور إلى الضفة الثانية، وقد رأيتُ كيف يتطاير اللحم البشري في الفضاء ثم يهطل مع الشظايا إلى مياه نهر الكارون مُحدثاً صوتاً هو خليط من أزيز الشظايا وأنين الأرواح المُزهقة، فخذٌ، ساق، كفٌ، رأس تهبط إلى قاع النهر ببطء كأن المشهد قد أُخذ بتصويرٍ بطيء في

فيلم أخرجه الماركيز دي ساد . . . . . وكاذبٌ مَنْ يقول بأن للموت هيبةً وجلالاً ، وإذا خُلقَ الموتُ ليكون الإنسانُ مسخرةً للقضاء والقدر فأن القضاء والقدر خُلقا ليتخلصَ الإنسانُ من خوفه الغريزي ، وبعد أن يُكتشف سرّ اللعبة هل يحق للاعب النرد أن يتألم لخسارته ؟ .

منعني تيسير غثيث من العبور حرصاً عليّ وأملاً بأن يتعب الموت من لعبته المبتذلة هذي فيرتاح بضع دقائق تكون فرصتنا في النجاة . قضينا ليلتنا في دبابته (أنا وهو وصديقه الذي أوصاه قبل أن يموت بأن ينقل جثته إلى أهله في مدينة الشطرة) نشرب الشاي ونروي لبعضنا كيف قضى كل منّا الليلة الماضية ، وعلى الرغم من وجود جسد ثالث معنا هامد على أرضية الدبابة يغطّ في صمت أبدي تنبعث منه رائحة الدم وعفونة المجهول ، راح تيسير يغني بصوت ريفي حزين :

(يغذاي مر الصبر وأعله النوايب جلد

وللي نخاني أطيحن دوم جلد وجلد

أحرك كلوب العدا وبالرووس أجلد جلد

وأتعنه للطيبات ويسابع سمه لو سمن

ولركاب الأنذال آنه المشتري لو سمن

بل كلت عن الجلب من ياكله لو سمن

اليوم أكو أنذال تاكل لحمته والجلد)

عند الفجر عبرتُ الجسر بسرعة غزال مطارد ، وحينما أصبحتُ على الجانب الثاني التفتُ فرأيت تيسير واقفاً يلوح لي.

عادت وحدتُنا إلى البصرة لإعادة تنظيمها ، فاتخذتْ موقعاً يقع على الطريق بين التنومة ومنطقة الشلامجة ، أعيد توزيع ما تبقى من الجنود على

السرايا وتشكلتْ طواقم جديدة للدبابات، مر أسبوع كان فيه الجنود يقضون معظم أوقاتهم في الحديث عمّا جرى وعن الشهداء والأسرى وانتظار نوبة الإجازات. تسربَ خبرٌ عن رفع أسماء الذين تأخروا بالانسحاب صامدين مستبسلين في صدّ الهجوم الإيراني إلى القيادة السياسية في بغداد لغرض تكريمهم بأنواط الشجاعة، ضحكَ تيسير بخبث حينما علم بأن اسمي كان من بين الأسماء المرفوعة وحزنتُ كثيراً عند سماع الخبر واعتبرتُ الأمر فضيحة لي حتى صار مشهد وقوفي أمام صدام حسين وهو يعلق لي نوط الشجاعة كابوساً مرعباً يقتحم غفوتي، لم يحدث ذلك بل اكتفوا بمنحنا رتبةً إضافية فأصبحتُ نائب العريف حميد بزون حيث جرى ترفيعنا قبل ذلك عند إكمال احتلالنا لمدينة المحمرة. وصلتْ دبابات روسية وبولونية جديدة فبدأنا التدريب اليومي صباحاً، وعصراً كنّا نذهب بملابسنا العسكرية إلى البصرة نتجول في شوارعها وندخل باراتها، نثير الرعب في وجوه طالبات الجامعة اللواتي كنّ يبتعدن عن طريقنا خوفاً من مشاكساتنا الفظة لهن ويزدردن على مضض كلماتنا الطافحة بالشبق والرعونة حيث كان الجندي العائد من الجبهة يشعر برغبة عارمة لاغتصاب المدينة بمحلاتها وشوارعها ونسائها. مرة طلبتُ من مصور مصري جوال أن يلتقط لي صورة قرب تمثال بدر شاكر السياب فأراد أن يبعدني عن المكان الذي اخترته وحينما رأى إصراري على التقاط قامة التمثال كاملة قال لي:

"ده يشوه الصوره يابيه"

تركتهُ ومشيتُ إلا أنه ركض خلفي وبلهجته اللبقة راح يتوسل بي ويلح على التقاط الصورة في أي مكان أختاره فرضختُ لتوسلاته، وبعد أن أكمل مهمته همستُ بإذنه:

"تدري كل الحياة مشوهه إلا هذا "

وأشرتُ إلى تمثال السياب، لم يفهم ما كنتُ أعنيه أو أنه تغاضى عن الفهم خوفاً أو ربما كان هو نفسه مشوهاً فلم يعِ أبعاد الصورة.

عدتُ من الإجازة وقد مر شهران على إقامتنا في هذا المكان وبدأت رائحة العودة إلى جبهات القتال تعم المكان فظهرتْ علاماتُ الترقب والقلق على حركة كل جندي، زارنا آمر اللواء صباحاً ومن أسلوب حديثه عرفنا أن ساعة الموت قد دنتْ ثانيةً، ومما قاله بعد حديث طويل عن الشجاعة العربية وشهامة الرجال، عن النخوة وشرف الاستشهاد في سبيل الوطن وعن الرجال الذين لا تكتمل رجولتهم إلا بعد أن يأخذوا بالثأر :

"الآن لقد أكملنا تدريباتنا وأخذنا قسطاً كافياً من الراحة فما علينا إلا أن نبرق إلى السيد الرئيس لنقول له بأننا نريد أن ندخل معركة مصيرية لن يرجع منها رجل منا، نريد أن نأخذ بثأر شهدائنا لننام وإياهم قريري العيون"

غادر آمرُ اللواء تاركاً خلفه غبار كلماته وعفونة ما ينوي القيام به، تفرق حشدُ الجنود وعلى وجوههم خوفٌ ممتزج باستسلام مُذل إلى القدر الأرعن الذي سلّم زمام قيادته بيدِ جبانٍ غبي. قال لي (ب. ع) :

"كلام سخيف اعتدنا سماعه"

" ولكن هذا ما سيحدث فعلاً "

قلتُ بأسلوب الواثق من حدْسه فردّ بصوت هامس:

"وماذا تنوي ؟ "

"سأفرُّ الليلة. "

طلبتُ منه أن يزودني بنماذج مطبوعة من الإجازات الدورية لأستخدمها في تنقلي وأعطيته رقم تلفون بيتنا ليتصل بي كلما جاء بإجازة، ودّعته استعداداً

للتسلل خارج المعسكر أثناء انشغال الجنود في فترة تناول العشاء، ولكن وقبل حلول الظلام أعلنتْ في المعسكر حالة الاستعداد للتحرك ففشلتْ خطتي حيث تشددت المراقبة على أسوار المعسكر وتم استدعاء سائقي الدبابات لتجهيز دباباتهم بالوقود وشد (اليطغات) على ظهور الدبابات. كانت الأخبار توحي بالهدوء على قواطع جبهات القتال فإلى أي قاطعٍ سنتجه يا تُرى ؟ لا أحد يعلم. عند الفجر تحركت أرتال الدبابات باتجاه مدينة المحمرة ثانية، ثم اجتزنا المدينة باتجاه نهر الكارون، وعلى مسافة ليست بعيدة عن النهر وعلى الجانب الغربي منه توقف الرتل، أدخلنا دباباتنا في مواضع أعدت لها قبل وصولنا إليها، كان النهر هو الحد الفاصل ما بين الجيشين حيث أن الجيش الإيراني قد أكمل استعادته للجانب الشرقي ويسعى الآن للعبور إلى الضفة الثانية.

لم تمضِ سوى ثلاثة أيام على تعسكرنا في هذا المكان حتى أعلن عن احتمال تحركنا ثانية ولكن هذه المرة باتجاه مدينة (الخفاجية) حيث بدأ الجيش الايراني هجومه لاستعادتها وقد استطاع وقتها أن يحرز انتصارات سريعة على جميع القواطع في جبهة القتال مما شجعه على تكثيف هجماته التي أربكت الجيش العراقي وكبدتْهُ خسائرَ فادحةً بالأرواح والمعدات فصارت الهزيمةُ طموحَ الجندي العراقي ولم تكن (ثلثي المراجل) كما يقال بل هي المراجل كلها. تأكد لنا خبرُ التحرك نحو الخفاجية لتعزيز القوة هناك أو لشن هجوم مضاد ولم يبقَ سوى لحظة الانطلاق. أخرجتُ مفلَ اللوالب الكبير من صندوق الدبابة وبسطتُ ساعدي الأيسر على سطح الدبابة، أغمضتُ عيني وبثقة وحقد تحرك ساعدي الأيمن باتجاه أخيه فسمعتُ طقّة انكسار العظم، تسلقتُ برج الدبابة وأزلتُ قدمي بتمثيلٍ متقن ورحتُ أتدحرجُ مُطلقاً صرخة قوية هرع على أثرها الجنود

إلي، حملوني إلى داخل سيارة الإسعاف التي وصلت سريعاً وانطلقت بي نحو مستشفى (التعليمي) بالبصرة، ومنه ابتدأتْ صفحة جديدة في حياتي.

قضيتُ شهراً في البيت متمتعاً بالإجازة المرضية قبل أن أدخل مرحلة الهروب والتخفي، اتصل بي خلالها (ب. ع) ليخبرني بحدوث ما كنت أتوقعه:

"لم يعد أحد من وحدتنا غير جنود القلم والعاملين في المطبخ"

"تيسير، محمد، عامر، عبد الأمير، إسماعيل، مهند، كاظم، حسان، جثير، نعمة، فاضل، جاسم، عبد الحسين، حمزه، نعيم، وادي، مراد، ناصر، " .....

"قلتُ لكَ لم يعد أحد"

"وآمر اللواء ؟"

"هربَ بسيارته ولكنها انقلبتْ به على الشارع العام فمات"

"خره بروحه. "

عدتُ إلى البيت متستراً بالليل بعد غياب استمر ما يقارب الشهرين كنتُ خلالهما أتنقل بين المدن العراقية شمالاً وجنوباً مختبئاً في بيوت الأصدقاء، وكنتُ قد اعتدتُ المكوثَ في البيت بضعة أيام بين فترات الاختفاء، لكن هذه المرة جئتُ زائراً ومودّعاً حيث أني قررتُ السفر إلى ايران مشياً عن طريق كردستان، أخبرتُ أخواتي بالأمر فكتمن خبره عن أمي. في الفجر دخلتُ الغرفة التي ترقد فيها أمي لأودعها فوجدتها تحدق إلى السقف، نظرتْ إلي وكأنها تعرف بالأمر، جلستُ عند رأسها وأخبرتها بنيتي، حدقتْ إلي بعينيها الصارمتين فتذكرتُ حديثي معها قبل سنة، وبرودة أو بشجاعة قالت لي:

"مودع بالله بس خلي ابالك إذا ماترجع أقتل نفسي"

في الطريق بين بغداد وأربيل، وبين مفرزة تفتيش وأخرى كنتُ أنظر إلى الفراغ من خلال نافذة السيارة كي أخفي عن المسافرين الدموع التي راحت تنهمر من عيني، كنتُ على يقين بأن أمي ستنتحرُ ليس بسبب ألم السرطان الذي راح ينهش أمعاءها ولا بسبب فقدان ثالث أبنائها الأربعة فحسب بل بسبب إصرارها على تنفيذ وعدها لي، راحت صور أمي تترى في ذاكرتي وترتسم بأشكال مختلفة، وعلى الرغم من محاولتي إبقاء صورها الواضحة النقية إلا أن حديثها معي قبل سنة كان يقتحم ذاكرتي، كنتُ ألومها حيناً وأحياناً كثيرة أحاول أن أجد ما يبرر سلوكها القاسي مع نفسها ومع أبي خاصة، ارتسمت صورتها أمامي وهي واقفة في مقبرة النجف عند زيارتنا قبر أبي بعد مرور سنة على وفاته، كانت مصممةً على شراء قبر لها جنب قبره وكان لها ذلك، أية رغبة كانت تدفعها إلى مجاورته في مماتها وهي التي كرهتْ حياتها معه ؟ سؤال لم أجد له تفسيراً سوى حيلة اتبعتها كي تتحاشى الإحراج أمام أبنائها عند زيارة قبر أبيهم وهذا ما كنتُ قد رأيته منها فعلاً لكني لم أدركه في زياراتنا السنوية لقبر أبي فهي لم تكن تبكي عند قبره بل كانت تبكي عند قبرها.

في بداية عام ١٩٨٤ وكان قد مضى على وجودي في ايران أكثر من سنة استلمتُ رسالة من آسيا (أختي الصغيرة) عبر أخي الكبير الذي كان يقيم وقتذاك في الجزائر، ومما جاء في الرسالة عبارة لم تكن مفاجأة لي:

"لقد انتحرتْ أمي بتناولها علبة فاليوم كاملة بتاريخ ٣١ / ٥ / ١٩٨٣ ولم نستطع نقلها إلى قبرها إلا بعد ثلاثة أيام من موتها بمساعدة الجيران. "

كان في داخلي مجنونٌ يصرخُ:

" أحبكِ

أحبكِ

رغم كل شيء"

* * *

(تينا) فتاة في بداية العقد الثالث، شقراء رشيقة صادفتها أول مرة في السوبر ماركت الواقع في الحي الذي أقيمُ فيه ثم عدنا معاً بالاتجاه نفسه، أبطأتُ في السير حتى لحقتْ بي، ابتسمتْ فألقيتُ إليها بتحية لا تخلو من الرغبة، ولكي أجعلها تسير بنفس إيقاع خطواتي بدأت معها بكلامٍ مفتعلٍ واضح الغاية مُبدياً تذمري من برودة الطقس الدنماركي، فقالت:

"إن طقس النرويج أكثر برودة من الدنمارك"

"هل كنتِ في زيارة للنرويج ؟"

"أنا نرويجية"

"ولكنكِ تتحدثين الدنماركية ؟"

"أمي دنماركية وأبي نرويجي وأنا أقيم في النرويج . "

"إذن أنتِ في زيارة لأمك ؟"

"نعم"

"وتقيمن معها في هذا الحي ؟"

"نعم مقابل شقتكَ بالضبط"

"إذن أنت تعرفين أين شقتي ؟ "

"ألستَ مقيماً مع الساحرة ؟ "

ثم ضحكتْ وافترقنا على أمل اللقاء دون موعد محدد. كنتُ وقتذاك أقيم مع إمرأة دنماركية تعمل أستاذةً للـMeditation)) وقراءة الفأل.

بعد لقائنا السريع بيومين رأيتها من نافذة المطبخ وهي تدخل محل الغسّالات الأوتوماتيكية فحملتُ بعضاً من قطع الملابس التي لم تكن وسخة وتبعتها مفتعلاً المفاجأة، حجزتُ غسّالة ووقفتُ مرتبكاً بانتظار أن تنتهي من إدخال ملابسها في غسّالة ثانية، إلا أنها كانت أكثر جرأة مني فدعتني إلى شرب القهوة في بيت أمها التي لم تكن في البيت حينذاك حتى يحين موعد توقف الغسالات. وقفتُ أتطلع إلى اللوحات المعلقة على الجدار وقد ذهبتْ هي إلى المطبخ، وحينما عادت بالقهوة وجدتني أجلس على الصوفة عارياً، وضعتْ الصينية على الطاولة وأخذتْ السيجارة من فمي، سحقتها في المنفضة ثم وقفتْ أمامي بقامتها الطويلة وشعرها الذهبي المنسدل حتى ردفيها، وبتأنٍ قاس راحت تفتح أزرار قميصها كراقصة الستربتيز وتتطلع إلى جسدي بنظرات جائعة حتى تعرتْ تماماً فرمتْ بنفسها قربي. تكرر المشهد لثلاثة أيام متتالية وفي اليوم الثالث وبعد أن أفرغنا ما في جسدينا من شهوة أخبرتني بأنها ستسافر غداً إلى أوسلو.

كان ذلك في بداية عام ١٩٩٠ وفي عام ١٩٩٢ رأيتها ثانية وهي تدفع عربة أطفال، توقفتْ مبتسمةً برقة فبدتْ لي عارية تحدق إلي برغبة نهمة، وبعد لحظات صمت تخللتها أسئلة مفتعلة عن الصحة والأحوال، ولكي أطيل المجاملة رحتُ أحدق في وجه الطفل النائم، كان أسمرَ الوجه وذا شعرٍ أسود رفعتُ رأسي باتجاه أمه فرأيتها تنظر إلي بتحايلِ مَنْ يريد سرقة شيءٍ ما أو بفضولِ مَنْ يترقبُ ردةَ فعلٍ آنية، جاءني صوتها متغنجاً:

"إنه نيكولاي "

ثم أردفتْ بعد فترة قصيرة:

"نيكولاي، ابنكَ"

اهتزَ شيءٌ في داخلي محدثاً دوياً في نفسي كانكسار زجاجٍ أو كتوقف سيارة مفاجئ عند حافة هاوية، ولكي أتدارك الموقف وأخفي ارتباكي رحتُ أحدقَ إلى الطفل ثانيةً، إنه يشبهني حقاً ولكنني لا أشعر تجاهه بأبوّة كما هو الحال في بعض الأفلام العربية أو الهندية، بل إن شعوراً بالكره له ولأمه استبدَّ بي في تلك اللحظة. أسرعتُ بإنهاء اللقاء متحججاً بموعد عملٍ ينتظرني كي أهرب من نفسي.

في مواقف كثيرة في حياتي كنتُ متهوراً وعابثاً أبررُ ارتكابَ الخطأ بشيوع الخطأ على الرغم من قسوة أحكامي على أخطاء الآخرين فلذا وجدتني أقفُ تلك الليلة أمام المرآة رافعاً كتفيّ بسخريةٍ وقحة مردداً على أسماع نفسي:

"إنه جاء عن طريق الغلط."

* * *

(السنة الكبيسة) تعني لي مرور أربع سنوات أخرى على وفاة أبي حيث أنه رحل بتاريخ ٢٩ / ٢ / ١٩٧٦ ففي شباط الماضي وفي التاسع والعشرين منه مرت ذكراه العشرون، أخبرتُ شهناز بذلك فاقترحتْ عليّ أن نذهب إلى مرقد السيدة زينب ونشعل شمعةً لذكراه. ارتدتْ (لأول مرة) عباءةً عراقية وجلسنا متقابلين في ساحة الصحن، أشعلنا شمعةً وعودي بخورٍ ورحتُ أروي لها ما ذكرته أعلاه، كانت تصغي إلي صامتةً ودمعة قلقة تتحرك بين جفنيها، وحينما أتممتُ القصة قالت:

"هل ستروي يوماً لطفلي قصة جده ؟"

أحسستُ بوخزة في قلبي وشعرتُ كأن الذكريات تسري في روحي كرسيسِ حمّى وبأن الماضي ليس أحداثاً تُطوى صفحتها بل ربما يعيش مع الإنسان في حاضره ويجدد نفسه مع الزمن بأحداث ربما تتجاوز الحاضر إلى المستقبل، وليس الحنينُ إلى الماضي دليلاً على بؤس الحاضر وإنما للماضي حضورٌ متجدد.

تلك الليلة بكيتُ لأولِ مرةٍ بعد مرورِ عشرين عاماً على وفاةِ أبي.

* * *

تشرين الثاني ١٩٩٦ فايله

اللحى

في حديقتنا، تحتَ نارنجةٍ
دفنتْ أميَ الخائفهْ
(روائعَ طاغور)
إنها لا تجيدُ القراءةَ
لكنّها مُتيقنةٌ
إنْ أتوا، سوفَ تأتي الرعونةُ
والخوفُ
والفكرةُ الزائفهْ

تحت نارنجة
دفنتْ سرَّ أبنائها
دفنتْ كلَّ ما تحملُ الأغلفهْ
من لحىً:
الخمينيّ،
ماركس،
وطاغور

ثم نامتْ على السرّ
نامتْ.....
ومات الجميعُ

ومازلتُ وحدي
أقيمُ الجدارَ على الكنزِ
حتى اغتلامِ الصبيّ الذي لن يجيءَ
وها أنني
بعد عشرينَ عاماً
وعشرينَ أرضاً طويتُ
ومرّ مقصُّ الزمان على لحيةِ الشيخِ والفيلسوفِ
أنامُ على فكرةٍ نازفهْ :
أن أعودَ وأنبشَ أرضَ الحديقة
كي أشمّ تراباً تعفّرَ بالشعرِ
والموت
والفلسفَهْ

دمشق
٢٥/٢/١٩٩٦

الولدُ الخاسرُ حدَّ الـ.....

في نهاية عام ١٩٨٣ تمَّ نقلنا ـ نحن اللاجئين العراقيين المقيمين في أوردكاه كرج ـ إلى (أوردكاه) آخر بقع جنوب غربي ايران بين مدينتي خرم آباد وأندمشك ويبعد عن طهران مسافةً تقطعها السيارة بعشر ساعات [الأوردكاه كلمة فارسية تعني المخيم أو المعسكر]. يقع هذا المجمع بين تقاطع ثلاث سلاسل جبلية مشكلة بذلك وادياً مثلث الشكل ، هناك في قعر الوادي تناثرتْ مجموعة من خيام مهترئة لا تقاوم الرياح الباردة في الليل الطويل (أقول الطويل لأن تلك البقعة لا تخضع للتوقيت الطبيعي في البلد حيث أن المجمع يقع في عمق وادٍ كالقدر ، تشرق الشمس عليه الساعة الحادية عشرة وتغيب الساعة الثانية بعدَ الظهرِ) . المجمع محاطٌ بأسلاك شائكة وتنتصب في زواياه أربعة أبراج مراقبة يتناوب فيها الحراسة جنود غاضبون (لم أسمع طيلة بقائي هناك جندياً طابت نفسه أو مسّه شوق فغنى).

الهرب هو أول فكرة تخطر في ذهن الداخل إلى هذا المخيم ولكن على مَنْ يفكر بالهرب من هذه البقعة النائية أن يتفق مع أحد الجنود عبر سماسرة خاصين امتهنوا حرفة إقناع الجنود بالتغاضي عن الفارين وذلك بإرشائهم بالتومانات أو ببطانيات الهلال الأحمر أو بقمصلة عسكرية رومانية الصنع حملها اللاجئون معهم من العراق وحملت معهم غبار الحرب ووعثاء السفر ، بعد ذلك على اللاجئ أن يجتاز الأسلاك الشائكة ليلاً ويجتاز سلسلة جبال عالية يقع وراءها الطريق المؤدي الى مدينة خرم آباد ، هذا إذا تمت عملية الهروب بنجاحٍ ، أما إذا لم

تتم فسيكون مصيره السجن، والسجن عبارة عن بناء من الآجر الصخري وسقفه من الزنك الذي تتسرب منه برودة مهلكة ناهيك عن حرارة الشمس صيفاً حيث تتحول غرفة السجن إلى جحيم لا يطاق. وصلنا أوردكاه خرم آباد (هكذا يُطلق عليه) فجراً بعد رحلة طويلة ومملة، كان في استقبالنا كائنات لا تشبه الكائنات البشرية إلا أنها كانت ثم مسختْ. أطلتْ علينا برؤوس شعثاء ولحى كثة ومتسخة، متوجسة خيفة لا أستطيع وصفها وفرحة بأنها ترى ولأول مرة منذ دهر كائنات بشرية قادمة من الدنيا، هذه الكائنات المنسية سميت بـ (المعاودين) حتى هم أنفسهم كادوا أن ينسوا أسماءهم مكتفين بهذا الاسم، عائدون إلى أين، وقادمون من أين ؟ إنهم لا يعرفون سوى أنهم عراقيون من أبٍ وجدّ عراقيين، وجدوا أنفسهم يوماً محمولين في شاحنات رمتهم على الحدود العراقية الإيرانية بحجة أنهم ايرانيون.

كان لمشاعرنا طعمٌ مرّ ولها رائحة الغضب المنكسر، غضب عديم الاتجاه يدور كدوائر الغبار العاصف وموجّه في لحظة واحدة إلى كلّ الجهات، يبدأ بالنفس ولا ينتهي بالدول الكبرى، كنا مستسلمين لعدوّ لم نَرهُ ولشيء لا نعرفه. سحبنا أكياسنا وزكائبنا بذلّ مجتازين صفوف الخيام متذكرين بحسد وحنق أصدقاءنا، زملاءنا ورفاقنا الذين غادروا إلى السويد والدنمارك وسورية وحتى أولئك الذين غادروا الى إليمن الديمقراطي آنذاك.

* * *

عجيبٌ أمر هذا المخلوق، إن فيه طاقة عظيمة للتكيف مع تلك الظروف التي يحسبها في البدء دائرة من الظلام يستحيل اختراقها لكن سرعان ما يبدأ تلمس جدران هذه الظلمة حتى يتوسع بؤبؤا عينيه ليرى الحد الأدنى من الأشباح

والشواخص التي سيتآلف معها رغماً عنه . هذه الطاقة لو سنحت لها الفرصة أن تتفجر في ظروف إنسانية لتحولتْ إلى طاقة بناء هائلة أو قوة تحطم جدار العبودية ، ولكن ما بالها لم تنفجر في وجه الحاكم الفرد ؟ بل لماذا لم تستطع أن تغير شيئاً وتصحح مسار حركات المعارضة التي استبد بها أشخاص يسقطون بركلة ؟ هذا سؤال يحيرني على الرغم مما يحمله من بطرٍ وتجاهل لحقيقة الظروف في العراق أو العالم ، ولكني لا أستطيع كتمانه وأصرح به بأسفٍ ، وأسفاً إذ لم أجد الجواب حتى الآن.

توزعنا على الخيام ، كل ثلاثة في خيمة ، منحونا (مشكورين) حرية اختيار الأشخاص الذين سيقاسموننا الخيمة فكان العراق (خيمة لعربٍ وأخرى لأكراد وثالثة لتركمان ورابعة لآشوريين ، هذه الخيمة للشيعة وأخرى للسنة وثالثة لعلمانيين ، ولم يستطع ناصر وتوأمه منصور أن يجدا ثالثاً ينتمي إلى طائفة العليلاهيين فرفضا أن يقاسمهما ثالث من طائفة أخرى ، حتى عباس المجنون تقاسم خيمته مع مجنون آخر اسمه علي).

يرتفع الأذان [على الرغم من أن الطائفة الشيعية هي الطائفة الرسمية في ايران إلا أن كاكه حسن أصرَّ على أن يكون الآذان سنياً] مختلطاً بزعيق لاعبي كرة الطائرة وبغناء محمداوي قادماً من الأهوار الجنوبية محملاً بتأريخ من الأسى والإبادة مصطدماً بجدار (الحيران) الكردي تغنيه حنجرة محترقة كجبال كردستان . أقول (يصطدم) برغم تشابه الأحزان والآهات لكن هذين الطورين يصطدمان ببعضهما كالنقاشات السياسية التي تدور كل لحظة والتي تنتهي غالباً بالغضب والضغينة.

وعجيب أمر هذا المخلوق العراقي ، فما أن استقر بخيمته حتى فتح زكائبه المكتنزة وراح ينظم كتبه وأوراقه ، قواميسه ومعاجمه ، يكتب رسائل تصل الآفاق

لينتظر رسالة قادمة إليه من بلد لم يخطر في بال أي عراقي أن يصله . تلتهم عيناه الكتب وكأنه يعيش أبداً أو كأنه يردّ بها الإهانة . يقرأ (قصة الحضارة) لوول ديورانت نهاراً، وليلاً يقرأ على ضوء الفانوس قصة (عشيق الليدي شاترلي) النسخة الإنكليزية التي اهترأت من التداول، وراح البعض يحفظ عشرات الكلمات الإنكليزية كي ينصب نفسه ليلاً ملكاً على قلب الليدي . والغريب في هذا الكائن أنه ما أن يركن الكتاب جانباً ويقف في الطابور لاستلام حصته من البيض أو الزبد حتى يتحول سلوكه إلى سلوك نمر أو ضبع ، فتراه مخاتلاً متحفزاً كي ينشب أظفاره بوجه الكائنات الأخرى كأنه يحنُّ إلى طقوس بدائيته ، أو ربما انتفاء دور الزمان والمكان البدائي يساهمان في محو الذاكرة ومساحة العقل البشري فيعود منقاداً إلى الغابة على الرغم من تجربته ووعيه ، وكان هذا الشعور يثير في نفسه الهدوء والبهجة حتى تحول المكان بكل تفاصيله إلى مضارب عربية لقبائل تنتمي إلى القرن الأول الهجري وهذا ما جعل جماعة الكاكه حسن يستبدلون (شراويلهم) و (جمداناتهم) بعباءات عربية واعتمر كلّ منهم كوفية وعقالاً ولم يكتفوا بذلك ، فهم على الرغم من حقدهم الواضح على العرب والذي ما انفكوا يصرّحون به علانيةً من خلال أحاديثهم أو سلوكهم الإنفعالي العدائي في أغلب الأحيان ، أقول على الرغم من ذلك فقد استبدلوا أسماءهم الكردية بأسماء عربية يتنادون بها بأصوات عالية وبلغة عربية فصيحة فكانوا يثيرون السخرية حينما يتخاطبون بجمل إقتبسوها من كتب التفسير القديمة أو مما خزنته ذاكرتهم من المسلسلات التأريخية مثل (عمتَ صباحاً يا أبا قتيبة ، عمتَ مساءً يا أبا بلال ، لله درك يا أبا عبد الرحمن) ولن أنسى وجه كاكه نوزاد الغاضب حينما خرج من خيمته صارخاً " هسهس الحق ، هسهس الحق " مشيراً الى أبي عبد الصمد الذي سرق من خيمته قبضةً من الشاي .

هناك قرأتُ عشرات الكتب في التفسير والسيرة النبوية، في الفقه والنحو، في التصوف والفتاوى.

هناك قرأت كتاب (النزعات المادية في الفلسفة العربية) لحسين مروه وعشرات الروايات التجارية البائسة التي أصدرتها (دار القلم) ببيروت.

هناك تذكرت وجوه الصبايا اللواتي شاهدتهن في أيام مراهقتي والصدور النافرة والسيقان المنفلته من الغطاء في صباحات الصيف حينما كنت أختلس النظر إليها وأنا أهش على رفوف الحمام، هناك ندمتُ ندماً شديداً على كل الفرص الغرامية التي سنحت لي ولم أقتنصها خجلاً أو غباءً.

هناك انتعظتْ أعضائي كلها واستيقظ فيّ كل شيء مصحوباً بالخيبة والشعور بالخسران.

* * *

لستُ من هواة لعب كرة الطائرة، لستُ من رواد الجامع، ليس عندي ما يسمح لي في التفكير بالسفر إلى السويد أو الدنمارك ولستُ ممن يطيق السكون . . . . فما العمل ؟

تضيقُ الدقائقُ فأشعر بأنها دبابيس تثقب بالونَ روحي أو كعثة تنخرني من رأسي حتى أخمص قدمي . . . يضيق التنفس حتى كأنيَ أتنفس برئة من رخام ويضيق الهواء حتى كأن قبضةَ نارٍ تعتصره فلا يعدو الشهيق شهيقاً والزفير يصير آهات خروجها يحرق الصدر. بعتُ بطّانيةً واشتريت بثمنها عشر علب سجائر من نوع (أشنو ويزه) تبغها مصنوع للتعذيب لا للمتعة، وبقيتُ على هذه الحالة حتى نفدتْ بطانياتي جميعها عندما حل الصيف هناك فتحول الوادي إلى قِدرٍ يغلي العراقيون فيها، وليس

الحر وحده كان ما يمنعنا عن النوم بل الخوف من الأفاعي والعقارب التي كانت تلدغ حتى أحلامنا فقد تفتقت الأرض فجأة عن أفاع مختلفة الأطوال وعقارب صفر تثير الرعب والاَشمئزاز وحشرات بألوان مختلفة.

مرة ونحن منشغلون (كالعادة) بحركة جنونية يصدم بعضنا بعضاً كذرات ماء مغلي، صرخ شاب فحسبنا أن عَقرباً لدغته إلا أن ذلك لم يحدث بل كانت صرختهُ تدلّ على ابتهاج طفولي حيث أنه اكتشف لعبةً غريبة، تجمع أغلب اللاجئين لكي يشاهدوا الاكتشاف العجيب.

كان الشاب الكردي يطارد عقرباً ثم يحاصرها بدائرة من نار فتحاول عندها العقرب اختراق محيط الدائرة من عدة نقاط إلا أنها تصطدم بجدار النار فترتدّ إلى داخل مساحة الدائرة، وحينما لا تجد مفراً وتيأس من فكّ الحصار عنها، تقف عند المركز ثم ترفع نصفها الأمامي وتغرز إبرتها في جسمها وتموت.

لقد انتشرت هذه اللعبة كالإشاعة بين اللاجئين فراحوا يقضون أوقاتهم بالتلذذ بشجاعة العقرب التي يفتقرون إليها، حتى أنا مارستُ هذه اللعبة مرتين.

مرة حدثني فلاح كردي عن جزع البغل وانتحاره، وها هو مخلوق أخر يختار الموت بشجاعة كم يحتاجها الجنرالات. قضيتُ وقتاً طويلاً أتأمل هذا المشهد لهذا الكائن الشرير. كم كنا مخطئين حينما جعلنا النعل وسيلةً وحيدةً لموت هذا الكائن الذي تضحي أنثاه بنفسها من أجل أبنائها وتموت بإرادتها وبإباءٍ حينما ترغم على الموت.

توقف اللاجئون عن مزاولة هذه اللعبة على أثر انتحار مهندس تركماني بعد أن أحرق الخيمة عليه. سأعود إلى حكاية الانتحار بعد أن أروي

قصةً أخرى مضحكة ـ مبكية، ففي يوم استنفرَ الجنود وشددوا الحراسة على المخيم، حيث هرب في ليلة واحدة أكثر من عشرين لاجئاً، وفي صباح اليوم التالي عرفنا سبب هذا الهروب الجماعي. لقد وصل خبر لا نعرف مصدره وانتشرَ بشكلٍ سريع كعادة العراقيين في تناقل الإشاعات. الخبر ـ الإشاعة يقول بأن دولة الأرجنتين تطلب لاجئين عراقيين للإقامة فيها وسيتم منحهم الجنسية الأرجنتينية حال وصولهم إليها على شرط أن يغيروا دينهم ويتنصروا. وبسرعة تحول الخبر إلى أمل في نفوس أغلب اللاجئين للخلاص من هذا الواقع وصار عبور الأسلاك الشائكة التي تحيط بالمخيم خطوة أولى في دروب الانعتاق، وعلى الرغم من الحراسة المشددة هرب خمسة أشخاص وألقي القبض على تسعةٍ، أودعوا السجن ولسان حالهم يقول (ضاع الأمل).

قيلَ إن السفارة الأرجنتينية بطهران فوجئت صباح أحد الأيام بوقوف العشرات من العراقيين عند بابها يطالبون بمنحهم استمارات الهجرة واستمارة التنازل عن دينهم ومنهم مَنْ أراد أن يبرهن للأرجنتينيين صدق قراره فذهب إلى الكنائس كي يحصل على شهادة تعميد فرفضت الكنائس خوفاً من أن تعلم السلطات الإيرانية بذلك، وبعد أن اكتشف العراقيون خبث هذه اللعبة وكذب الإشاعة عادوا يسخرون من أنفسهم، ومنهم من كان يردد زيادةً في تجريح ذاته (ما زاد حنون للإسلام خردلةً / ولا النصارى لهم شغلٌ بحنون).

* * *

في مثل تلك الظروف يصبح للانتحار قيمةٌ تفوق قيمة الاستشهاد، ربما لكون الانتحار يمثل رفضاً لعموم الأشياء، رفضاً غامضاً وجميلاً بلا غاية، حيث يكون الرفض نقياً، مُبرّءاً من المصالح الشخصية أو الطموحات الدينية في حين تكون للاستشهاد غاية واضحة. وبالرغم من أن الانتحار والاستشهاد يحملان القدر نفسه من الشجاعة الا أن الانتحار يبقى أكثر شعرية وجرأة وأن وقعه على الآخرين أكثر مأساوية وألماً.

حالتا انتحار حدثت خلال الستة أشهر التي قضيتها هناك، الأولى كانت لشاب تركمانيٍ ـ كما ذكرت ـ كان يعمل مهندساً في العراق، كان صامتاً يقطع المخيم جيئة وذهاباً دون أن ينطق بحرف واحد مهما حاول الآخرون أن يقطعوا عليه صمته أو يغروه بالكلام. لقد أحرق خيمته عليه وحينما علمنا بموته أجهش الجميع بالبكاء، بكاء لم يعرف العراقيون صدقه وحرارته من قبل برغم الأحزان التي اعتادوا عليها وبرغم سني الحرب التي عودتهم على الموت ورؤية الجثث. أكانوا يبكون على الميت أم على أنفسهم ؟

الحالة الانتحارية الثانية كانت لرجلٍ في الخمسين من عمره، قد أفرجَ عنه قبل بضعة أسابيع، فلقد أودع السجنَ لأنه ادّعى النبوة، وحينما تأكدوا من حالته النفسية أطلقوا له جنونه خاصة وأن مثل هذه الحالات ليست نادرة في الشعب الإيراني فعشرات يدعون النبوة أو يدعون بأنهم (المهدي المنتظر).

عاد النبيُ الكردي (هكذا أطلقنا عليه) إلى المخيم ولم يكفّ عن دعوته ولسان حاله يقول (والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في شمالي . . . . .) ولكن هذه المرة حصل على مُريد يخدمهُ ويردد أقواله. كان يخرج من خيمته صارخاً بصوت جهوري يردد بعض (الآيات !!) التي ابتكرها على غرار قصار السور القرآنية فيتجمع حوله اللاجئون

منهم من يسخر منه ومنهم من يأخذ الأمر بالجد الساذج مكفراً اياه داعياً إلى ردعه وجلده حتى يتدخل الجنود لتفريق الحشد. في يوم قرر (هو ومريده) أن يرحل عن هذا العالم العاق واضعاً نهاية لحياته ودعوته التي لا يستحقها الغافلون على حد زعمه.

* * *

في ساعات قبل الظلام كان اللاجئون يخرجون من خيامهم يتجولون بحركات هيستيرية عابثة يصطدم أحدهم بالآخر لا لضيق المكان ولكن لأنهم كانوا يختارون وبعفوية أن يتحركوا في مركز المكان مثل فئران التجارب التي تتكتل في وسط صندوق كُهربت جدرانه، ومن الطبيعي ونتيجة لهذا التكتل تنهش الفئران بعضها بعضاً وكذلك حال البشر حينما يحاصرون فتبدأ المشاجرات التي تستخدم فيها الأدوات العدوانية كلها من الكلام البذيء وحتى السكاكين، ولكن وبرغم هذه الحركة الصاخبة، وبرغم قلق النفوس المتوترة فأنكَ تشعر وكأن السكون يعم كل شيء، ذلك السكون المدوي الذي يصم الآذان ويشل الرغبات.

مازلتُ أتذكر الفرحة الكبيرة التي غمرتني يوماً وشاركني فيها صديقي الشاعر جمال مصطفى حينما انتبهنا إلى وجود قطيع من الماعز يجتاز سفح الجبل الممتد أمامنا، قطيع ماعز كان الشيء الوحيد الذي يتحرك في هذا المكان بنسقٍ منتظمٍ ذاهباً إلى غايته وإن كان مُساقاً إليها.

جمال مصطفى شاب ريفي لم يرَ من بغداد سوى (كراج النهضة) حينما جاءت به السيارة من مدينة البصرة وحينما نقلته سيارة أخرى إلى مدينة

السليمانية ليبدأ بعدها رحلة نفيه. إلتقيته في (أوردكاه كرج) وكان خارجاً من سجن (قزل حصار) حيث (أقام!) هناك سبعة أشهر بتهمة جاءته أو (ذهب إليها) سهواً حيث اشترك مع مجموعة من اللاجئين ذوي اللحى والطموحات الأفغانية بتظاهرة داخل الإوردكاه يطالبون بتحسين الأوضاع فيه. التقينا هناك ثم تمّ نقلنا الى أوردكاه خرم آباد، نصبنا خيمتين متقابلتين وتقاسمنا الكتب والقصاصات التي كان يبعثها إلينا الأصدقاء.

كل مساء كنا نجلس على تلّة تقع في زاوية المخيم من الجهة الشمالية، نحدق إلى الجبل المقابل ونرتجل أبياتاً من الشعر العمودي هاجين راثين وساخرين من حالتنا المبكية. مرة قال لي (نحن خاسرون حد الـ .....) انتبهت إلى جملته ورحتُ أبحث عن كلمة تملأ الفراغ .... حقاً أية كلمة يمكن أن تصف حدود خسارتنا ؟ لقد شيدنا بيوتاً من الشعر العمودي، نكوّر الكلمات ونمطها ونغير إيقاعها حتى يستقيم الوزن ومن أجل قافية أدخلنا إلى اللغة كلمات لم ينزل الله بها من سلطان، كتبنا أبوذيات ومواويل بخليط من الفصحى والعامية وكذلك بكلمات فارسية، إلا أننا في ذلك اليوم كنا عاجزين تماماً عن الإتيان بكلمة تصف حد خسارتنا. في اليوم التالي أطلعني جمال على قصيدة كتبها وهي بعنوان (الولد الخاسر حد اللوز)، لم يقنعني عنوان القصيدة إلا أنّي رضختُ لعجزي عن الإتيان ببديل لكلمة (اللوز). قصيدةٌ من أربع صفحات اعتمد فيها بحر الخبب اللاهث وأعتمد التدوير شكلاً للقصيدة بأكملها فكان أجمل شكل يلائم مضمون القصيدة فأنك ما أن تنتهي من قراءتها حتى تشعر وكأنك خارج من كابوس كان جاثماً على صدرك مختنقاً بسبب تلاحق الصور الشعرية وإيقاع التدوير. تبدأ القصيدة بـ (يخسرُ حدّ اللوز ويرحل كالطير على قدمين) ... أية خسارة شنيعة هذي التي تجعل الطائر يستغني عن جناحيه فيرحل على قدميه !

أو بالأحرى أي فضاء هـذا الـذي يفـرض علـى الطـائر أن لا يستخدم جناحيه !؟ تستمر بقراءة القصيدة فتصفعك الصور المتتالية وكلها يشـي بالخسـارة والغبن فهـو يقول (تتفاوحُ كلّ جرار الناس وأنتَ إلى كسَرٍ تتناوحُ، هذا السبخ الأرقي يفطرُ قلبَ صلاة الصبحِ متى تشهق حد اللوز متى تلك النافورات ؟ إذا انبجست كنتَ الغائبَ حدَ اللوز . . .) ثم تستمر القصيدة بوصف حـدود الخسـارات لتصـل إلـى أشدها يأساً وأكثرها إيلاماً حينما تكون الخسارة قدراً لا يحكم الحاضر وحده بـل (حد دخـول جراد المستـقبل غابـات الحـاضر) أو (حد قـناطر يعبرهـا الليـل إلـى الشاعر ذات ضحى).

* * *

لم أكن بانتظار رسالة تصلني على عنوان الأوردكاه فـأني لـم أعـط العنـوان لأحد ولكني فوجئت ذات يوم برسالتين قد وصلتا إلي تحمـلان المضمونَ نفسـه ، الأولى كانت من الصديق المرحوم عادل العرس يقـترح فيهـا علي أن أصحبه في الهروب خارج ايران على ظهـر إحدى السفن التي ترسـو في ميناء بندر عباس ، وهـي محاولـة يكـون نجاحهـا ٥٪ وفـشلها يعني السـجن لمـدة لا يعلمهـا إلا الله ، والرسالة الثانية كانت من الصديق عبد السادة خضر جبر الله وفيهـا يقـترح الهـرب إلى أفغانستان.

ما كنتُ راغباً بأية مجازفة من هـذا النـوع إلا أن هـاتين الرسالـتين بـثتا في نفسي الأمـل ، وبعـد يومين قـررتُ الهـرب من هـذا المكـان والذهـاب الـى طهـران مرجحاً الحل الثاني حيث أن بعض العراقيين استطاع الوصول الى أفغانستان وبعث رسالة من هناك . ولكن كيف الوصول إلى طهران؟

كان هناك (معاود) ينتمي الى نفس مدينتي في العراق ويعمل في إحضار التموين إلى المخيم. اتفقتُ معه على أن يهرّبني بسيارة التموين التي تنطلق من الأوردكاه في الساعات الأولى من صباح كل يوم، وتمّ لي ذلك دونما صعوبة، حيث مددتُ جسدي على ظهر البيك أب وقد غطاني بالزكائب الفارغة وصناديق الكارتون، فتذكرتُ بيتَ شعرٍ لأبي العلاء المعري ورحت أردده مع نفسي بزهو وبهجة (فطرْ إن كنتَ يوما ذا جناح / فإن قوادم البازي يهضنه). ما أن انطلقت السيارة على الشارع حتى شعرتُ بأني قد اجتزتُ حقولاً من الألغام.

ومن مدينة خرم آباد إلى طهران إلى (مشهد) وصولاً إلى مدينة (طيبات) ثم إلى الحدود الأفغانية، ولكن.....

* * *

أيار ١٩٩٦ / دمشق

(*)أعرتّ هذا الفصل مخطوطاً إلى الصديق شاكر الأنباري فاقتبس منه ولم يشر إلى ذلك فاقتضى التنويه، راجع الصفحتين ١٣٦ و١٣٧ من رواية (كتاب ياسمين) الصادرة عام ٢٠٠٠ عن المؤسسة العربية للدراسات والنشر.

شمعه

(شمعه امرأة تجاوزت الزمن)

عبارةٌ سمعتُها تترددُ على ألسنة الكثير من الرجال والنساء في المدينة وفي الحي الذي كنا نقيمُ فيه، لفتتْ انتباهي حينما كنتُ صبياً وتركتْ في نفسي وقعاً غامضاً يستحيل وصفه الآن لأنها مازالت تحمل الغموض نفسه ولكن يبقى الإحساس بها ثابتاً بما تركته في نفس ذلك الصبي أول مرة، حيث أن عبارة كهذي لا تُدرك بالعقل ولا يتغير وقعها في النفس طبقاً لما تتركه الحياةُ من تجارب في نفس الإنسان، بل يبقى الحدسُ هو الفيصل في أمور كهذي فما يدركه حدْسُ الصبي يبقى كما هو في الذاكرة ولا تغيره السنون. ولكني أتساءل الآن ماذا كانت تعني عبارة (تجاوز الزمن) أو (الزمن) نفسه لأشخاص كجابر وعواد وحسوني وفضالة وخلف؟ فالغريب في الأمر أن سكان حي (الجعفرية) بل سكان المدينة بكاملها كانوا يصدّقون أن امرأةً تجاوزت الزمن وراحوا يتناقلون العبارة كتناقلهم للإشاعات وكأنها جاءت استجابة لمطالبهم النفسية وكأنهم كانوا يبحثون عنها بحثهم عن أرزاقهم، هل أنهم أدركوا مغزاها بهذه السرعة؟ أو أنهم لم يفقهوا شيئاً ولكن طبيعتهم في تناقل الأقوال والإشاعات هي التي وجدتْ في هذه العبارة الزئبقية متنفساً لبثّ الروح في حيواتهم الميتة في واقعٍ غامض التهمهم بترهله ولم يترك لهم وقتاً كي يسمعوا أي صوت يأتي من منطقةٍ خارج حدود حواسهم بطيئة الاستجابة.

لم يكن الأمر يحتاج إلى فطنة كبيرة حتى لصبي مثلي كي يدرك (ولنقل بحدْسه) ما جُبلَ عليه الناس في هذه المدينة أو في هذا الحي فهم يكشفون عن أنفسهم للمترقب النبه ببساطة ومجانية. متناقضون حد التشظي لكنهم يحاولون إخفاء ذلك، يجيدون الهرب من رؤية وجوههم فالمرايا تكتشف وتكشف لهم تناقضاتهم الكثيرة، يهربون من أنفسهم كيلا يصطدموا بالحقيقة، الحقيقة التي لم يتعاملوا بها حتى مع الأشياء التي يلمسونها (وربما هذا هو السبب الذي جعل لعبارة تجاوز الزمن استجابة في نفوسهم كي يتجردوا من حقيقة الزمن نفسه)، متشابهون بتناقضاتهم وحينما يصل الصراع بين أحدهم ونفسه حد البوح أو يرى ما لا يود رؤيته في المرآة ينسخ نفسه ليبقي صورته ويكذبُ . . . يكذبُ حتى تتحول الكذبةُ عنده صدقاً فيتخلص بذلك من صداعِ الضمير ووخزِ التأنيب، وهكذا هم في هروب دائم، يرسلون أطفالهم إلى المدارس لا ليتعلموا بل لكي يتهربوا من الخدمة العسكرية التي ارتبطتْ بالموت القادم من الشمال حيث الأكراد أو الانقلابات المتقلبة، وهم يعيشون لا لكي يتمتعوا بل ليهربوا من الموت، وهكذا هم مطاردَون من أنفسهم، خلقوا للجدران آذاناً كي يتوهموا بأنها تتنصتُ إليهم كي يجعلوا للخوف مبرراً، متفقون على تناقضاتهم، متواطئون في ما بينهم بهدنة غير معلنة، قلما يحلمون وإن حلموا فأحلامهم كوابيس أو احتلامات يفرغونَ فيها سوائل أوهامهم في مهبل اللحاف. لم أنس جارنا محمود حمود الذي وقف يوماً على دكّة أحد الأبواب وراح يرتجل أهزوجةً معارضة عندما شحتْ أسواق المدينة بالشاي رددها على أسماع بعض المارين في الشارع وبعض النسوة اللواتي كن يتخذن من دكّات الأبواب مجالس سمرٍ:

(ها يالمصرف دير وجهك جاي

أكلنا الثريد ويعد شرب الجاي)

ثم مسك طرف يشماغه ضارباً برجله الأرض مرتين أو ثلاث، تلفتَ يمنةً وشمالاً داساً نفسه في بيته الذي ابتلعه هو وأهزوجته الساذجة بعدها راح يتملق لألف شرطي ظناً منه بأن عيوناً ترقبه، حتى أنه دفع بأبنائه إلى موالاة السلطة الجديدة بعد شهر واحد من انقلاب ١٧ تموز ١٩٦٨ خوفاً من اتهامه بالشيوعية.

وإذا كان حال الناس كذلك فإن رجال الشرطة في المدينة هم أكثر شرائح المجتمع غباءً لكنهم يتبعون قانوناً فيزياوياً عرفوه بفطرتهم الخبيثة، فهم يعرفون قانون الضغط والتبريد لتحويل الغاز إلى سائل وهكذا يستطيعون تحويل غضب الناس (في بعض الأحيان) وانفلاتهم إلى خنوعٍ بهراوة يهزونها بوجوههم وابتسامة يرمونهم بها وربما بمصافحات وقُبلٍ إذا اقتضتْ عمليةُ التبريد هذي، والناس الذين أدركوا المغزى أصبحوا يجيدون الطاعة والتحولات السريعة، فبعد أن انطلقت سيارة الفولكس واكن التي أخذت الجدة شمعه، عرف المتجمهرون مهمتهم الباقية فتفرقوا منصاعين لنظرات رجال الشرطة (المهذبة) وابتساماتهم المصطنعة.

كنتُ أقف على عتبة بابنا أرقبُ كتلةَ الحشد التي بدأتْ تتآكل وتتفتتْ، كنتُ ألمح أبي حاثاً خطاه باتجاه البيت ماداً عنقه مثل زرافة مطاردة، وما أن وصل البيت حتى صرخ بي وبأخواتي اللواتي رتقتْ أعينهنّ ثقوبَ الباب الخشبي مسترقات النظر إلى الشارع الملتهب بالحركة، وبحركات هستيرية دفعنا إلى الداخل وأغلق الباب، وحينما اطمأن بأننا لن نعود إلى مراقبة الشارع توجه إلى المرحاض. مكثَ هناك وقتاً طويلاً حتى خطرت لنا فكرة لم تكن غريبة علينا، طرقنا باب المرحاض فأجابنا بتنحنح مفتعل (بالمناسبة أن جدي مات عام ١٩٦٣ في المرحاض خوفاً حينما طرق أحد أفراد الحرس القومي بابنا خطأ)، لكن أبي وربما أدرك ما يدور في أذهاننا غادر المرحاض ساعلاً بهدوء، ماسكاً أسفل بطنه

مفتعلاً الألم بكذب واضح، رمى جسده على الصوفة الوحيدة في الحوش وقبل أن يفاجئه سؤالٌ من أحدنا قال بهدوء دون أن يرفع رأسه:

"قيل إن شمعتن جاسوستن "

قال ذلك مشدداً على التنوين لأنه في الحقيقة كان يردد الجملة كما سمعها تماماً ولكن الغريب في الأمر أنه كيف استطاع أبي أن يلتقط الخبر بهذه السرعة وأني رأيته حينما دخل الشارع وكان قد أسرع في مشيه حينما اجتاز تجمعَ الناس أمام دار الجدة شمعه، فكيف تسنى له سماع ما ينطق به الآن، ولا أعتقد هي من صنع خياله وهذا ما تأكد لي فيما بعد حيث أني سمعتُ الجملة على أكثر من لسان وبصيغة التنوين ذاتها. بعد فترة صمت قصيرة أردف كلامه مفتعلاً الثقة بنقلِ الخبر:

"وقيل إن لها علاقتن بجماعة عزرا ناجي زلخه "

وكان هذا الاسم يتردد كثيراً في تلك الأيام كرئيس شبكة تجسس لصالح إسرائيل كانت الإذاعة العراقية تقوم كل مساء بنقل مجرى محاكمة أفرادها.

تلك الليلة كانت أمي جالسة تتحدث مع زوجة عمي وقد وضعتُ رأسي على فخذها ورحت أصغي لما يدور بينهن، كانت تروي حكايات غريبةً عن الجدة الشمعه وكانت زوجة عمي تصغي إليها بفضول واهتمام وتعلقُ على كلامها تارةً ببرود وتارة أخرى تتحدثُ بحماس وانفعال لما تسمعه من أسرار خطيرة واكتشافات حديثة عن سيرة هذه المرأة ــ اللغز، كانت تقطع إصغائي غفوات سريعة شاهدتُ خلالها الجدة شمعه وهي تعتلي دكّة بابها هاتفةً بالجماهير المفزوعة والمشدودة أنظارها باتجاه المشنقة التي تدلى حبلها من إطار الباب:

"أيها الأغبياء مَن لم يعرف يوم ولادته لن يعرف مستقبله"

فرحتُ كثيراً حينما تلمستُ يومَ ميلادي الصحيح كما أخبرتني هي نفسها، وبصعوبةٍ حاولت أن أصرخ معها غير أني كنتُ أشعر بقبضةٍ تعتصر عنقي:

"أيها الأغبياء من لم يعرف يوم ولادته لن يعرف مستقبله "

استيقظتُ مرعوباً فوجدتُ أمي لاتزال تسردُ أخباراً وحكايات غامضةً لم أدرك كنهها عن امرأةٍ لم تتزوج لأنها تكره الرجال، عن النساء اللواتي يتسللن إلى دارها خفيةً، وعن طلاق وخراب بيوت بسبب علاقة شمعه بأولئك النسوة التي كانت أمي تسميهن (الحبايب)، تلك الليلة سمعتُ حكاية ذلك الشيء الذي تصنعه شمعه من قماش القطيفة الناعم وتحشوه بالقطن حتى ينتصب كعصا، تعطيه لمن (لا يأتي ظهرُها) كي تستخدمه وحدها أو تساعدها شمعه نفسها على استخدامه حيث تخيط له سيوراً تُشد على الفخذين والخصر عند الاستخدام.

شيءٌ من القطيفة محشوٌ بالقطن، تساعد شمعة النساء كي تأتي ظهورهن، تكره الرجال، عندها حبايب . . . . . الخ جملٌ دخلت قاموسي للمرة الأولى ولم أكُ أعي معنى لها، أو بالأحرى كنتُ في شكٍ من ذلك والذي كان يمنعني عن اليقين هو أني رأيت أمي نفسها أكثر من مرة وهي تتسلل إلى دار الجدة شمعه كي تقرأ لها فألها كما كانت تقول.

كنتُ أرى جسد شمعه يتأرجح بإطار باب دارها بينما الناس يرجمونها بالحجارة صارخين بهستيرية:

"كحبه، أم النسوان، (. . .) القديفه" .....

بينما كان حسوني المشلول يحاول أن يحول بينها وبينهم فيصاب بالحجارة، وبعد موجة الجنون التي أصابت رجال شارعنا، وقفوا مسمرين في

أماكنهم ثم راحت أعناقهم تغور في أجسادهم شيئاً فشيئاً حتى اختفتْ تماماً فراحوا يتدحرجون ككرات سود كبيرة، كنتُ ألمح بينهم أبي وهو على حالته هذي يتدحرج وقد مُسخَ قنفذاً، صرختُ به (جبان) واستيقظتُ على صوته غاضباً مرتعشاً وهو ينهر أمي وزوجة عمي كي يخرسن لئلا يسمعهن أحدٌ من الجيران محذراً إياهن من ذكر اسم تلك (العاهرة)، كنتُ أنظر إليه بنصف إغماضة فأرى عنقه وقد بدأت تغور في صدره شيئاً فشيئاً حتى تحول إلى قنفذ، كدتُ أصرخ به (جبان) إلا أن أمي سحلتني إلى الفراش.

* * *

(شمعه)

هذا هو اسمها لكنها نقيضُ اسمها تماماً فهي عتمةٌ ومتاهةٌ من الألغاز يصعب سبرها، ضياؤها حالكُ الأوهام والمتناقضات، تحرقُ مَنْ يقترب منها، كانت تجتذبنا نحن الفراشات إليها لكنها سرعان ما تحرقنا بالحيرة ونغرق في عتمة عميقة، كلما اقتربنا منها نشعر بحنوٍّ أصابعها النحيلة الطويلة على جباهنا، نقتربُ منها طمعاً بالحنان والحرية فتفتح لنا حضنها ولكن أي حضن يشبه بئراً مطمورة بالغموض، تتحدثُ معنا حول أشياء لم نسمعها من أمهاتنا، تسألنا عن أجسادنا، أحلامنا، أوهامنا وأشياء نخجل من ذكرها، تسقط المحرمات فتضاء أعماقنا وتحترق ولكنا سرعان ما نعود خائبين فهي بئر أسرار شحيحة بمائها، لا تجيب عن أسئلتنا الرامية إلى كشف المجهول أو اختراق حجب الغموض، لكنا لا نتركها فهي إلى جانب غموضها واضحة في أمور كثيرة تخصنا، نسألها عنها

فتجيبنا بصراحة تفتقر إليها أمهاتنا . مرة أمسكتْ حلمةَ صدري وفركتها فارتعبتُ واستبدتْ بي الشكوك ، أدركتْ ما دار في ذهني فانفردتْ بي هامسة:

"منعول راح تبلغ ، راح تصير رجّال"

وحينما بدتْ عليّ علامات الدهشة وأدركتْ بأني لم أعِ ما قالته راحت توضح لي بأن ظهور العقدة في ثدي الصبي علامة من علامات البلوغ الجسدي.

"جده شسمك الحقيقي؟ "

"شمعه"

هذا هو السؤال الوحيد الذي تجيب عنه في ما يخص حياتها الخاصة ولربما كانت إجابة غير صحيحة فإنها (شمعة) ولكن هناك لغزٌ مطمور تحت الشمعدان الذي يحملها .

ندعوها بـ (الجده) لا لأنها امرأة مسنةٌ فحسب بل لأننا اعتدنا أن نطلق لقب (الجده) على كل قابلة ، خاصة وأن أغلب سكان المدينة بكل أجيالهم خرجوا إلى الحياة بيديها (قبل أن تعتزل العمل في السنوات الأخيرة) . المدينةُ خرجتْ من تحت قبضتها حتى أصبح لها الحق حينما تغضب من مضايقة الجيران أو من تجاهل مار لم يلقِ إليها تحيته أن تخرج إلى الشارع مادةً يديها كاشفةً عن كفين معروقتين صارخةً بصوتها الرجولي وبلهجتها الوقحة:

"مناعيل الوالدين يا ناكرين الجميل كلكم خايطه بـ (. . . .) أمهاتكم"

فينفجر الحزين بالضحك بينما تغطي النسوة وجوههن بأيديهن مقهقهاتٍ لاعناتٍ بغنجٍ شمعه ونزقها الذي لا يتوقف عند حد.

لم أرَ في مدينتنا المحافظة امرأة تقف مع الرجال وتتحدثُ بلغتهم رافعةً صوتها محركة يديها بإشاراتٍ غير مألوفة مسمية الأعضاء الجنسية بأسمائها

الصريحة إلا شمعه ، إنها الوحيدة التي تتجرأ بسؤال العريس عن عروسه بل إنها تتبرع بتقديم النصائح للعرسان قبل العرائس ، و كانت حينما تنتهي من توليد النسوة تذهب إلى شريعة النهر لترمي مشايم الأطفال هناك وبعد أن تتمَ غسل ملابس النفساء تقف على صخرة ناتئة وترمي بنفسها سابحةً قاطعة النهر إلى الضفة الأخرى ثم تعود وملابسها تلتصق على جسدها المترهل ، لم أرَ امرأة تتجرأ على السباحة في النهر أمام أعين الرجال إلا شمعه بل كانت تراهنهم في سباق الوصول إلى الضفة الأخرى والعودة على نَفَسٍ واحد وما كان أحد منهم يتجرأ على الرهان خوفاً من عار الهزيمة أمامها ، كانتْ تغوص كاتمةً أنفاسها وقتاً طويلاً حتى تُخرج خواتم وقطع العملة المعدنية من قاع النهر.

ولكن لا أحد يعرف عن شمعة غير اسمها ، متى جاءت إلى المدينة؟ كم عمرها؟ من هم أهلها؟ لماذا لم تتزوج ؟ ، لا أحد يعرف عن ذلك شيئاً والذي يُزيد الالتباس أنها كانت تردد بأنها ليست مقطوعة من شجرة ، بل إنها تهمس للصبايا بأنها مخطوبة فيقهقهن بغنجٍ وخبث وحينما يتمادين بمزاحهن فيسألنها:

"جده ، إلمن مخطوبة وإش وكت تتزوجين؟ "

فتجيب بأسلوب لا يوحي بالمزاح:

"مخطوبه لخضر الياس ويجي يوم وياخذني على فرسه "

حدثتني أمي بأن أمها حدثتها والتي هي الأخرى كانت تجهل حلاً لألغاز الـ (شمعة) هذي بأن الجدة شمعه توقفتْ عن الكبر منذ أن شوهدتْ في (الكوت) أيام حصار المدينة فهي لم تتغير قيد شعرة ولعلها ولدت هكذا وهناك من يشك بأن للجدة شمعه يوم ميلاد كخلق الله (باختصار إنها تحرشُ الخيال بالواقع) ، تتحدث عن الحصار وعن الإنكليز والأتراك والجراد والجدري والفيضانات كما تتحدث عن حلم رأته ليلة البارحة ، ولا أحد يشكّ بقوة ذاكرتها فهي تحفظ أيام

ميلاد كل شخص قامت بتوليد أمه أكثر من الوالدين نفسيهما، قيل إن موظف دائرة النفوس المكلف بإصدار وثائق جديدة وفق إحصاء عام ١٩٥٧ قال:

"إننا نسجل اليوم الأول من شهر تموز كيوم ميلاد لجميع العراقيين ومن يريد أن يعرف يوم ميلاده الحقيقي وحتى الساعة والدقيقة فعليه أن يذهب إلى الجدة شمعه"

وفعلاً أنا نفسي غيرتُ يوم ميلادي من الأول من تموز عام ١٩٥٦ كما هو مذكور في دفتر النفوس إلى الثالث من الشهر الأخير من عام ١٩٥٥ كما أخبرتني الجدة شمعه.

* * *

طويلةُ القامة بشكلٍ غير مألوف، ضخمة الجثة، كبيرة الردفين تكاد تسد فتحة الباب حينما تقف ومازالت تتمتع بنشاط تحسدها النسوة عليه، لم تمرض في حياتها ولا تعرف الشكوى بل هي تمقتها وترفضُ سماعها من امرأة أو رجل، نظيفة الثياب ووجهها برغم التجاعيد يفيض بحنانٍ وأمومة فائقة، شعرها طويل تظهر بعض خصلاته من أسفل فوطتها، خصلاتٌ محناة، تفوح منها رائحة خاصة لا تشبه روائح النساء الأخريات فهي تعتقد بأن رائحة (الخضيرة) التي اعتادت النسوة أن يتعطرن بها تؤذي أنف الطفل وتسبب له الغثيان، إلا أن للجدة شمعه علامة مميزة صارت لغزاً من ألغازها الكثيرة فقد كانت تشد عينها اليسرى بعصابة سوداء لكني لم أسمع مرة واحدة من تجرأ ووصفها بـ (العُوره) على الرغم من سلاطة ألسنة النسوة بل كنَّ يتحاشين ذكر هذا العيب حتى في مجالسهن الخاصة وحتى لو اشتد العراك والتنابز بين أحدهن والجدة شمعه فأن الأولى تتجرأ

على ذكر العيوب الظاهرة والمستترة وباتهامها بشتى التهم بالحق أو التلفيق إلا أنها لا تتجرأ على نعتها بـ (العُوره) .

تجرأتْ صبيةٌ وسألتها بعد أن سقط الحاجز بين الجدة والصبايا المجتمعات عند دكة بابها يصغين الى النكات التي كانت ترويها لهن:

"جده إش بيها عينج؟ "

"قلعها"

"منو؟ "

صمتتْ الجدة شمعه فطفتْ على ملامح وجهها كآبةٌ مهيبة وغاصت في نفسها كأنها تبحث عن خاتمٍ في قعر النهر، صمتت الصبايا وراحت تتنقل أبصارهن بين الأرض وعين الجدة شمعه التي تسمرت نظرتها في زاوية الفراغ، ولكيلا تُظهر ضعفها أمام الصبايا ابتسمت بحنو فازدهى وجهها بإشراقة أفرحت الصبية التي سَهَتْ فتجاوزتْ بسؤالها حدود المحظور:

"مرة فات فد شاب حلو بالشارع وآني ما أدري إش صار بيّ من شفته وبالليل وآني نايمة حلمت بيه ومن فزيت شفت خطيبي دخل غرفتي ومد إصبعه بعيني وشلعها"

"ياس خضر؟ "

سألت الصبية بتغنج ونزق، فأجابتها الجدة وإصبعها ترسم دوائر مبهمة في التراب:

"لا، خضر الياس. "

لم يكن ما روته الجدة شمعه للصبايا سوى قصة من نسج خيالها أرادت بها أن تغير مجرى الحديث وتتهرب من إلحاحهن بسؤالٍ يثير الألم في نفسها فقد

روت لي أمي قصة أخرى أكثر إقناعاً، قصة تتداولها ألسنة النسوة بينهن وحازت بها على احترام ومهابة من الجميع فلا يتجرأ أحد على جرح مشاعرها حتى في أشد حالات العراك وإظهار العيوب.

في ظهيرة صيفية كنتُ أنا وأخي نلعب في الحوش حينما وصفتُ الجدة شمعه بـ (موشي دايان) خرجتْ أمي من غرفتها منفوشة الشعر كسعلاة معربدة داعية الله أن يقصف رقبتي لما نطقتُ به، ما كنتُ أفهم سبباً لارتعاشها وغضبها علي حتى راحت تسرد لي قصة أخرى تختلف تماماً عن القصة التي روتها الجدة نفسها إلى الصبايا، ففي ليلة العاشر من محرم وحينما كانت النسوة يستمعن إلى المقرئ عبد الزهرة الكعبي وهو يروي قصة استشهاد الإمام الحسين فقدتْ الجدة شمعه قدرتها على التحكم بمشاعرها لهول المصيبة فراحت دونما وعي تضرب رأسها وتخمش خديها بجنون فتدفقت الدماء من بئر عينها اليسرى وامتلأت راحة كفها بدماء غزيرة هي خليط من دماء العين المقلوعة ودماء أبي عبد الله الحسين كما رددت بعض النسوة اللواتي شهدن الواقعة، وحينما استردتْ الجدة شمعه وعيها ثانية كانت (كريمة العين) طاهرةَ القلب يشعّ من وجهها نورٌ سماوي وعلى رأسها لاحتْ هالةٌ ضوئية بحجم صينية الشاي كما تقول أمي وهي تقسم بأغلظ الأيمان.

ولكن ....

لم تنته قصةُ العين عند هذين التأويلين فهناك قصة ثالثة لا يعرفها إلا الصفوة من النساء يتداولنها بسرية تامة، ففي مساء اليوم الذي تمّ فيه اعتقال الجدة شمعه وحينما كنتُ راقداً على فخذ أمي وهي تسرد لزوجة عمي ما عرفته من سيرة حياة هذه المرأة الطاعنة في السر التي تكره الرجال وتساعد النساء اللواتي (لا تأتي ظهورُهن) استمعْتُ إلى قصة غريبة أثارت الرعب في نفسي وكنتُ أرى

الدموع تنساب على خدي أمي وهي تروي القصة بتمثيلٍ متقن متقمصةً شخصية الجدة شمعه ولسانها:

(طُرِقَ البابُ في منتصف ليلة حالكة السواد طرقات سريعة توحي بخوف الطارق وقد كنتُ قد اعتدتُ الزائرين بمثل هـٰذا الوقت بحكم مهنتي كقابلة نهضتُ شاكرة الله على الرزق القادم لي كانت تقفُ عند الباب سيارة لم أر لونها لشدة الظلام وقد ترجل منها رجلٌ رأيته من فرجة الباب كان يرتدي عقالاً وعباءة سوداء لاح لي على حوافها تطريزٌ بالكلبدون، طلب مني راجياً أن أذهب معه حيث زوجته فاجأها المخاض وقد كنتُ قد هيأتُ نفسي لهذه المهمة، جلستُ في المقعد الخلفي بينما جلس هو جنب السائق الذي لم أتبين له ملامحَ واضحةً وانطلقت السيارةُ إلى حيث لا أدري، كانت السيارة تجتاز غابات كثيفةَ الأشجار وشوارعَ لم أرها طوال حياتي في هذه المدينة التي خبرت أزقتها وبيوتها واحداً واحداً، استبدّ بي قلقٌ لكني استعذتُ بالرحمن من سوء الظن فماذا يبغي رجلٌ من امرأة عجوز مثلي توقفت السيارة عند موضع لم أره من قبل وقد ترجل منها الرجل الجالس في المقعد الأمامي فتح لي الباب ومد يده لمساعدتي في الخروج كان الخيط الأبيض قد ظهر في السماء فاستطعتُ أن أستجلي المكان كانت مفازةً مترامية الأطراف خالية من بيوت أو خيام لبدو، أشار الرجلُ بيده نحو الطريق فسرنا باتجاه الأفق نخوض بالرمال ونتعثر بالأشواك والعاقول التفتُّ إلى حيث وقفت السيارة فرأيتها وقد تحولتْ إلى شعلة من نار تصاعدتْ إلى السماء فعرفتُ بأن الأمر غريب توكلتُ على الله رددتُ مع نفسي آية الكرسي وسورة (قل أعوذ برب الناس . . .) لطرد الخوف الذي استبد بي وسرتُ خلف الرجل الذي راحت قامته تغوصُ في الأرض شيئاً فشيئاً فركتُ عيني لأطرد النعاس الذي لايزال عالقاً بهما وقعتْ نظرةٌ مني إلى قدميّ فرأيتهما غائصتين في الأرض وقبل أن أصرخ أو أستغيث رأيتُ قامتي وقد غاصتْ كلها في الأرض ندتْ مني صرخةٌ مكتومة ولكن دون جدوى فهناك تحت الأرض وجدتُ

الذي وجدت . . . سريراً ذهبياً رقدتْ عليه امرأة شابة مثل ملاك بوجه نوراني وعينين واسعتين يشعّ منهما ضياء ذهبي ابتسمتْ لي ودعتني إلى الجلوس جنبها على السرير أخذتُ يدها لأقبلها فرفضتْ ساحبة يدها مرددة " استغفر الله . . استغفر الله " أزاحتْ الغطاء عنها وأفرجتْ ساقيها فمددتُ يدي إلى ما بين فخذيها كانت تحدق إلي بصمت وكبرياء تبتسم لي كأنها لم تشكُ من ألم أو خوف أخرجتُ الوليد وكان ذكراً دون أنْ أسمع صرخةً منها أو منه مسكتهُ من رجليه قلبتُ رأسه إلى الأسفل طبطبتُ على ظهره ونفختُ في فمه قطعتُ حبلَ سرّته غسلتُ جسده بطست ذهبي وعطرته بعطر لم أشم رائحته من قبل، كحلتُ عينيه بمكحلة ذهبية كانت على طاولة صغيرة إلى يسار السرير . . . . كان الوليدُ يحدق إلي بعينين يطفح منهما فرحٌ وامتنان وابتسامة مرسومة على شفتيه الصغيرتين، تَيَقَنَ بي الشكُّ فقدحتْ في ذهني فكرة لا أدري كيف خطرتْ لي في تلك اللحظة بأن أضع علامةً تؤكد لي في ما بعد إن كان ما أراه الآن حلماً أم حقيقة فبينما كانت الأم مشغولة بوليدها وكان الرجل خارج الغرفة (لا أدري إن كان المكان غرفة أم مكان في اللامكان) أغمستُ المرودَ في المكحلة ومررتهُ على رمش عيني اليسرى وقفتُ عند رأس الأم مفتعلةً الجرأة والثبات حاولتُ مرة أخرى أن أقبّل يدها إلا أنها رفضتْ بإصرار ربطتُ عقدة صرتي وحملتها ثم سرتُ خلف الرجل الذي سار أمامي دون أن يتفوه بكلمة وقد طُمستْ معالمُ وجهه فلم أعد أتذكره ولم أتذكر كيف خرجنا من تحت الأرض سرناً بضع خطوات في الطريق الذي جئنا منه كان على الأفق يلوح قوسٌ نحيل من دائرة الشمس . . . بضع خطوات لا أكثر ووجدتُني أقف عند باب بيتي).

توقفتْ أمي كي تسترد أنفاسها وتمسحَ الدموع التي هطلت بغزارة على خديها فبادرتها زوجةُ عمي بسؤال مَنْ أربكه اختلال ميزان الواقع:

"يجوز هذا حلم !؟"

"لا، لا"

قالت أمي بإصرار وأردفتْ:

"احنه هم كلنا لها خاف هذا حلم جده شمعه لكنها راوتنه الفلوس اللي اعطاها ياه الرجّال، فلوس غريبه يمكنها من ذهب"

"وشنو علاقة هاي القصة بعين شمعه؟"

سألت زوجة عمي بفضول، تحركتْ أمي متململةً من ثقل رأسي، أزاحته قليلاً عن فخذها فافتعلتُ الخمود كي أسمع بقية القصة، تنحنحتْ أمي مزيلة العَبرة التي تكسرتْ في صدرها وراحت تكمل القصة لا بطريقة الراوي بل على لسان شمعه نفسها وكأن أمي أحستْ بنشوة التقمص ولذة الأنا فراحت تسرد القصة بهذه الطريقة:

(قبل سبع سنوات وفي ليلة العاشر من محرم كنتُ أجلس في حلقة النساء اللواتي كن يستمعن إلى المقرئ عبد الزهره الكعبي وهو يسرد قصة مقتل الإمام الحسين سلام الله عليه كنتُ أغطّي وجهي بطرف عباءتي كما فعلت الأخريات وأتابع أحداث القصة كما يرويها المقرئ وبين حين وآخر كنت أزيح طرف العباءة عن وجهي كي أمسح دموعي أو أتمخط أو أغيّر جلستي نحو اليمين أو الشمال، فجأة انتبهتُ إلى أن شيئاً غريباً قد تشخصَ أمامي فما أن غيّرتُ جلستي نحو جهة اليمين حتى رأيتها تحدق إلي بعينيها الواسعتين، هي بعينها وقد أسفرتْ عن كامل وجهها)

"منو هي؟"

سألت زوجة عمي ببلادة، فراحت أمي تتحدث كصوفي في لحظة إشراق:

(إنها المرأة التي تقيمُ تحت الأرض والتي قمتُ بتوليدها في تلك الليلة كانت تحدق إلي بغضب لا أعرف له سبباً ابتسمتُ لها وهممتُ بالنهوض إليها إلا أنها نهرتني بعين غاضبة فعدتُ إلى مكاني جالسة غيّرتُ جلستي نحو جهة الشمال وتطلعتُ إليها اختفتْ تلمستُ جسدي وفركتُ عيني لعلّي قد غفوتُ لكن القلق راح يقرصني

فغيرتُ جلستي نحو جهة اليمين ثانيةً وتطلعتُ إلى الأمام ارتسمتْ صورتها أمامي واضحة بعينيها الواسعتين ووجهها النوراني المشع وقد بدا عليه الغضب فتحول النور فيه إلى نار تنفث شرراً يخترق عيني أدركتْ ما أنا فيه فحركتْ رأسها رامشةً كي توحي لي بأنها جسدُ حي وليست صورة أو تمثالاً جامداً تشخصَ أمامها يا إلهي ما العمل أردتُ أن أصرخ لأفضح أمرها إلا أني تأملتُ منها خيراً فأردتُ حيازته وحدي غيّرتُ جلستي نحو الشمال، اختفتْ عدتُ إلى ما كنتُ عليه فرأيتها لاتزال صامتةً تحدق إلي بغضب وهكذا صرتُ كلما إغمض عيني اليسرى تختفي وكلما فتحتها رأيتها تحدق إلي بنظرات تنخرني، استجمعتُ شجاعتي ورحتُ أحدق إليها أبتسمُ لها تارة وتارةً أخرى أركز نظرتي إليها بعين صارمة وليكن ما يكون، نهضتْ ببطء باتجاهي انحنتْ علي فمددتُ لها يدي مرحبةً إلا أنها مسكتْ بيدها اليسرى رأسي دافعةً إياه إلى الوراء قليلاً غارزة سبّابتها اليمنى في عيني اليسرى فانفجر الدمُ من عيني حاولتُ مسكها فتسربتْ من بين يدي ولم أعد أرى شيئاً صرختُ بصوت عال فتعالى صراخ النسوة لصراخي ظناً منهن بأني أصرخ لمقتل أبي عبد الله الحسين سلام الله عليه)

همتْ زوجة عمي بأن تقول شيئاً إلا أن أبي اقتحم الغرفة غاضباً مرتعشاً وراح ينهرهن محذرهن من ذكر اسم تلك (العاهره).

* * *

في مساء كل يوم كان الشارع يتحول إلى مقاه للنسوة يفترشن حصران الخوص ويتجمعن أمام بيت إحداهن يشربن الشاي ويتناقلن أخبار الشارع السرية، فلان خطب فلانة، فلانة عشيقة فلان، تلك خانت زوجها مع فلان بينما أصوات مضغهن اللباد تتصاعد بإيقاع بذيء. في تلك الأيام بدأتُ أشعر بدبيب يسري في جسدي فصرتُ أشعر بالمتعة وأنا أصغي إلى حديث النساء اللواتي كنّ

ينظرن إلي كصبي فألتقطُ من أحاديثهن جملاً أستعيدها في الليل أو في ساعات الظهر حينما كنتُ أنفردُ بجسدي. أستطيع أن أقول بأني تشيطنتُ قبل نضوجي الجسدي بثلاث سنوات حيث أن محمد أخي الذي يكبرني بثلاث سنوات كان يقص علي ما طرأ على جسده من تغيرات، كنا نتسلق سطوح الجيران المتلاصقة مع بعضها نطير رف الحمام وهناك نثبتُ كاميرات أنظارنا على أجساد الفتيات اللواتي يتأخرن في النوم على السطوح في صباحات الصيف فحفظنا ألوان الملابس الداخلية لكل فتاة في الشارع وكم مرة جاءني محمد هامساً ليريني كيف تمارس فلانة العادة السرية أو كيف يمارس فلان الجنس مع زوجته، فتحنا ثقوباً في الآجر وفي خشب الباب للتلصص فحشونا ذاكرتنا بأخبار النساء بل إن أخي كان يعرف متى تأتي الدورة الشهرية لكل منهن ويستطيع تمييز العلامات السرية للأزواج أو العشاق، وفي الوقت الذي كان فيه محمد يتمتع برؤية الأجساد أو بإقامة علاقات عاطفية غير بريئة مع مراهقات يبعث إليهن رسائل ويلتقيهن بعيداً عن الأنظار يهتم بمنظره ويتأنق، يحفظ الأغنيات العاطفية ويرددها بحرقة عاشق ولهان، كنتُ أنا أتلذذ بجمعِ الأخبار وأفخرُ بما لدي من سعة إطلاع على خفايا الشارع وكم هالني حين تيقنتُ بأن أغلب نساء الشارع المتزوجات يخنّ أزواجهن في وضح النهار وكنت أعرف كيف ومتى يتسلل العشيق إلى دار عشيقته وكنتُ أنقل ذلك لأهلي حتى أنه حينما نشبت معركة بين بيتنا وبيت نديم السائق بسبب رمي الماء الوسخ في الشارع وانحازتْ أكثر العائلات إلى جانب الطرف الآخر خرجت أمي راعدةً مزبدة وهي تردد عبارة لاتزال ترن في أذني:

"الهايشه الخفّاكه تريد رفّاكه"

وكانت تعني بأن البقرة التي تخفق من شدة الشبق وتصرخ طالبة الفحل في أوقات التسافد تريد من الأبقار الأخرى أن يشاركنها الصراخ.

على الجانب الأيمن من بيتنا كان بيت عبود الكصاب وكان قد قسمهُ إلى نصفين، النصف الأمامي جعله مسكناً له ولزوجته ولبناته الثلاث أما النصف الخلفي فكان زريبة تحوي عدداً كبيراً من الأبقار والثيران، كان رجلاً داعراً يجلس هو وزوجته ظهراً في الزريبة ويتحدثان حديثاً جنسياً عن الأبقار والثيران. مرة همسَ لي محمد أن أتبعه إلى سطح البيت كان الوقت ظهراً والشمس تسقط أشعتها عمودياً فيغلي الحجرُ رحنا نسترقُ السمع إليهما واضعين آذاننا لصق حائط السياج الذي يفصل بين سطحي البيتين، كانا يتحدثان بكلام جنسي مسمين الأعضاء بأسمائها الصريحة بعد ذلك ساد صمتٌ، أردتُ النهوض الا أن محمد أوقفني بحركة من يده تشير إلى الانتظار، لحظات ثم سمعنا صوت لهاثه وشخيره مختلطاً بتنهدات وتأوهات زوجته، رفعنا رأسينا بحذر شديد ورحنا نشاهد الفيلم بوضوحٍ وواقعية، استمر عرضه أكثر من نصف ساعة كانت رؤوسنا تلتهب من حرارة الشمس الصيفية، وقتذاك عرفتُ بأن العملية الجنسية ليست عملية واحدة بل هي عمليات وأوضاع مختلفة. كان عبود الكصاب قد حوّل الزريبة الى صف مدرسي يعلّم فيه بناته أبجدية التسافد فكنّ يمسكن برأس البقرة بحسد واضح بينما هو يدفع متلمظاً بمؤخرة الثور رافعاً صوته بكلامٍ سوقي، كلامٍ مَنْ لا يعرف أن في اللغة كلمة (العفّة)، وقد كان محمد لهم بالمرصاد فهو إن علم بأن عبود الكصاب لم يعد اليوم من عمله فهذا يعني أن فيلماً من نوع آخر سيعرض هذه الظهيرة فيظل يترصد حركة البنات حتى يصطاد إحداهن تمارس العادة السرية في الزريبة عندها يرفع رأسه بجرأة ويحاول أن يلفت إليه الأنظار ليعلن لها جهاراً ضبطها متلبسة بالجرم المشهود.

عصر يوم من أيام أيار عام ١٩٦٩ وبينما كانت النسوة يشكلن حلقات للنميمة وتناقل الأخبار والفضائح تختلط أصواتهن بإيقاع مضغهن اللبادِ

بشكل يثير الجسد الذي انفجرتْ خلاياه بشهوة عارمة وبينما كنتُ أصغي بفضول إلى أحاديثهن وأسترق النظر إلى (أميرة) وهي تغسل الممر الحجري وقد تدلتْ من غصنها برتقالتين ناضجتين، دخلتْ الشارع سيارة فولكس واكن (بطيخة) بيضاء تبعتها سيارة شرطة، توقفت النسوة عن الثرثرة ناهضات لمعرفة الأمر، سارت السيارتان حتى منتصف الشارع فخفتُ غير أنهما توقفتا عند باب الجدة شمعه، ترجلَ رجلٌ متوسط القامة بدينٌ عبوسُ الوجه وذو شارب كث تدلى إلى مستوى فكه السفلي وغطى فتحة فمه يلوح مسدسٌ عند محزمه تحت القميص تبعه رجلا شرطة آخران وكانا مسلحين برشاشتين قصيرتين، تقدم الرجل الأول وكان بزيٍّ مدني وضغط بإصبعه زرَّ الجرس وابتعد قليلاً عن الباب بينما تجمع حشدٌ من رجال ونساء الشارع وآخرون جاءوا من شوارع الحي الأخرى وعلى وجوههم علامات التعجب والفضول لمعرفة أمر هذا الاقتحام المفاجئ، حذرين من التساؤل أو الاقتراب من رجال الشرطة.

على الرغم من غموض التهمة الموجهة إلى الجدة شمعه إلا أنه كان بالإمكان التكهن بها من خلال طراز السيارة فقد كانت سيارة الفولكس واكن (البطيخة) تشير على أنها سيارة تابعة إلى مديرية الأمن، إذن لم تكن الجدة متهمة بجريمة قتل أو سرقة بل بالإمكان حصر التخمين بقضايا سياسية وقد كان الناسُ في المدينة وقتذاك مشغولين بأمرين هما قضية شبكات التجسس الإسرائيلية وانتكاسة حركة الكفاح المسلح الشيوعية في الأهوار الجنوبية التي تمثلت بظهور قائدها (عزيز الحاج) على شاشة التلفزيون قبل شهر واحد ليعلن عن (سقوطه) كما كان يرددُ الكثير من الرجال في ذلك الوقت، وقد كان الرعب مخيماً على أجواء المدينة بسبب المداهمات المتكررة للبيوت والاعتقالات التي كان يقوم بها رجال الأمن لشبابٍ كانوا يشكّلون رموزاً للشجاعة ونبل الأخلاق وهذا ما كان يجعل من

إعتقال أحد من أعضاء هذه الحركة مدار حديث وقصة تتداولها الألسن بكلام يتطاير منه شررٌ يُضرم في هشيم الشارع الغافي، وقد كنتُ أصغي إلى تلك القصص التي تُروى عن صمود فلان الذي كنتُ أراه كل يوم وهو يسير في الشارع متأبطاً كتاباً أو جريدة ولم أكن أتوقع أن هذا الفلان تخافهُ الحكومة أو أنه قد اختار السير في الطريق إلى المشنقة بمحض إرادته، وحينما أنفرد بنفسي كنتُ أعيد صياغة هذه القصص بخوف وزهو، وقد كانت مدينتنا (الكوت) معروفة آنذاك بدعمها لهذه الحركة، وهذا ما جعل الناس لا ينظرون إلى ما سيجري للجدة شمعه بريبة مخجلة بل بريبة مبطنة بالاحترام فقد كانوا على الرغم من جبنهم وأنانيتهم المقيتة والتي لن يخجلوا من التصريح بها بأمثال وحكم تدعم حججهم كـ (كل لشه تتعلك من كراعها) أو (الياخذ أمي أسميه عمي) متهمين من يتجرأ على البوح بما لا يستطيعون البوح به بأنه متهورٌ يتحمل وحده مسؤولية إلقاء نفسه في التهلكة وفي مثل هذه المواقف المحرجة لهم أمام أنفسهم يتحول السكيرُ والسافلُ والمنحط إلى ورعٍ يستغفر الله ويردد بصوت مسموع (ولا تزر وازرةٌ وزرَ أخرى ـ صدق الله العلي العظيم)، أقول على الرغم من ذلك فأنهم كانوا يكنّون في أنفسهم الاحترامَ والهيبة لمَنْ يرفض ويتحدى نيابة عنهم فقد كانوا على قناعة تامة بأن أيادي خبيثة تعبث في مجرى حياتهم اليومية، وحدها تدبر لهم سياقَ حركتهم على مضمار مرسوم بدهاء وبدناءة تطال أقدس المقدسات، لذا فأنهم قد أدركوا تماماً بأن شيئاً مهولاً سيحدث هذه الساعة، رؤوس أطلتْ من ستائر السطوح والنوافذ، قلوبٌ وجفتْ وعيون كانت تتقادحُ مشدودةً إلى سيارتي الشرطة ودار شمعه، حاول بعض الرجال التقرب من رجلي الشرطة بتردد وخوف إلا أنهم سرعان ما تقهقروا منسحبين إلى الوراء على أثر النظرات الغاضبة التي لاحت لهم من عيون الشرطيين. ضغط رجل الأمن على زر الجرس ثانيةً بينما كان

الآخران متأهبين لاقتحام دار الجدة شمعه ، فُتح الباب وأطلتْ بقامتها الطويلة وجسدها الضخم ، وقفتْ برباطة جأش كأنها بانتظار هذه اللحظة ، توقف الزمن ، توقف دبيب الأشياء ، وحدها دقات القلوب كانت تُسمع بوضوح ، فجأة انهار الصمت متحولاً إلى همسات خائفة ثم ضحك مكتوم ليتحول أخيراً إلى قهقهات صاخبة انفجرت من أفواه المتجمهرين بغفلة من خوفهم وحيطتهم ، حتى رجلا الشرطة اللذان تجمدا كتمثالين حجريين لم يستطيعا كتمان ضحكهما حينما رفعت الجدة شمعه كفها وبسبابة وإبهام مسكتْ طرفَ شارب رجل الأمن ، تسمّر الجميع في أماكنهم منذهلين ومترقبين ردة فعل الرجل على هذه الإهانة غير المتوقعة ، لم يدم الصمتُ طويلاً حتى ألقتْ الجدة شمعة قذيفتها المدوية في الشارع الأخرس حينما توجهتْ إلى الحشد الغفير المتجمع في الشارع وهي تمسك شارب الرجل صارخةً بسخرية لاذعة:

"مواليد ثمانية شباط ٦٣"

لم يجد الضابطُ بُداً من أن يهز كرشه مفتعلاً الضحك كي يداري تلعثمه ويبتلع لقمة الإهانة المرة ، لم تكتف الجدة بتوجيه الإهانة إلى رجل الأمن فتوجهتْ إلى رجلي الشرطة وبصوت مسموع سألتهما:

"منو منكم حبلان؟ "

وقبل أن تضيف إلى جملتها كلمةً أخرى فاجأتها كفّ سقطتْ على هامتها وذراع أحاطتها لترمي بها إلى جوف السيارة منطلقة بها إلى مكان تجهلهُ علاماتُ الإشارة.

ملاحظـة:

لا أدري إن كنتُ فعلاً قد سمعتُ الجدة شمعه ترددُ عبارة (أيها الأغبياء مَنْ لم يعرف يوم ولادته لن يعرف مستقبله) أم إن هذه العبارة من وحي مخيلتي، وربما قد تسللت إلى ذاكرتي من الحلم الذي رأيته تلك الليلة.

* * *

في اليوم التالي وقبل أن يرن جرس الدرس الأول كان الطلاب يتجمعون مكونين حلقات صغيرة سرعان ما تكبر وتكبر بانضمام الحلقات الأخرى، كان الحديث يعاد ويتكرر ليروي كل طالب كيف أنه رأى مشهد اعتقال الجدة شمعه وربما يضيف أحدهم أشياء لم تحدث وإنما أوحتها إليه مخيلته، أخبرنا أحدهم بأن أباه حينما عاد إلى البيت بعد أن اختطفت سيارة الشرطة الجدة شمعه توجه إلى المرحاض ومكث هناك وقتاً طويلاً، أيّده أغلب الطلاب وراح كل منهم يصف حال أبيه حينما عاد إلى البيت بعد أن غادرتْ سيارتا الشرطة المكان، لكن لا أحد كان يتجرأ على نقل ما تفوه به أبوه حول علاقة الجدة شمعه بشبكة التجسس الإسرائيلية وكنتُ أحسبهم جميعاً قد سمعوا من آبائهم الجملة نفسها التي ذكرها أبي أمس. دخلنا غرفة الدرس فوجدنا الأستاذ وقد سبقنا على غير عادته. كان الأستاذ عطا مدرس الرياضيات أهبلَ لفرط ذكائه، رجلاً يتسمُ بالفوضى والرعونة، قبيح الوجه، أفطس الأنف وأصلع الرأس، شاربه الكث يغطي شفته المتورمة أما شفته السفلى فهي هاطلة تصل أسفل ذقنه كاشفة عن أسنان صفر، كرشهُ هاطل على محزمه يثير سخريتنا وغالباً ما ينسى فتحة بنطاله مفتوحة فتخرج تكتهُ في بعض الأحيان ولا يشعر بذلك حيث أن كرشه كان يحجب رؤيتها، يدخل

غرفة الدرس عادة وهو يحكّ مؤخرةَ رأسه ليلقي على أسماعنا مسألة رياضية يبدأ بحلّها على السبورة ثم يمسحها دون أن ينتظرنا نكتبها أو يسألنا فيما إذا كنا قد فهمنا شيئاً أم لا ، كان يردد دائماً " أنتم أصفارٌ على الشمال " ولم يكف عن ترديد هذه الجملة حتى انبرى له جاسم علي يوماً ليصرخ بوجهه " وأنت كذلك " عندها ازدردَ الجملة مفتعلاً الصمم فأثار سخريتنا وإعجابنا بجاسم . اليوم على غير عادته حضرَ غرفة الدرس قبلنا وبعد أن جلس كل منا على مقعده راح يبتسم ابتسامات عريضة أثارت ضحكنا فضحك لضحكنا محركاً كرشه بحركات توهم بالشقة ، وبدلاً من أن يلقي على أسماعنا مسألة رياضية كما اعتاد تلوى باحثاً عن منفذ يدخل منه إلى موضوع لا أحسب أن الأستاذ عطا قد شغل نفسه به ، وبشكل يفضح الارتباك ووهن الشخصية كسرَ حاجزَ السكوت بحديث بائخ تقطعه قهقهات مقحمة يدركها كل منا ، تحدث عن الوطن وحكومة الثورة والحزب القائد والمؤامرات الأجنبية التي تحاك ضد الوطن والثورة ثم بدأ حديثه عن الجواسيس الذين كان يطلق عليهم اسم (جماعة عزرا ناجي زلخه) وما أن سمع عبد الحسين ابن خلف الشرطي الجالس في المقعد الأخير لصق الجدار الخلفي والذي نصبته إدارة المدرسة رقيباً على الصف ، الاسمَ حتى نهض دونما استئذان قائلاً بأن أباه قد أخبرهم أمس (بأن لشمعتن علاقتن بجماعة عزرا ناجي زلخه) ، كررَ العبارة مشدداً على التنوين وبالطريقة نفسها التي كان أبي أمس يرددها.

وهكذا كأن شيئاً فرضَ على الناس أن تغير اليوم طباعها فتحول درس الرياضيات وقواعد اللغة العربية والعلوم الطبيعية وحتى درس الدين والتهذيب إلى مساومات مبهمة وألغاز تدور في فراغ . عدتُ إلى البيت ظهراً كان الشارع أخرس ، الأبواب مغلقة والرجال يأتون ويذهبون قاصدين في مشيهم حائين خطاهم كأنهم مطاردون ، في البيت وجدتُ أمي جالسة تروي لأخواتي قصصاً

عن الجدة شمعه ، صمتتْ حين دخلتُ فضحكتُ بخبث حيث خطرتْ في ذهني حكاية ذلك الشيء الذي تصنعهُ الجدة شمعه لتساعد بهِ النسوة اللواتي لا تأتي ظهورُهن . في المساء كان الشارع خالياً من حلقات النساء ، كانت رائحة الشك تزكم الشارع بناسه وبيوته وتخترق حتى أسرار عشاقه لتحيلها إلى تفاصيل غامضة ، وحده الخوف كان يقطع الشارع جيئةً وذهاباً كنتُ أتخيله طويلَ القامة ، أحمقَ النظرات يتركُ في النفوس خلجاتٍ مبهمة النوايا.

أسبوع مر حتى تجرأ بعض النسوة على الجلوس في الشارع ، في البدء كانت تجلس إحداهن وحيدة على دكة بابها تتجنب الحديث مع الأخريات ثم شيئاً فشيئاً بدأتْ الحلقاتُ تكتمل ؟ أسبوع مر لم أستطعْ خلاله أن أضيف إلى معلوماتي السرية وأخبار العشاق والخيانات أية معلومة جديدة ولم أستطع التقاط جملة واحدةتُثير جسدي . عبارة واحدة ظل حسوني المشلول يرددها بعد اعتقالِ الجدة شمعه ثم سرعان ما نسيها أو خاب ظنه:

(ثلاثة أشياء لا تختفي من هذه المدينة ، السدة والسجن والجدة شمعه)

* * *

للإشاعة قانونٌ خاص لخصتهُ العامةُ بحكمة استخلصتها من التجارب اليومية أو بالأحرى من تجارب حكمائها ، فهم يقولونَ (ما من دخان بدون نار) ويعنون بذلك أن الإشاعة لا تُخلق من العدم بل هي حدثٌ صغير أو كلمة عابرة يتم نقلها من شخصٍ إلى آخر مع إضافات وتزويق تتطلبهما طريقة القص والتشويق فتتحول تلك الكلمة أو ذاك الحدث إلى روايةٍ عبر التوالي والاتساع كما الدوائر المائية الناتجة عن رمي حجر صغير في بركة ، وتتلاشى حينما تظهر إشاعة أخرى تسرق الانتباه والألسن عندها ينتهي وقع الأولى ، فالإشاعة إذن كالمادة لا

تَفنى ولا تخلق من عدم، وعلى الرغم من أن سكان هذه المدينة فخذٌ من سلالة اشتهرت بالعنعنة التي هي قوام الإشاعة وهيكلها، إلا أن الناس في هذه المدينة ـ وكما ذكرتُ سابقاً ـ يناقضون أنفسهم ويخشون المنطق فللإشاعة هنا قاعدة شاذة فهي موجودة في الهواء كذبذبات تلتقطها راداراتُ الناس أو كغازات يستنشقونها في لحظة واحدة فيتناقلونها بينهم لا لكي يضيفوا إليها شيئاً جديداً بل ليذكر أحدهم الآخر، وهكذا فهم يحلمون حلماً واحداً في الليلة نفسها ويتوهمون وهماً واحداً في الوقت نفسه، وهذا ما سهّل على رجال السلطة اصطياد الإشاعة أو نشرها حسب مقتضى الحال أو ما تتطلبه الظروف السياسية في البلد، فعندما يراد نشر إشاعة ما يتم الإيحاء بها بالهمس أو بنشر مكوناتها الغازية على حبل الظنون وما على الناس سوى تركيب الأجزاء المتنافرة في هواء المدينة وضمها إلى بعضها في مخيلاتهم المتشابهة لتكون حكاية محبوكة جاهزة للتداول، أما إذا أرادت السلطة خنق إشاعة مغرضة أو استنفدتْ مفعولها فأنها تأخذ شخصاً واحداً من الشارع وعلى طريقة (حي الله) يتم شنقه أو إخفاؤه أو إلغاؤه عندئذ تختنقُ الإشاعة لتولد أخرى علامتها (أهرب سعد فقد هلك سعيد) وللناس غرائزٌ منتصبة ككمين منتعظ للإشاعات. وقد ساعد ذلك الوضع على دفع الناس إلى تصديق كل ما يُطَرح على ساحة الانتباه، فلو قيل إن رجلاً عثرَ على رأسه بين الزحام أو إن رجلاً أكلتهُ جثتُهُ فسيصدق الناس ذلك وبشكل يبدو وكأن الأمرَ بديهية وهذا ما جعل الناس يصدّقون بأن شمعه امرأةٌ تجاوزتْ الزمن، فالناس بعد تورطهم بتلك الأعباء القاسية أصبح من العسير إقناعهم بالعودة إلى المجرى الطبيعي لكونهم ومنذ نعومة أقدارهم اعتادوا تصديقَ وتكذيب عموم المزاعم في وقت واحد وإن شحتْ مخيلتهم عن ابتداع وهم يعلقون عليه رؤوسهم قبل أن يناموا فستوزع السلطة عليهم أوهاماً يزرقون بها دون أن يعوا أو يشعروا بوخزِ الإبر

أو وخزة الضمير، حتى نخبة الناس لم تكن أعلى مستوى من العامة فهي عاجزة عن كشف ما خُبئَ لها، بل إنها ساهمت في طمس معالم الطريق بركلِ جميع الصوى أو مغافلة الطريق واستبدال الصوى الحقيقية بأخرى مزيفة لا تشير إلا إلى الهاوية، وهكذا فعلت السلطة فعلتها، فبعد أن أهّلت الناس على قتل أنفسهم بأيديهم أعطتهم مفاتيح السلوى وكلمات العزاء مطبطبة على الأكتاف التي لم تبخل بغبار الطاعة، وهكذا تكون الأعصابُ باردة حينما يلقي الرأس عنه صداعَ الضمير ويكون وجهُ الحزن الهادئ أهون عليهم من نظرات السعادة المنفعلة أو المدافعة عن سرّ سعادتها فلربما ممرٌ مضاءٌ مغرٍ يفضي إلى هلاك الغافل و (يا غافلين إلكم الله) كما يردد الناس:

بعد أسبوع أو أكثر بقليل عادت الحياة في الشارع إلى مجراها الطبيعي كما يظهر للعيان، الرجال يذهبون إلى أعمالهم ويعودون إلى بيوتهم متحاشين النظر إلى دار الجدة شمعه ملقين إلى بعضهم تحيات مقتضبة، عادت النسوة إلى مجالسهن وأحاديثهن عن البيوت وما تخبئ من أسرار، عن الشكل النموذجي للرجل والحياة الزوجية لفلانة وفلان وقد كانت جلساتهن تستمر حتى ساعة متأخرة من الليل بسبب طقس حزيران الساخن. تركَ محمد عادة التلصص على بيت عبود الكصاب، كنتُ أحسبه مشغولاً مثلي بالتحضير للامتحان النهائي غير أنه لم يكن كذلك فقد أخبرني بأن هناك سراً لا يفهمه، فقد انقطع عبود عن مضاجعة زوجته في الزريبة ومنعَ بناته من الخروج من البيت وحينما سألته عن احتمال اكتشافهم أمرنا راح ينفي ذلك بثقة، أخبرني بأن هناك أمراً خطيراً وغامضاً يلفّ بيتهم وفعلاً بدأتْ تظهر علامات مريبة فقد باعَ عبود أبقاره وأجرى تعديلات في الزريبة وظهرت إشاعة بين النساء تقول بأنه قرر أن يبيع بيته ويطلّق زوجته وربما سينتقل هو وبناته إلى بغداد. خُسفَ القمر تاركاً دائرةً حمراء مخيفة على وجه

السماء واستمر اختفاؤه حتى فجر اليوم التالي فتوجس البعض فألاً سيئاً تأتي به الأيام القادمة. كانتْ ليلة خسوف القمر فرصةً لالتقاء الرجال في الشارع فراحوا يتحدثون عمّا يخبئ الغيب لهم، تحدثوا عن الاعتقالات التي تقوم بها السلطة للشيوعيين من جماعة عزيز الحاج (كان هذا الاسم يترددُ كثيراً على أفواه الناس وبسريةٍ غريبة ولم أكن أعي وقتذاك لماذا ينقسم الناس إلى فريقين كلما ذُكر هذا الاسم، فريق يتهمهُ بالخيانة وفريق يدافع عنه ويتحدث عمّا لاقاه من تعذيب على يد ناظم كزار فكان مجبراً على الظهور على شاشة التلفزيون) وعن إعدام الجواسيس وملاحقة آخرين مشتبه بهم. كانت وجوه الرجال مكفهرةً وهي تفتعل الجد والحرص على مصلحة الوطن ولا تخلو همساتهم من تشكك مضمر بمزاعم ونوايا السلطة فتنتقل أبصارهم بين الأرض والقمر المخسوفِ. تجرأ أحدهم متشككاً بأمر الجواسيس عارضهُ آخرُ متحمساً لإعدامهم وإعدامِ جميع الخونة بينما قال ثالثٌ رأياً توفيقياً بين الرأيين معلناً عن وجود بعض الأبرياء بينهم، وحينما بلغ الحديث بهم إلى منطقة الخلاف راح البعض منهم يتثاءب مفتعلاً النعاس فانفرطت حلقاتهم مودعين بعضهم بودٍّ كاذب. لم يرد في حديثهم اسم الجدة شمعه وإن كانت بعض الأصوات تهمس مصوبة إشاراتٍ غامضة إلى حيث دارها.

كاد النسيان أو الخوف من التذكر أن يطوي صفحة الجدة شمعه من كتاب الشارع تماماً لولا انفجار لغم الإشاعات ثانية، فذات صباح استيقظتُ على حديث يدور بين أمي وزوجة عمي التي جاءت بخبر شنّفتْ له أمي آذانها ثم مالبث أن انتشر حتى صار مركزَ حديث النسوة في جلساتهن المسائية وانقسم الرجال بين مؤكد وساخر. الخبر ـ الإشاعة يقول بأن دار الجدة شمعه تُضاء كل ليلة منذ اعتقالها وحتى الليلة الفائتة بمصابيح النيون البيض ويمتد الضياء من النوافذ

باتجاه السماء مكوناً هالةً كبيرة تحجبُ رؤية القمر، ولم يتجرأ أحد على نفي الخبر في اليوم التالي على الرغم من أن بعضهم بقي ساهراً حتى الصباح ليتحققَ من الأمر بل راح البعض يؤكدُ ذلك، وبهذا الخبر عادتْ إلى الشارع شهيته لاجترار الإشاعات فراحت كل امرأة تجرب موهبتها باجتراحِ الأخبار. قالت امرأة بأنها سمعتْ أصوات صبية يمرحون في بيت الجدة وأصوات تكسر صحون وزجاج، أكدت امرأة ثانية الكلام مضيفة أنها سمعتْ لهاثَ جماعٍ وأصوات أطفال يولدون حتى تحول الشارع إلى مائدة رخيصة توزعُ الخيال على أذهان الناس وألسنتهم بالمجان وعادتْ سيرة حياة الجدة وغموضها موضعاً للتساؤل والريبة، من هي؟ من هم أهلها؟ ما اسمها الحقيقي؟ متى جاءت إلى المدينة؟ ما عمرها؟ لماذا لم تتزوج؟ علاقاتها السرية بالنساء والرجال؟

كانت حلقات النساء تندمج مع بعضها أحياناً حتى تشكل دائرة واسعة أمام بيت المُلاية نعيمة التي كنتُ أستدل من أحاديثها بأن غيرةً تنهشها كلما ذُكر في حضرتها اسم الجدة شمعه لذا فإنها رفعتْ كفها آمرة النسوة بالإصغاء حينما دار الحديث حول علاقة شمعه بالرجال فقالت امرأةٌ بأنها رأتها مرة " بعيني اللي تاكلها الدود " عند شريعة النهر بصحبة رجل يرتدي ملابس خضراً، كانا منهمكين بحديث سري، وكانتْ بالقربِ منهما فرسٌ مربوطة إلى صخرة كبيرة تأكل شعيراً بآنية فضية، قفزتْ صبيةٌ هاتفةً بحماس:

"هذا خطيبها خضر الياس"

توجهتْ أنظار النسوة إلى الصبية التي راحت تخبرهن بزهوٍ بأن الجدة نفسها أخبرتها بذلك إلا أن الملاية نعيمه نهرتها بسخريةٍ فصمتتْ.

لم يكن الرجال مشغولين بأمر الإشاعات بل كانوا يتناقلونها كنكات وكسخافاتِ نسوان يمضغنها كما يمضغن أعواد الديرم أو اللباد، إلا أن إشاعةً

واحدة راحتْ تسري في الشارع كالنـار في الهشيم ليلهـب سناها ذاكـرات ونفوساً متشبثةً بالوهم منذ ست سنوات لتمتد خارج الحي حتى صـارت حديثَ المدينة برجالهـا ونسـائها مما دفع برجـال الأمـن أن يتقصـوا الحقيقـة فبعثـوا مخبريهم لاستجلاء الأمر، قالت امرأة:

"طلعت أرمي المي الوسخ نص الليل وشفته دخل بيتها"

"منو؟ "

صرختْ النسوة متلهفات.

"عبد الكريم قاسم، هو بعينه"

سادَ صمتٌ بين النسوة فأضافتْ بثقة ساذجة:

"كان لابس عكال وصاية وعباية ولمن صار جوه كلوب الكهرباء طيّر الهوه يشماغة شفت إذاناته الكبار وفركة سنونه"

وعلى الرغم من سذاجة هذه الإشاعة إلا أنها أعادتْ فتحَ الملف السري للجدة شمعه وتأريخها فعرفتُ من خلال أحاديث الرجال في الشارع بأن الجدة شمعه كانت من أنصار الزعيم وكانت أول امرأة في المدينة تنضم إلى (منظمة المقاومة الشعبية) التي تشكلتْ بعد ثورة الرابع عشر من تموز عام ١٩٥٨ وقد اشتركتْ في تظاهرات نسائية كثيرة كانت تدعو إلى المساواة وتصحيح الماضي، راح أكثر من شاب في الحي يؤكد الخبر بل إن بعضهم أضاف بأنها كانت حتى يوم اعتقالها عضواً نشيطاً في (منظمة فضح النوايا) السرية وهي منظمة لم أسمع بها، لعلها من وحي خيال هذا البعض.

لم يكد الشارعُ ينفض يدَهُ الموثألة من غبار الإشاعات وبعد ثلاثة أشهر من اعتقال شمعه كان خلالها الشك يجول في الشارع، يدخل البيوت يسرق نوم

ساكنيها يقتحم أحلامهم بحكايات مبهمة ويشدُّ ألسنتهم بمفردات آثمة ينطقها نيابةً عنهم ندمُهم الأرعنُ وكراماتهم المهدورةُ بتقلب المواقف وتبديل الأقنعة تاركاً لهم آراءً موحشة متداخلة بالفوضى وغياب الضمير، ففي مساء صيفي ساخن من آب وقبل أن ينام الناس على جمرِ أوهامهم اقتحمت سيارة الفولكس واكن البيضاء الشارع مرة أخرى، نهضتْ النسوة وانفرطتْ مجالسهن، انسحبتْ رؤوس الرجال إلى داخل البيوت خوفاً من احتمال استدعاء أحدهم للتحقيق والإدلاء بالشهادة عن سيرة حياة شمعه أو عن مصدر الإشاعات. توقفت السيارة عند دار شمعه، ترجلَ منها الرجل البدين نفسه، دفع المقعد الأمامي إلى الأمام مادّاً يده إلى المرأة الجالسة في المقعد الخلفي مجللة بسواد الثياب وبياض الكبرياء. تحركت السيارةُ بسرعة مجتازةً الشارع من الجهة الثانية بينما وقفت الجدة شمعه على دكة بابها كقامة من زهو تحدقُ إلى الشارع بلهفة وكأنها لم تقمْ بتوليد نسائه فحسب بل حتى آجر الجدران يحملُ بصمات أصابعها النحيلة. هبّ الشارع برجاله ونسائه وصبيانه لاستقبال شمعتهم بغبطةٍ مفتعلة وطيبة تتلوى في قفص الخوف. كنتُ أسمع صوت أبي زاعقاً يمنع أمي وأخواتي من الخروج إلى الشارع إلا أني استطعتُ أن أفلتَ من قبضة سطوته الفارغة واندسستُ في زحام الصبية والنساء اللواتي جئن مهنئات الجدة على سلامتها، وكعادتها حينما تريد كسرَ الوجوم الذي يعم الشارعَ في لحظات الخوف والارتباك والوجوهَ التي تنطوي على نوايا مختلفة، راحتْ شمعه تصطنع الدعابة بفورية عجيبة تمرستْ عليها بفعل علاقاتها الحميمة مع النساء والرجال وجرأتها في الكلام وسلاطة لسانها:

"كنت عند مدير الأمن، كان حبلان"

ضحكَ الجميع بخطأ من مشاعرهم الآنية لاعنين شمعه التي لن تتغير، ولأنها أدركتْ أن الجميع يتحاشى سماع كلمة (الأمن)، راحت تتمادى بفضحِ

جبنهم فدوّتْ ضحكتها الرجولية مضيفةً تحدياً آخر للوجوه الصامتة أمامها كتماثيل حجرية:

"جاب خنزير"

في تلك الليلة جلستْ عند عتبة دارها ساهرةً حتى الصباح تغني بصوت هادئ حزين كأنها تريد أن تتحدى صمت الشارع أو تودّعه وداعاً أخيراً.

* * *

لم تخرج الجدة شمعه من بيتها بعد ذلك اليوم إلا مرةً واحدة كشاهد على تلك الجريمة المروعة التي شهدها الشارع بعد شهر واحد من الإفراج عنها.

* * *

(سهام) أولُ فتاة اكتشفتُها أو اكتشفتُ نفسي بها، كانت تكبرني بسنتين لكنها تبدو أكبر من عمرها بكثير فهي امرأةٌ ناضجة، طويلة، ممتلئة القوام، يكاد نهداها أن يفرا من صدرها، حلمتاهما بارزتان، يضيق عليهما الثوب فيندلقان من فتحته الأمامية أو من فتحتي الإبطين، كبيرة الردفين فأبناء الجزارين يكونون عادة بُدناء وذوي عافية واضحة على وجوههم، على العكس منا نحن أبناء الفقراء تلتصق جلودنا بعضامنا. التقيتها على سطح دارهم الملاصق لدارنا بعد يومين من انتقالهم إلى حيّنا وكنتُ وقتذاك في الصف السادس الابتدائي أحضر لامتحان البكالوريا، سمعتني أقرأ بصوت عال وكانت هي الأخرى في المرحلة نفسها، مدتْ رأسها نحوي وراحت تسألني عن أمور تخص الدراسة والامتحان، بعدها صرنا نلتقي يومياً أساعدها على حل المسائل الرياضية وإعراب الجمل أو كتابة موضوع لمادة الإنشاء وبين حين وآخر كان

يدفعني الفضول إلى اكتشاف جسد المرأة أن أطل على نهديها الكبيرين من نافذة ثوبها المشرعة على الفضاء الساخن، وهي وإن كانت تضبطني متلبساً بالجرم الا أن نظرتها إلي لم تكن أكثر من نظرة امرأة تدرك نضوجها إلى صبي يشتاق إلى ثدي أمه، كان نهدا سهام هما أول نهدين أراهما وحلمتاهما كانتا أول طريقي إلى تلمس اللذة فقد جربتُ مرات عدة أن أمسهما بكوعي مفتعلاً البراءة، البراءة التي ذابت مع تكرار لقائنا فقد أصبحتُ أكثر جرأة وصارتْ هي تدرك بأن دبيباً في جسدي هو ما يدفعني إلى ذلك فتتركني حيناً ألامسهما بجرأة، تصدّني أول الأمر بنظرات متغنجة أو تدفع يدي إلا أنها بعد لحظات ترضخُ لإلحاحي النزق فتدفع جسدها الساخن نحو جسدي باسترخاء وشهوة مسبلةً جفنيها، فاركة نهديها بكتفي وممسدةً ركبتي بيد مرتعشة تنقصها جرأة المضي إلى المكان الأبعد، صمتٌ بلا صفة يقطعه مواءُ قطة أو حركة فتح باب أو إطلالة رأس أحد من الجيران فأحاول أن أبعد جسدي عنها إلا أنها تبقى متشبثةً بي قارصة فخذي بتذمر فأنصاع إلى رغبتها متجمداً في مكاني بلا حركة حتى تدفعني بيديها هاربةً بخوف، أسمعها وهي تهبط درج الزريبة تردد " شيطان، نغل، ابن الكلب " فأخالها ستخبر أباها بالأمر لكنها تعود في اليوم التالي تلاطف صبياً يشتاق إلى ثدي أمه؟ مرات عدة رأيتها في الزريبة وهي تغسل عارية فكان جسدها أول جسد امرأة أراه بكامل تضاريسه.

حينما نطقتْ الجدة شمعه عبارتها بعد أن تلمستْ العقدة في حلمة صدري " منعول راح تبلغ، راح تصير رجّال " قفزتْ إلى مخيلتي صورة سهام بجسدها الساخن المكتنز ونهديها الوقحين، استبدّ بي قلقٌ غريب واعترتني ارتعاشةٌ وشوقٌ لرؤية جسد سهام، تركتُ حلقة الصبيان وذهبتُ مسرعاً إلى البيت يدفعني هوسُ الشبق إلى اغتصاب الهواء، صعدتُ الدرج إلى السطح بقفزات

رجولية، هناك كانت عيناي تلتهمُ الفضاء بحثاً عن سهام، وجدتها لاتزال نائمةً في ظل سياج السطح وقد بدأ يكمل انحساره حيث أن الساعة قاربت الحادية عشرة وهذا يعني أنها ستنهض قريباً حينما تلهب جسدها أشعة الشمس، كانت قد أزاحتْ الشرشف عن جسدها فتمرد فخذان بضان فرجتهما برعونة النائم فلاح لي ما بينهما صغيراً راح يكبر شيئاً فشيئاً حتى شغل مساحة المشهد كلها فلم أعد أرى شيئاً آخر خارج منظار رؤيتي، رحتُ أرقبها وهي تلبطُ على الفراش ضجرةً وجسدها مرآة تعكس لهيب الشمس سنىً شبقياً يخترق عيني، وكسمكة تستسلم إلى قدرها انقلبت على ظهرها، تمطتْ بكسلٍ حاكّةً ما بين فخذيها ببطء فاصطدمتْ طفولتي بجدار ناري كصدر عارٍ يلاقي سمومَ الهوس برغبة ساخنة، استيقظتْ فرأتني أحدق إليها بنظرات نهمة، ارتبكتْ فغطتْ جسدها وهي تتمتم بكلمات تدل على التذمر، تشاغلتُ عنها بالنظر إلى جهة بعيدة مقتنصاً لحظة انشغالها كي أسترق النظر إليها، جلستْ على حافة السرير، تمطتْ ضارية صدرها بقبضتها ثم نهضتْ بتثاقلٍ وتوارتْ في الداخل. في ساعات الظهيرة نام الجميع فعدتُ إلى السطح متنقلاً بين السياج وبرج الطيور منصتاً إلى أية حركة في الزريبة حيث اعتادتْ سهام أن تقضي ساعات الظهيرة تقدم الماء والعلف إلى الأبقار سارقةً بعض الوقت لممارسة عادتها السرية، سمعتُ صوتها فاندفعتُ إلى (التيغة) مطلاً عليها محدثاً خربشة للفت أنظارها، رفعت رأسها فوجدتني أحدق إليها بنظرات جريئة، أشرتُ إليها للصعود فتماهلتْ بامتعاضٍ وحينما رأتْ الحاحي استجابتْ بتذمر:

"شتريد؟"

سألتْ بغضب ونفورٍ فمسكتُ رأسها لأدني اذنها من فمي وهمستُ فيها بطفولةٍ:

"سهام، آني بلغت"

"شنو؟"

سألت بسخرية وتهكم فأعدتُ عليها:

"آني بلغت يعني صرت رجّال"

أمالت رأسها قليلاً ورمتني بنظرات باردة وحينما حاولتُ أن أقبّلها تملصتْ من يدي هاربة مكفهرة الوجه وراحت تنزل درجات السلم وهي تتمتم:

"شيطان، نغل، ابن الكلب"

انسحبتُ إلى برجِ الطيور خائباً مرتعشاً، حاولتُ أن أثبت رجولتي بالطريقة التي وصفها لي محمد فتضاعفتْ خيبتي حيث تأكد لي في تلك الساعة بأني مازلتُ طفلاً فلم يخرج الشيء الذي وصفه لي أخي، كنت أشعر بحرقة وامتلاء مثانتي، جلستُ متعباً أصغي إلى دقات قلبي الذي اتسع في صدري نافراً متململاً من سجنه المؤبد في قفص الطفولة. حمامةٌ زافتْ بالقربِ من فحلها الذي نفشَ ريشه بكبرياء فاتحاً منقاره دافعاً صدره بشموخ، اقتربت الحمامةُ وأدخلتْ منقارها بين منقار الفحل وراحا يتزاققان بشماتة مني، ركلتهما برجلي بحقد فافترقا، رفعتُ رأسي فرأيتُ رأس سهام مطلاً من السياج الفاصل بين سطحينا، كانت عيناها تبحثان عني بشغف وحينما رأتني لوحتْ لي بفرحٍ، اقتربتُ منها بخوف وحينما تقارب وجهانا مسكتني من شعري ساحبة رأسي إليها ثم أحاطت رقبتي بذراعها والتهمتْ شفتي بقبلة حارة مقلدةً ممثلات الأفلام، حاولتُ أن أقفز إلى السطح الآخر إلا أنها منعتني مكتفين بتلامس الشفاه تحت شمس ظهيرة صيفية.

كانت تلك أول قبلة تذوقتها في حياتي كما كانت سهام أول فتاة أكتشف نفسي بها وأول جسدٍ ألمسه وأراه حياً بكامل عنفوان أنهاره وشلالاته،

وكذلك كانت سهام أول جثة لقتيلٍ أراها مسجاة على الأرض ينزف منها دمٌ ساخن كأن بخاراً يتطاير منه وأول موتٍ يفضُّ شغاف حياتي.

كانت جثتها ملقاةً وسط الشارع مغطاةً بشرشف أزرق اصطبغ بالدماء يحوم عليها الذبابُ والشبهاتُ بينما كان عبود الكصاب يذرع الشارع حاملاً قامته (القامةُ: سيفٌ متوسط الطول يشبه السيف الروماني) مرتعشاً أحاطهُ الرجال يربتون على كتفيه مادحين رجولته وحرصه على سمعته بغسله للعار الذي لحقه لاعنين النسوة وكيدهن والزمان الذي تغير. صراخُ نسوة يركضن في الشارع بكل اتجاه كي يخفين المشهد عن أعين صبيانهن الذين راحوا يتطلعون برعب إلى جسد سهام النازف والقامةِ الحمراء بين يدي عبود الكصاب برعب، تلمستُ شفتي كانت جافةً كأن قامته قد مرت عليها كما مرتْ على عنق سهام أو كما تمر يومياً على رقاب العجول والأغنام. صمتٌ وصراخ يتناوبان فتردد جدران الشارع صداهما المخيف، كانت الأنظار مشدودة إلى جثة سهام وعبود الكصاب المحاط بالرجال وإلى طرف الشارع بانتظار سيارة الشرطة، فُتح البابُ بهدوء وأطلتْ شمعه بقامتها الطويلة وجسدها الضخم فانشدتْ الأبصار إليها، أخيراً ظهرت بعد اعتكاف دام أكثر من شهر، سارتْ ببطء نحو الجثة متمتمة بكلمات لا يسمعها أحد، ثم سارت إلى حيث يقف عبود الكصاب محاطاً بالرجال المحاطين بهالة الشرف الكاذبة، تقدمت الجدة شمعه مزيحة الرجال بذراعيها اللتين انحسر الثوبُ عنهما إلى المرفقين حتى توقفتْ قبالة عبود الكصاب الذي أحنى رأسه باكياً، مدتْ إليه يدها وبإصبعٍ رفعتْ حنكهُ فرفع نحوها وجهه المصفر وعينيه الغارقتين بالدموع، حدقتْ إليه بصرامة، تناولت القامةَ منه دون ممانعة، سلّمتها إلى أحد الرجال المحيطين بهما ثم دوى انفجارُ قذيفة هزّ قامات الرجال:

"تفـووووووو ياكلب ياكواد هسه صرتْ شريف براس الطفله"

وصلت سيارتا إسعاف وشرطة، انكمشتْ أجساد المتجمهرين إلى الوراء، قاد شرطي عبود الكصاب من يده برفق إلى السيارة بينما حُمل جثمان سهام تشيعه نظرات تتقاطعُ فيها مشاعرُ الشفقة والاحتقار، ثم انطلقتا تاركتين في الشارع غباراً وفي النفوس خلجات مبهمة تثير أسئلة ملحاحة تتطلب أجوبة آنية عن معنى الشرف.

عادت الجدة شمعه إلى دارها واقفة بجسدها الضخم على دكة بابها محدقة إلى عيون الرجال بنظرات ساخرة يكاد تأنيبها يخترق جدرانَ الإسمنت، تجمعتْ النسوة حولها محتفيات بعودتها إلى الشارع ورحن يتحدثن إليها بتملق بينما كانت الجدة صامتة تصغي إليهن بذهول وقد انقسمتْ آراؤهن فمنهن من أشادت برجولة وشجاعة عبود الكصاب الذي مارس حقاً من حقوقه المشروعة بقتل ابنة زانية حامل في شهرها الثالث غاسلاً عاره الذي لا يتم غسله إلا بالدم ومنهن من كذبت الخبر فالمرحومة لم تكن أكثر من فتاة طائشة كحال الفتيات بعمرها، وحينما ألحت النسوة بسؤال الجدة شمعه عن رأيها، صمتتْ بحزن متأففةً مرددةً عبارة ظلت النسوة يتناقلنها في ما بينهن مستفسرات عن مغزاها منقسمات حول تأويلها، فقد نطقتْ الجدة شمعة بعد صمت وحسرة:

"آخ خ خ آني موجودة وأخليها تنذبح حتى لو كانت حبله بالتسع تشهر"

وحينما تجرأتْ امرأةٌ كانت تدافع عن ضرورة تأديب البنات حتى لو بالقتل موجهة كلامها بفظاظة إلى الجدة شمعه:

"شنو كان تسوين بالله؟ هاي قابل مره مايجي ظهرها، هاي مسألة شرف مو لعب جعاب، الشرف عزيز وما ينغسل عاره إلا بالدم"

ركزت الجدة شمعه نظرتها بوجه المرأة وبعد صمت طويل قالت بصوت واطئ مشوب بالألم والمرارة:

"انجبي انجبي تره أكشف المستور وأفضح حتى حيطان الشارع"

جاءت عبارة الجدة شمعه لتقطعَ آخر الخيوط التي كان يربطها بسكان الشارع. تفرقت النسوة تاركات الجدة وحدها تحدق بألم وسخرية من الناس وجبنهم ووساخة أرواحهم وقبلَ أن تطبق الباب وراءها إلى الأبد ألقتْ آخر قذيفة ومضت:

"تفووووو صدك من كال اسقِ الكاع حياء تنبتْ شرف"

* * *

جلساتٌ خصبة ترتعُ فيها الإشاعات، سيرٌ وأخبارٌ جديدة تتناقلها النسوة، تأريخ من الجرائم وحوادث غسل العار، النساء يفضحن سرائرهن وهن يتحدثن عن الكيد وعن استغفال الرجال، أفكار تنتقلُ بالحثّ والاحتكاك أو بطريقة توارد الخواطر، آراء تنشق على نفسها فتكوّن أحزاباً وكل حزب بما لديهم فاضحون، الشارع مائدةٌ رخيصة توزع الإشاعات بالمجان، وحده الغبار يلوّث أجمل التحف ولا يخجل، قاتلٌ يجد مَنْ يمدح شجاعته ويربت على كتفيه وقتيلة تشيعها النظراتُ القاسية والشبهات وما بينهما نساء ورجال (أعرفُ تواريخ خياناتهم) ترتفعُ أصواتهم مدعيةً الشرف وسمو الأخلاق، والأيام تمضي كسابق عهدها، لا شيء يحدث سوى ما يخطهُ الخوف بوقاحة على صفحة الأيام ليحول الإنسان إلى مسخرة بيد القضاء والقدر...

شهرٌ مرّ على تلك الحادثة ولاتزال شاغل الناس، صمت لم يستفز أحداً يحيط ببيت الجدة شمعه حتى كأن الناس شطبوا أيام ولاداتهم، ربما لأنها استفزت أخلاقهم النائمة وذكّرتهم بغياب الضمير، مرة واحدة سألت امرأة:

"شنو أخبار العُوره؟"

تشاغلت النسوة فمر السؤال عابراً لم يجد آذاناً صاغية يرسو عندها، وقد يكون الحق مع السامع حيث وخلال فترة قصيرة حدثتْ أمور كثيرة في الشارع لايستطيع أحدٌ أن يلاحق أخبارها أو يغربل حصيدها ليستخرج الحقيقة من التلفيق، انتقلتْ عائلة عبود الكصاب إلى بغداد وأعدم حسين العُربي بتهمة المتاجرة بالمخدرات وسُفّرت عائلة صاحب فرمان إلى إيران في حملة تسفير واسعة بدأتها السلطة قبل أكثر من سنة وشملت عوائل كردية كثيرة في المدينة، جرت مداهمات للبيوت بحثاً عن مشتبه بهم حتى اشتبه الناس بأنفسهم وبأرومتهم فتناسلت الوشايةُ والنميمة، تحسن وضعنا الاقتصادي بزيادة راتب أخي وهناك أمل كبير بأن تعطيه دائرة الري التي يعمل فيها مهندساً بيتاً كبيراً سننتقلُ إليه في الصيف القادم.

دخل أبي البيت ماسكاً طرف أنفه بيشماغه وحينما سألته أمي عن السبب أجاب بأن رائحة كريهة تنبعث في الشارع، في اليوم التالي نشبَ عراك بين النسوة متهمات بعضهن برمي الماء الوسخ فيسبب رائحة تزكم الأنوف، حضرت الشرطة وحضر مبعوث من البلدية معلنين قراراً بمنع رمي الماء الوسخ في الشارع لحين يتم تبليطه بالإسفلت وفعلاً جاءت بعد يومين ماكنة (كريدر) لجرف الأوساخ وتعديل الشارع غير أن الرائحة الكريهة بدأتْ تتسرب إلى البيوت، رائحةٌ تثيرُ الغثيان والحيرة حيث لا أحد يعرف مصدرها أقسمت النسوة بأنهن ملتزمات بقرار البلدية وتشكلتْ منهن لجان مراقبة وحينما عجز التفكير عن كشف أسباب تلك الرائحة جاء دور الخيال والإشاعات، قال عجوز:

"هذي رائحة الفساد والخيانة"

فصدقوه.

قالت امرأة:

"هذي رائحة الدم"

فصدقوها.

وقالت أخرى:

"هذي روح سهام تطوف في الشارع"

فصدقوها.

وكلّ منهم أبدى رأيه متجاهلاً الاحتمال الأكثر واقعيةً وهو موت الجدة شمعه لأن ذلك يفتح باباً أوصدوه هرباً من تأنيب الضمير القابع في قفص الخوف، لكن النفوس الضيقة لا تحتمل تملل السر وغليانه فانطلقت العبارة التي كانوا يخشون سماعها:

"خاف شمعه العُوره ماتتْ؟"

رددتْ امرأة فضفاضة اللسان فأيّدتها أخرى تسكن لصق دار الجدة شمعه ثم تحول الهمس إلى قلق وكلام يتداوله الناس في ما بينهم. مفوّضُ شرطة شاب بدوي الملامح انتقل إلى المدينة حديثاً واشترى دار عبود الكصاب أكدَ بعد يومين بأنه تحرى عن وجود شمعه في مركز الشرطة ودائرة الأمن ولم يعرفوا عن أمرها شيئاً، فانفلتت الألسنُ من عقالها:

"لا حول ولا قوة إلا بالله"

"إنا لله وإنا إليه راجعون"

"كلّ من عليها فان ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام"

نصبَ الرجال مجالس الفاتحة على روح الجدة شمعه قبل أن يعرفوا حقيقة الأمر لعلهم كانوا يتمنون أن تطوى هذه الصفحة من كتابهم إلى الأبد ومَنْ غير الموت قادر على ذلك ؟، سلّموا الأمر إلى المفوض الشاب الذي أبدى ارتياحاً مفتعلاً محاولاً كسب ثقتهم وإعجابهم ولم يدرِ بأن التملق الذي يُبديه الرجال نابعٌ من الخوف المتكلس في نفوسهم. انتدبَ بعض الرجال وكان أبي من بينهم كي يقتحموا دار الجدة شمعه معه

ففرح أبي لهذه المهمة التي قد يكسبُ منها زيارةً مجانية لضريح الإمام علي في مدينة النجف بذهابه في مراسم الدفن .

خرج المفوضُ من دار الجدة يتبعه الرجال نافضين أيديهم فتطاير الهباءُ وعمّ الغموض في الشارع ، عاد أبي مسرعاً ماداً عنقه مثل زرافة مطاردة ، دفعني وأخي إلى الداخل بحركات هستيرية متوجهاً إلى المرحاض مرتعشاً ، مكثَ هناك وقتاً طويلاً حتى خطرتْ لنا الفكرة نفسها ، طرقنا باب المرحاض فأجابنا بتنحنحٍ مفتعلٍ وهو يغادر المكان ماسكاً أسفل بطنه ، توقفَ صامتاً متجاهلاً الوجوه التي راحت تحدقُ إليه منتظرة سماع الخبر ، انفجرت أمي غاضبة:

"احجي اش بيك شلعت كلوبنا" !

زفر بافتعالٍ وقال:

"ما كو شي ، ما شفنه غير بس سجادة الصلاة"

ثم أضاف بعد صمت تقطعه نوبات سعال مفتعلة:

"بس سجادة الصلاة بالغرفة"

وكعادته في نقل خبرٍ هامٍ كهذا لم يفته أن يبالغ ويضيف من مخيلته أو بالأحرى من مخيلة غيره (فهو كما عرفته ذو مخيلة فقيرة جداً ولايجيد غير الكذبات الساذجة والتي غالباً ما تأتي في غير محلها) فبعد أن نقلَ خبر اختفاء شمعه وشاهد ردةَ الفعل على وجوهنا لغرابة الأمر ، أضاف زيادةً في التشويق :

..... "وآثار حوافر فرس بالممر"

* * *

استــدراك

كادت القصةُ أن تـنتهي عند هذا الحد وتطوى صفحةُ الجدة شمعه بعد غيبتها الأخيرة وينـشغل الناس بحفظ تواريخ موتاهم بدلاً من تواريخ الميلاد ويتغير وجه الشارع، وهذا ما حدث فعلاً فقد مات العجوز وكبر الطفل وانتقلت عائلات ليحل محلها أناس لا يعرفون شيئاً عن الجدة شمعه أو سهام ابنة عبود الكصاب، انتقلتْ عائلتنا إلى بيت كبير تفصل سطحه عن سطوح الجيران حديقة كبيرة، انتقلتُ إلى بغداد للدراسة، صور لصبايا اختطفت عيني وخيالات كثيرة بقبلات تمر على شفتي ونهود تنفر من أسرها يضعها الوهمُ في قبضتي، اهتمامات أدبية شغلتني وهموم واقعية أنستني فانتازيا الإشاعات . . . الخ

ولكن...

لفتتْ انتباهي أخبارٌ غريبة تهمس بها أخواتي بتكتمٍ وحذر شديدين ففي ضحى كل يومٍ وبعد أن تعود (وداد) من السوق يعقدن اجتماعاً سرياً تروي فيه وداد قصصاً عن لقاءات غريبة تجريها مع أشخاص لم أسمع بأسمائهم من قبل بينما تجلس الأخريات محدقات إليها بشوق حافظات كل كلمة تقولها بإصغاء وصمت يشبه الصلاة، استبدتْ بي شكوكٌ وعاد إلي فضول الطفولة والرغبة لمعرفة ما يدور في تلك الاجتماعات، وبعد الإلحاح وتفادياً لما قد يأخذُ الشك في نفسي من مسار بعيد عن الحقيقة أباحت لي إحداهن (بعد أن أخذتْ مني تعهداً بكتمان الأمر) بأن انقلاباً عسكرياً وشيك الوقوع سيقلب السلطة في العراق. ولأني كنتُ على بينة من الواقع السياسي الهادئ من خلال انتمائي إلى الحزب

الشيوعي آنذاك فقد بدا لي الخبر وهماً من أوهام أخواتي الكثيرة أو إشاعة وجدتْ طريقها سراً إلى بيتنا فقلت ساخراً:

"منو راح يقوم بيه؟ "

فأجابتني بوجهٍ تلوح عليه سماتُ جدّ خلخلَ يقيني:

"عبد الكريم قاسم"

صفعَ الاسمُ سمعي كقدحة حدْسٍ، توقفتُ قليلاً أصغي إليها بانتباه فراحتْ تسرد لي قصصاً عن تغلغل القاسميين في صفوف الجيش العراقي وعن إتمام كافة التحضيرات وانتظار ساعة الصفر التي صارت بين ليلة وضحاها.

"لكن منو نقل إلكم الخبر؟ "

سألتُها مفتعلاً التصديق مجارياً حماسها فجاءني جوابها:

"الجدة شمعه "

سنوات قاربت العشر مرت قبل خروجي من العراق عام ١٩٨٢ وأخواتي اللواتي شخن عانسات واخترن الاعتكاف في غرفة واحدة من البيت ولم يعرفن لون باب دارنا يعقدن اجتماعاتهن اليومية يتحدثن فيها عن لقاءاتهن اليومية بعبد الكريم قاسم والجدة شمعه وعن ساعة الصفر التي صارت أقرب من حبل الوريد.

* * *

فايله، بودابست، دمشق
١٩٩٤-١٩٩٦

أغنية (١)

ـ هل كانتِ الصحراءُ يوماً أمَّنا؟
مستفعلن
مستفعلن
فلماذا
كلما نرحلُ نشتاقُ إلى ثديّ الرمالْ؟
فاعلاتن
ولماذا
كلما أتعبنا البحرُ
أنخنا شمسنا ظلاً على برّ السؤالْ؟
فاعلاتن
ولماذا
كلما قوقعةً آنستُ
شبَّ البحرُ مُغتاظاً
وغنتْ موجةٌ لحنَ ارتحالْ؟
فاعلاتن
خيمةٌ طائرةٌ بالبدوِ

لا للغزو
بل للوأدِ في (بحرِ الشمالْ)

فاعلاتن
رَمَلٌ يختارُني للحدو
في قافلة الثلجِ
فأمضي واقفاً بينَ انهيارٍ
وانهيالْ

فاعلاتن
فاعلاتن
فاعلات

في الطائرة بين بودابست وكوبنهاكن
٣١/٨/١٩٩٦

عـادل العـــرس

صباح يوم الخامس من آذار عـام ١٩٨٧ رنّ جـرس التـلفـون ، كـان على الخط شخصٌ لا أعرفه سألني:

"أنتَ حميد العقابي؟ "

"نعم"

"البقاء في حياتك ، عادل مات"

فوجئتُ بالخبر حيث أني كنـت قبل يومين في زيارته ولـم يكن يعـاني من شيء سوى ألمٍ بسيط في معدته كما أخبرني ، سافرتُ إلى مدينة آغـوس التـي تبعد ساعة واحدة بالقطـار عن المدينة التي أقـيمُ فيها وهناك علمتُ من الأصدقاء القريبين منه بأنه مات بالسكتة القلبية:

"ولكنـه كان يعاني من ألمٍ بسيط في معدته؟ "

سألتُ باستغراب فأجابني الجميع بوقت واحد:

"لا ، يكذب"

راح صديق كـان يقيم معه في الشقـة نفسهـا يصف حالـته في الليلة الأخيرة:

"كان لا يشكو من شيء ولكنه كـان حزيناً ولـم ينمْ تلك الليلة ، كنتُ أسمعه يضرب على الآلة الكاتبة وحينما سألته عن سبب لعدم نومه حتى الآن قال لي بأنه يريد أن يكتب الفصل الأخير من روايته الأخيرة ، في الصباح سمعته

يتقيأ وحينما خرجتُ رأيته ممداً على الأرض، خرجتُ إلى الشارع ومن هاتف عمومي اتصلت بالإسعاف وحينما عدت إليه وجدته ميتاً. "

قضيتُ ليلةً في غرفته أقلّب أشياءه أبحث عن عناوين زوجته أو أهله أو أصدقائه بالبصرة كي أخبرهم بوفاته، وجدتُ أوراقاً وقصاصات كتب عليها بخط غير واضح خواطر ومحاولات لكتابة قصص قصيرة أو قصائد، وجدتُ ورقة لاتزال في الآلة الكاتبة كتب عليها:

)الصديق حميد العقابي

سلّم رواياتي إلى(.....

كيف لي أن أملأ هذا الفراغَ ولمن سوف أسلّم رواياته؟ ولكن أية روايات !؟ فأنا لم أعثر على شيء سوى بضع قصاصات تحملُ آهات مبهمةً وجملاً ركيكة تدلّ على فهمٍ ساذجٍ للشعر، ومجموعة من الأوراق المصّفوفة بعناية وعلى الصفحة الأولى منها كُتب بخط الثلث الأنيق عبارة (رواية / الاغتيال الثاني) وفي أسفل الصفحة ذاتها دوّن تأريخ (١٩٨٨) فابتسمتُ بألمٍ لعله كان يشيرُ إلى التأريخ الذي سوف تُنشر فيه (الرواية. (!

عادل العرس أو عادل عبادي علي روائي يعرفه الكثيرون ممن مروا أو أقاموا بإيران في النصف الأول من الثمانينات ولكن لا أحد يعرفه خارج تلك الدائرة والحق معهم فهو لم ينشر ما يكتبه بل هو لا يكتب ما يكتبه وحينما يسأله أحدٌ " متى سنقرأ روايتك الجديدة؟ " يجيب بزهو وثقة " في الوقت المناسب " وقد كان متلهفاً على السفر إلى السويد أو الدنمارك " كي أتفرغ لكتابة رواياتي "؟ كان يحفظ (مائة عام من العزلة) و (خريف البطريرك) كطفلٍ يحفظ نشيداً مدرسياً ويرددُ عبارةً تشيرُ السخرية إلا أنه كان يقولها بثقة:

"إذا استمر ماركيز على هذا المستوى فأنه يسوي شي"

وحينما يسأله شخصٌ:

"شيسوي بعد؟ مو حصل على جائزة نوبل"

فيجيب بسخرية:

"العبره مو بالجوائز"

ولم تكن الرواية وحدها ما يشغل تفكيره بل هو منجم للمشاريع ففي كل يوم يأتي بفكرة لكتابة قصة أو قصيدة أو مشروع إخراج فلم سينمائي حتى أنه ظل فترة طويلة يفكر بتشكيل حزب سياسي وقد وجد حينها شخصاً يشاطره الفكرة وبدآ بتوفير المال اللازم لنشر (مخطوطاتهما !)؟ سافر إلى مدينة بندر عباس الجنوبية ليعمل حمّالاً في الميناء وظل هو ورفيقه المقيم في طهران لضرورات التنظيم يتبادلان الرسائل حول أمور تخص النظرية والتطبيق وكانا يحاولان (يتوهمان طبعاً) تقليد ماركس وأنجلز وحينما استيقظا على ضعف قدراتهما وتخليا عن الفكرة، راحا يشتمان أعداءً وخونةً لا وجود لهم سعوا إلى اجهاض الفكرة وراح عادل يبرر ذلك بضيق المكان، وعادت فكرة السفر إلى السويد أو الدنمارك تشغله " كي أتفرغ لكتابة رواياتي "، وحينما عجز عن الحصول على وثيقة تؤهله للسفر بطريقة مشروعة قرر الهرب بإحدى البواخر التي ترسو في ميناء بندر عباس.

في طهران كان يعمل في مطعم لبيع الشاورما (الكص) فكنتُ أراه يحمل ساطوره ويتحدث مع الواقفين عن مشاريعه وأفكاره الجديدة حتى علّق أحدهم على المشهد " بأن من يأكل صحناً من يد عادل العرس يأخذه كصّاً مضاعفاً " فصارت نكتة يتداولها الأصدقاء في (كوجة مروي)؟ قال صديق " إن عادل

لوحة سريالية " وقال آخر " إنه شخصية في مسرح اللامعقول " بينما وصفه ثالث بأن الكذب عنده كالفستق فهو يعرف أية فستقة تحمل في داخلها لبّاً كثيراً.

جاءني فجر أحد الأيام إلى الغرفة التي كنتُ أسكنها في (حي مولوي) الواقع جنوبي طهران وكان يحمل كتاب (رأس المال) وطلب مني أن أقرأه وأكتب عنه نقداً خلال أسبوع فضحكتُ:

"عادل، شماكل من هالصبح؟ لسان طير؟ "

"لا والله لم أذق أي شي من يومين لأن ما عندي ولا تومان"

"وين فلوسك الوفرتها من الشغل؟ "

"أعطيتها لمن هو أحوج مني إلها"

"وين تنام؟ "

"أتسلل لبارك شهر ليلاً وأنام على المصاطب"

وصلتني منه رسالة حينما كنتُ في (أوردكاه خرم آباد) يطلب مني أن أرافقهُ في الهرب إلى أوربا عن طريق ميناء بندر عباس الإيراني، ولأني كنت أرى ذلك فكرة من أوهام عادل الروائية التي لا أثق بها فقد قررتُ أنا والصديق عبد السادة جبر الله أن نهرب إلى أفغانستان حيث وصلتْ رسائل كثيرة من عراقيين وصلوا الى (كابل) وهم بانتظار أن تقوم منظمة الصليب الأحمر بتسفيرهم إلى إحدى الدول الأوربية؟ افترقنا في محطة القطار، سافر هو إلى مدينة بندر عباس وسافرتُ إلى مدينة (مشهد) على أمل اللقاء قريباً في استوكهولم أو كوبنهاكن.

حقيبة صغيرة وقنينة ماء وخنجر اشتريتُه من شخص أفغاني في مدينة مشهد بعد إلحاحٍ من الصديق عبد الساده وقد كنتُ أسخر من نفسي ومن صديقي الذي

كانت تلوح على وجهه علامات الجد والحقد وهو يتلمس مقبضَ خنجره متحفزاً لطعن الهواء بفروسية مفتعلة؟

سافرنا عند غروب الشمس إلى مدينة (طيبات) القريبة من الحدود الأفغانية وقبل الوصول إلى المدينة بثلاثين كلم طلبنا من السائق التوقف فنظر إلينا متعجباً وردد كلمات فارسية لم نستطع فهمها؟ ترجلنا متجهين شرقاً في المفازة الفاصلة بين الطريق والحدود، كان الوقت صيفاً والنجوم تضيء أمامنا مسافة قريبة؟ قطعنا المفازة ركضاً ومشياً وأحياناً كنا نزحف مختبئين في جحور وحفر انتشرت في الطريق حينما كنا نلمح أنوار الدوريات الإيرانية تخترق المفازة بحثاً عن مهربي المخدرات؟ ظهرت أولى أنوار الفجر ومازلنا نجهل وجهتنا، سمعنا همسات تقترب منا فأختبأنا في حفرة قريبة ، الأقدام تقترب والدائرة تضيق لتصل إلى المركز، كان ثلاثة أشخاص مدججين بالسلاح وقبل أن يصلوا إلينا رمينا خنجرينا في الحفرة، أخرجونا بفظاظة وقادونا مكبّلين، ولأننا لم نكن متأكدين من كونهم من (المجاهدين) أم من رجال السلطة المتنكرين فقد كانت إشاراتنا لا تدلّ على شيء متحججين بعدم فهمنا للغة التي يتحدثون بها؟ في الصباح كنا نقف أمام شيخ بلحية طويلة ومدببة تشبه لحية جنكيز خان، تحدث معنا باللغة العربية الفصحى ماطاً آخر الكلمات بلكنة فارسية بينما كانت الوجوه المغولية تتطلع إلينا بنظرات قاسية فترآى لي هولاكو وتيمورلنك فشعرت بخوف تأريخي، علمنا بأننا الآن في قبضة المجاهدين، سألنا الشيخ عن سبب هروبنا من مملكة إيران الإسلامية وعن الجهة التي نقصدها وحينما علم بأننا لسنا شيوعيين جئنا طواعيةً لدعم النظام الأفغاني وبما كنا نعانيه في ايران أبدى لنا تفهماً؟ قضينا يومين في خرابة يحرسها صبيٌّ أرعنُ راح يستفزنا كلما دعتهُ مراهقتهُ والبندقية التي يحملها فكان يوجهها نحونا هاذراً بكلمات لا نفهمها وحينما يرى الخوف

مرتسماً على وجوهنا يطلق ضحكة انتصار خرقاء؟ تمّ تسليمنا الى سيارة لاندكروزر تابعة للحرس الإيراني فعادتْ بنا إلى سجن مدينة (طيبات) ومنه إلى سجن في مدينة مشهد قضينا فيه ثلاثة أيام دون طعام أو ماء حيث كانوا يتركوننا ليلاً وفي النهار يفرضون علينا صيام شهر رمضان؟ لم يجد الحاكم تهمة يلصقها بنا فبعد تردد قصير ودون أن يسألنا حتى عن أسمائنا أصدر حكمه بسجننا خمسة عشر يوماً بتهمة التجسس ! قضيناها في سجن مشهد المركزي ثم أعادونا إلى أوردكاه اللاجئين العراقيين في مدينة (كرج) القريبة من طهران.

أما عادل فقد دخل عنبارَ إحدى البواخر الراسية في ميناء بندر عباس الجنوبي وبعد ثلاثة أيام من الجوع والعطش قال لصديقه:

"وصلنا سنغافوره "

وحينما خرجا وجدا الحرس الإيراني بانتظارهما حيث أن الباخرة لاتزال راسيةً في الميناء الإيراني ، وبعد خمسة أشهرٍ قضاها في السجن عاد إلى طهران فوجد أخبار رحلته ورواية إبحاره إلى سنغافوره قد انتشرت في (كوجه مروي) فكان كلما يسألهُ أحدٌ مازحاً:

"عادل ، صدك وصلت سنغافوره؟ "

يجيب بهدوءٍ وحزن:

"لا ، وصلتُ البصرةَ "

وبعد لحظاتٍ من الصمت يضيفُ بكبرياء:

"ولكن للعمقِ مخالب زرقاء. "

إلتقيتهُ مرة أخرى في نهاية عام ١٩٨٥ في كوبنهاكن التي وصلها أخيراً ، كان حزينا يرددُ متأففاً كعادته حينما يفتعلُ الجدّ والكبرياء المجروحة؟

"كيف لنخلة بصرية أن تغرس في ثلج الدنمارك "

قلتُ له:

"ستعتاد ذلك "

وذكّرته بالوعد الذي كان يقطعه أمام الجميع بأنه سيكتبُ رواياته حينما يصل الدنمارك أو السويد، وفعلاً راح يمنّي نفسه بهذا الأمل هروباً من حنينه إلى العراق وزوجته وأطفاله فاستطاع الحصول بصعوبة على آلة طباعة عربية قديمة واختار الاعتكاف في شقته في مدينة (آغوس)، يزورني أحيانا في مدينة (فايله) ونقضي ليالي بالحديث عن الفصل الأخير من روايته التي كنتُ متيقناً بأنه لن يبدأ بها، وكلما حاولتُ أن أوقظه من كذبته الطويلة ووهمِ الكتابة راح يردد قصيدة (هرم المغني) للسيّاب فأرى على وجهه علامات الهرم والرحيل صادقةً بوضوح (من غرائب عادل العرس أنه لم يحفظ من شعر السيّاب غير هذه القصيدة وقد كان يتغنى بها بدفء وبلوعة لاذعة توحي للسامع بأنه هو قائلها).

في ١ / ٤ / ١٩٨٧ حملتُ تابوته من غرفة حفظ الجثث إلى الشارع حيث توقفتْ سيارة سوداء وبضعة عراقيين على الرصيف يحدقون إلى التابوت بمرارة وشك في أن تكون هذه واحدة من روايات عادل العرس التي اعتادوا سماعها منه، كنتُ أردد مع نفسي:

(هرمَ المغني فاسمعوه، برغم ذلك تسعدوهْ

وهوى ترقرقُ مقلتاه له وينفح منه فوه

هو مائتٌ، أفتبخلونَ

عليه حتى بالحطامِ من الأزاهرِ والغصونْ؟

اصغوا إليه لتسمعوهْ

يرثي الشبابَ ولا كلام سوى نشيجٍ بالعيونْ

سلّمْ علي إذا مررتَ" ..

أتى وسلّمَ . . . صدقوهْ

هرم المغني فارحموهْ)

في القطار العائد إلى مدينة فايله كتبتُ مرثيةً بعنوان (عادل وكذبتهُ بعد الأخيرة:

(قال لي رضوانُ؟ أدخلْ

قلتُ؟ لن أدخلَ

حتى تكشفَ الأنهارُ عن أسمائها

لي نَهَرٌ ضيعتُه قبلَ الرحيلْ

قالَ لي؟

عندنا الأنهارُ تنسى ماءَها،

أسماءَها

من هولِ عزرائيلْ

قلتُ؟ هذا مستحيلْ

قال؟ إذهبْ واسألِ الباريَ عنه

* * *

حينما أدخلني الخازنُ

كان اللهُ يبدو غاضباً

قالَ؟ ها قد سجدتْ كلُّ محيطاتيَ لي
غير هذا النهر يأبى
فأسريتُ
رأيتُ النهرَ في عليائه
شيخاً جليلْ
قالَ لي؟ يا عادلُ
كلُّ ما يمنحني اللهُ قليلْ)

* * *

أمسِ زارني عادل في المنام فسألتُه عن أحواله وأحوال الناس هناك، عن الموتِ والآخرة . . . . . تجاهلني تماماً كأني لم أكن بطلَ جميع رواياته.

* * *

فايله ١٩٨٧

الرسامُ والفراشة

ساعاتٌ ثقيلةٌ مرتْ والرسامُ الكبير يحاورُ اللوحة، يحدّق إلى بياضها بحزن كأنه يشعر بانهيار روحه ويعجز لم يستبدّ به من قبل، نهضَ مرات عدة وقبلَ أن يضع الفرشاة على اللوحة يتوقف وكأن الفكرة تسربت من بين أصابعه النحيلة المرتجفة وفي كل مرة يعود إلى كرسيه وهو يحدق إلى البياض بخوف وحقد، وكجنرال مهزوم يدخنُ إرادته ناقماً على كل شيء، كنتُ أرقبه من بين اللوحات المتكدسة في المرسم محاولاً ايهامه بالتطلع إلى اللوحات والكتب المتناثرة بعبث على أرض المرسم، وعلى الرغم من إدراكي حقيقة عجز الفنان في بعض الأحيان والتي أسميها بالعنّة المؤقتة وأدرك تماماً مرارةَ الحالة لاسيما إذا كان في هياج روحيّ ولاوعيٍّ منتعظ واللوحة أمامه تراودهُ عن نفسه عاريةً لا تطيق الانتظار، إلا أني لا أعتقد أن هذا هو السبب الحقيقي وراء ممانعة الفكرة اليومَ للرسام الكبير الذي روّض قبلها آلاف الأفكار الجامحة بل إن السبب يكمن في ما حدثَ في سهرة الأمس (. . . . .) وما تلاهُ من تلبدٍ في الروح الماطرة حقداً.

عرفتُ الرسامَ الكبير في بداية هذا العام وصرتُ أزوره في البيت أو المرسم فعرفتُ فيه إلى جانب الإبداع الحقيقي والوعي والرهافة إنساناً كبيراً ومتواضعاً (تواضع العارف والمترفع على صغائر الأمور) يسعى إلى الحفاظ على إنسانيته بشجاعة وحب، وكلما جلستُ إليه تذكرت عبارة رولان بارت:

(الفنان الحقيقي لا يعرفُ الضغينة)

منذ طفولتي وحتى اليوم وأنا كلما سمعتُ أو قرأت تحليلاً نفسياً لحياة وسلوك المبدعين أجدني أبحثُ فيه عمّا يخصني وعن القواسم المشتركة التي بيني وبينهم حتى أنني في مراهقتي حينما قرأتُ شعر بدر شاكر السياب كنتُ متيقناً بأني سأموت قبل أن أتجاوز الأربعين بل كنتُ أتمنى لو أن لي وجهاً قبيحاً تنفرُ منه الصبايا كي أكتب شعراً أتسول فيه عطفهن، لذا فأني حينما قرأتُ عبارة رولان بارت هذي شعرتُ بأن كارثةً تحل بي فأنا والحق أقول أحقدُ حتى على الزهرة لأنها تهيجُ الحساسية في أنفي وتصيبني رائحة العطورِ الطيبة بالصداع، لم أرَ إنساناً إلا وتبدتْ أمامي سيئاتهُ قبل حسناته بل حتى قبل معرفة اسمه، لذا فأني وقفتُ أمامَ احتمالين لا ثالث لهما، إما أن أكون لستُ بمبدع حقيقي أو أن رولان بارت (الذي أحببتُ كتابهُ ـ لذةُ النص ـ حباً كبيراً وأعدتُ قراءتهُ مرات عدة) لايعرفُ (معرفة تطبيقية) سايكولوجيا الإبداع وسلوكية الفنان اليوميّة، وقد رجحتُ الإحتمال الثاني لأنه يحفظ لي ماء وهمي بأن أبقى أمام نفسي (على الأقل) فناناً حقيقياً وعزائي في ذلك بأن هناك الكثير من المبدعين الحقيقيين لو اعتصرتهم لن تحصل من أرواحهم على قطرة حبٍ أو مثقال طيبة، فماذا يقول السيد بارت عن لوتريامون، رامبو، المتنبي أو نيتشه بل حتى سورن كيركغورد الذي يدّعي الإيمان بالسيد المسيح والمحبة وغيرهم الكثير من جيوش المبدعين الحاقدين على كل شيء و (محتقرٌ في همّتهم كل ما قد خلقَ اللهُ وما لم يخلق) وإلا ما معنى أن ينتحر المبدع إن لم تحاصره الكائنات التي لا يحمل لها في كوامنه مثقال مودّة أو لا يشعر بأنها تستحقُ عناء مسؤولية يتحملها نيابةً عنها.

لكن هل حقدُ الفنان هو حالةٌ مَرَضية أو كحقد الدكتاتور؟ لا أظنُ ذلك، فحقدُ الفنان هو وجهٌ آخرُ للحب المقموع بجهلِ الآخرين فهو حمارٌ

ليس لافتنانه بذيله (كما تدعي العرب) بل لصبره على تجاهل الآخرين. الفنان الحقيقي كالعاشق تماماً.

يذكرُ الكاتبُ والقسّ الدنماركي يوهانس ميله هافن في كتابه عن الحب حادثةً كان شاهداً عليها حيث يقولُ بأنه حينما كان صبياً كان يشاهدُ كل يوم في طريقه من المدرسة عاشقين متعانقين بهيام قلّ نظيره ثم تزوجا وصارا أسعدَ زوجين، وحينما أنهى دراسته في اللاهوت وعُيّنَ بوظيفة قسّ زار أحد السجون الدنماركية للوعظ فشاهد الرجلَ نفسه هناك سجيناً وعندما سأله عن الجرم الذي أودعه السجن عرف بأنه قتل زوجته. يستنتجُ الكاتب من هذه القصة (وهو لم يسمع بالتأكيد عن قصة الشاعر الحمصي ديك الجن) بأن الحقد هو الوجهُ الآخر للحب.

ولأن الفنان الحقيقي عاشقٌ وإرهابي متطرف لذا فأنه بوتقةٌ لهذين النقيضين يمتزجان فينتجان عنصراً ثالثاً أو ينفصلان فيطغي أحدهما أحيانا بوضوحٍ، ولو استطاع ناقدٌ نفساني أن يحللَ لوحةً أو قصيدة لظهر الفنان عارياً إلا من ورقتين تغطي عورتيه، ورقة الحب وورقة الحقد، ويتجلى ذلك واضحاً في موقف الشاعر من المرأة فهو يعشقها حد العبودية ويقتلها في كل قصيدة، بل حتى القصيدة أو اللوحة لم تسلم (لأنوثتها) من مديةِ حبه وحقده فهو يمارسُ الحب معها كل ليلةٍ ويقتلها (بطرقٍ مختلفة) في الصباح:

(بآخرِ أيام شعريَ
أدركتُ أن القصيدة خائنةٌ
يا إلهي
قد أمتلأ القلبُ شيباً

أمزقُ أوراقَ شعري

تُرى ؟

أم سأقتل في كل ليلٍ قصيده؟)

ـ قصيدةٌ كتبتُها في مراهقتي بعنوان (شهريار) ـ

* * *

(سمير صالح) فنان تشكيلي شاب ووسيمٌ جداً يكبرني بثماني سنوات عرفتهُ ببغداد في بداية عام ١٩٧٥ ، عرّفني إليه أخوه الذي كان زميلاً لي في معهد التكنولوجيا ، شاب هادئ منطو على نفسه يخفي ألماً في روحه لا يبوح به حتى لأخيه ، قارئ شعر من الطراز الأول يحفظُ للمعري ورامبو وعمر الخيام الشيء الكثير ، غرفتهُ مليئةٌ بالكتب الفنية والفلسفية واسطوانات الموسيقى الكلاسيكية التي لا يستذوقها فحسب بل إنه يستطيع الحديثَ عنها حديثَ ذي إلمامٍ ومعرفة . تطوعَ في نهاية الستينات في صفوف المقاومة الفلسطينية وعاد إلى بغداد بعد أحداث أيلول في الأردن " هل يا تُرى كانت هذه التجربة وراء يأسه وصمته؟ " هكذا كنتُ أخمن وقتذاك . قرأ شعري فأبدى ملاحظات ذكيةَ وفتح لي قلبهُ ومكتبته بكرمٍ نادرٍ وأول كتاب أعارني كان رواية (دروب الحرية) لجان بول سارتر الذي لم أكن أعرف عنه شيئاً سوى ارتباط اسمه بكلمة (الوجودية) التي هي الأخرى لم أكن أعرف عنها سوى ما تتلقفهُ الآذانُ من مفرداتٍ تدعي الثقافة ، وقصةٍ ظريفةٍ عن أول خيبةٍ لي في حب ابنة الجيران بسبب كتابه (الوجود والعدم) .

"إنه وجودي إذاً "

هكذا قررتُ بسذاجة وعلّقتُ على هذه الفكرة سلوكَ سمير الغريب وانطواءه وعبثه وكرهه للمرأة والحياة. صرنا نلتقي كل يوم تقريباً وصار دليلنا إلى الأماكن الثقافية ببغداد فكان لنا برنامجٌ يومي لزيارة المعارض الفنية والمسارح واتحاد الكتاب، حضرتُ معه أولَ وآخر مرة حفلةً للفرقة السيمفونية العراقية فجلسنا في الصف الأمامي مُصغين إلى موسيقى بيتهوفن التي أشعرتني بالخجل، فقد دبّ الضجرُ في نفسي بعد بضع دقائق من بدء العزف ولم أستطع الاستمرارَ في تمثيل دورَ المُصغي المتذوق فرحتُ أتطلعُ في وجوهِ الحاضرين لعلي أكتشفُ فيهم زيفَ ادّعاءٍ يكون عزاءً لجهلي.

دعاني مرةً إلى بيتهم كي يُريني لوحتهُ الجديدةَ وقد كان مبتهجاً على غير عادته، ابتهجتُ لابتهاجه ولدعوته لي وهنأتهُ على خروجه من كسله وعودته لممارسة الرسم بعد انقطاعٍ طويل. وضعَ لوحتهُ الجديدةَ على منضدةٍ صغيرة أمامنا وجلس قبالتنا يحدقُ إلينا بشغف كأنه يريد اختبارنا أو أن يرى رد فعلنا، امتعضَ وجهُ أخيه لسبب أجهلهُ بينما رحتُ أحدق في اللوحة باحثاً عن رأي أو بالأحرى مستجمعاً معرفتي في البحث عن كلمات تثاقف أعبرُ له فيها عن أي رأي، التقطتُ تصوراً أولياً من عنوان اللوحة الذي كتبهُ بخط مرتبك، كان عنوانها (حواء) وعلى خلاف لوحاته السابقة التي تنمّ بألوانها الهادئة وعمقها الروحي عن روحٍ شفافة مهذبة، جاءت هذه اللوحةُ صاخبةً تخفي هوساً مكبوتاً واضطراباً نفسياً واضحاً. سريرٌ محترقٌ وامرأة عاريةٌ يسيلُ جسدُها لزجاً على الأرضِ كساعات سلفادور دالي ويبرز وجهها من بين اللهيب متوحشاً كوجهٍ من الوجوهِ التي نراها في لوحات غويا.

"ها، ما رأيك؟"

سأل بقلقٍ وقد أربكني إلحاحُهُ لسماعِ رأيي فقلتُ:

"أرى هوساً شبقياً مكبوتاً"

وقبلَ أن أضيف إلى عبارتي قاطعني:

"لا، لا، لم تحزر"

ثم أردفَ مجاملاً:

"ربما هنالك شبقٌ وهوسٌ في اللوحة ولكن ليس ما تراه هوساً شبقياً"

بدا لي أنه غير مقتنعٍ بما يقوله وقد كان كذلك فعلاً حيث أنه أضاف بارتباكٍ:

"بلى هناك هوسٌ شبقي ولكن في امرأة اللوحة وليس عندي "

بدا لي ضعيفاً أو أنه يحاول أبعاد تهمةٍ ثابتةٍ عن نفسه فاستبدتْ بي رغبةٌ للدفاعِ عن رأيي فقلتُ:

"ولكن لماذا كل هذا التوحش إزاء المرأة؟ "

توقفَ قليلاً ثم قال متهرباً من الجواب أو هكذا خمنتُ:

"المرأةُ كائن قبيح"

وحينما قرأ في وجهي علامةَ استنكارٍ ومعارضة أضافَ بإصرار:

"نعم المرأة كائن قبيحٌ وقذر"

"ولكني أرى لو أن للجمالِ رمزاً لكان امرأةً"

قلتُ ذلك بنبرة هادئةٍ استفزتهُ فارتفعَ صوتهُ بغضب وقحٍ:

"لو كان في المرأة جمالٌ فهو جمال القبح لا غير"

نهضتُ محاولاً إنهاء النقاش الذي دخلَ منطقة الخصام، ولكيلا أتركَ له فرصةً للاعتقاد بأني أخرجُ منهزماً أو متهرباً من مواصلة النقاش قلت مُفتعلاً سخريةً لاذعة:

"قبحُ الجمال، جمالُ القبح! هه سفسطةٌ فارغة"

خرجتُ وأنا متيقن بأن وراء كرهه للمرأة تراجيديا حب فاشلٍ أو ادعاءٍ ترفعٍ على ما يشغلُ البشرَ في حياتهم اليومية.

بعد ثلاثة أيام التقينا مساءً في حانة (سرجون)، حاولتُ أن أستغل هدوءه لأزيل ما قد علق في نفسه على أثر خلافنا حول تفسير اللوحة فقلتُ ملاطفاً بعد أن رفعت كأس العرق موجهاً كلامي نحوه:

"بصحة المرأة التي روضت الوحش أنكيدو"

ضحك زهير بخبث وهو يحدقُ في وجه أخيه الذي تشنجتْ عضلاتُ وجههِ وتوقفتْ يده التي تحمل الكأسَ في منتصف الطريق إلى فمه ثم قال مصححاً:

"بصحة العاهرة التي خدعتْ أنكيدو"

قال عبارته وعبّ كأسه دفعةً واحدة فضحكتُ مُبدياً إعجاباً بفطنته ومُعترفاً له بالغَلبة هذه المرة فقد جاء في ملحمة جلجامش بأن التي روضت أنكيدو كانت بغياً.

لم أكن أدري أن عبارتي هذي ستكون الكلاّب الذي يقلع أظفر الذكرى الأسود ليتدفق الدمُ المقروت، فراحَ يدخن بشراهةٍ ويعبّ الكأس تلو

الأخرى محاولاً إخفاء قلقه وإخماد مشاعره لكن السُكر أفلتَ لسانهُ فأباحَ لنا:

"أحببتُها على الرغم من كرهها للرجال، الكره الذي لا تخفيه والذي فسّرتهُ نتيجة لطلاقها من رجل أحبتهُ، حاولتُ مساعدتها لتجاوز أزمتها وقد استطعتُ ذلك ملفتاً نظرها إلى ضرورة الاهتمام بطفلها الذي لم يكملْ عامهُ الأول بعد، لا أستطيعُ القول بأنها أحبتني إلا أنها كانت تتظاهر أمامي بذلك"

صمتَ قليلاً فوجدني مصغياً إليه استحثه على مواصلة الحديث فقال موجهاً كلامه نحوي بأسلوبٍ لا يخلو من النزقِ والفظاظة:

"لا تكنْ جاداً بإصغائكَ إلي فالأمر لا يستحق ذلك، إني أتحدثُ مع نفسي"

ابتسمتُ له بودّ أخجلهُ فاستأنف حديثه المتقاطع مع أصواتٍ أخرى تخرج من أعماقه مُشكلةً حواراً ساخناً بين أعداءٍ يتبارزون:

"كنا عاريين في السرير وكان الطفل نائماً جنبنا كملاك، وقبل أن تصل الى ذروةِ متعتها بكى الطفل فتوقفتُ عن" .....

توقفَ باحثاً عن مفردة مهذبة فقد حرصَ وهو يروي الحادثة أن ينتقي مفرداته بتهذيبٍ وحذرٍ شديدين ربما أراد للغتهِ أن تعيد شيئاً من طهارة الروح المحاذية للدنس:

"توقفتُ عن الـ . . . . الرهز"

قالها بحياءٍ كأنه يعترف بانهزامه أمام اللغة وبضيقِ قاموسهِ أو كأنه ينقادُ إلى طقس العملية الجنسية بالشبق نفسه وباستسلامٍ مهين:

"صرختْ بي برعونة أن أواصل وقد أطبقتْ كفّها بحقد على فم الطفل لتكتمَ صراخهُ متأوهةً بعهر كي تثيرني لكن نظرات الطفل الّذي ازرقّ وجههُ كانت تخترق جسدي فانطرحتُ جانباً كقطعة ثلج، وحينما رأت الغصن وقد طأطأ رأسه خجلاً وما من مرتجى فيه، انهالت على طفلها بالضربِ كأنها تثأر منه لـ . . . . . دودتها التي انسحقت تحت نعال الشهوة"

لم أجد حينذاك في ما رواه سبباً كبيراً للنقمة التي يحملها لا على المرأة فحسب بل على الكائن البشري والحياة بشكلٍ عام، لكن حزنهُ العميق وكآبته المَرَضية جعلتني أعلقُ رأيي حول الموضوع فليس الذي تُروى له قصةٌ مثل الذي عاش أحداثها فقلت ملاطفاً ومحاولاً تهوين الأمر عليه:

"لستَ وحدكَ الذي مر بتجربة كهذي ألم تقرأ ما قاله إمرؤ القيس؟ "

ورحتُ أقرأ:

فمثلك حُبلى قد طرقتُ ومُرضع

فألهيتُها عن ذي تمائمَ محول

إذا ما بكى من خلفها انصرفتْ لهُ

بشقّ وتحتي شقّها لم يحول

خطأ آخرُ ارتكبتُه تلك الليلة من حيث لا أدري فبعد قصة البغي وأنكيدو التي كانت بدايةً للحوار الذي قررتُ منذ البدء أن أتحاشى الدخول فيه جاءت حماقتي الثانية بعكس ما أردتُ لها، فما أن أنهيتُ قراءة بيتي الشعرِ حتى ضربَ سمير الطاولة بقبضته غاضباً موجهاً كلامه نحوي:

"ألا ترى . . . ؟ منذ إمرئ القيس وحتى اليوم والمرأة هي المرأة، أليس هذا يعني بأن القذارة صفةٌ غريزية في المرأة؟ "

قاطعتهُ وبنبرةِ صوته نفسها قلتُ:

"ولكن لماذا تنسى أن من بين الرجال ثيراناً يغتصبون المرأة ويقتلونها و" ....

"إنكَ تتحدث عن رجالٍ مرضى وشواذ وأنا أتحدثُ عن المرأةِ كجنس"

"أنتَ كذلك تتحدث عن نساء شاذات"

قلتُ بغضب فتأففَ واضعاً رأسهُ بين ذراعيه محاولاً إنهاء الحوار الذي كان يظنه غير متكافئ، نهض إلى دورة المياه فسمعناه يتقيأ بمرارة وألم، قررت أن أصمتَ مهما حاولَ استدراجي إلى حوارٍ عقيم يزيل خثرة الدم عن جراحه فيؤلمه نزفُها. عاد إلى حيث نجلسُ وبخجلِ السكرانِ من مضايقة جلسائه بالهذيان أو التقيؤ قال:

"القيء أفضلُ هديةٍ أقدمها للحياةِ بمناسبة عيد ميلادها"

ثم عاد موجهاً كلامه إلي:

"ألف وخمسمائة سنة تفصل بين تجربة عاشها إمرؤ القيس والتجربة نفسها عشتها أنا ومتغيراتٌ حضارية كبيرة طرأت على البشرية ومسافةُ وعي طويلة ما بين امرأة بدوية جاهلة ضاجعها إمرؤ القيس في صحراء ومهندسة معمارية ضاجعتُها في بغداد لكن المرأة هي المرأة "

توقف قليلاً وعيناه تقدحان غضباً ثم خاطبني بخبثٍ وعدوانية:

"هه أهذي سفسطة فارغة؟ "

تطلعتُ إليه صامتاً فشعرَ بنشوةِ انتصارٍ وأضاف:

"قد تقول بأن الرجل هو الرجل كذلك"

هززت رأسي موافقاً فقال:

"لا ، ألم ترَ أن إمرئ القيس قال ذلك مُفاخراً برجولته في الوقت الذي أشعر أنا بالعار من العيش بتواطؤ مع الكائنات القذرة"

كان بودي أن أعارض كل كلمة قالها سمير تلك الليلة ولكن وجدتني أتفق معه تماماً، ربما بسبب نُبل المشاعر التي كان يحملها وصدق المعاناة التي سبّبها له جرحُ اكتشاف الواقع على حقيقته الملموسة أو ربما بسبب الكبت الجنسي والعاطفي الذي كنتُ أعاني منه بسبب غياب امرأة الحلم وتجنبي الاقتراب من عالم المرأة الذي يتطلبُ الدخول إليه قدرةً عاليةً على تمثيل دور المهرج الذي لا أجيدُ تقمصه فصارتْ المرأة أمامي كعنقود العنب العالي وصرتُ (ربما بلا وعي مني) بحاجة ماسة لمن يؤكد وهمي بحموضة العنب وقد وجدتُ ذلك في آراء سمير.

لا أدري أن كان هذان السببان كافيين لتبرير اتفاقي مع سمير وانحيازي إليه مُدافعاً عن آرائه بل متحمساً إليها، أتبناها حينما أكون مع الآخرين حتى لامَني زهير وأنّبني رفاقٌ لي في الحزب الشيوعي خاصة وأن عام ١٩٧٥ كان عام المرأة العالمي وكانت قضية الأحوال الشخصية والمساواة على رأس قائمة القضايا التي شغلت الوسط الحزبي والثقافي في العراق. أتذكرُ مرةً دُعيتُ إلى حفلة مختلطة من رفاق ورفيقات، جلستُ صامتاً أرقب حركات الرفيقات المفتعلة وإشاراتهن الرجولية وأصغي إلى أحاديثهن الساذجة عن سيمون ديبفوار وروزا لوكسمبورغ، وحينما طلبوا مني أن أقرأ شعراً قرأتُ قصيدةً عن المرأة لم يفهموا منها شيئاً، لا أتذكر الآن منها غير المقطع الأخير:

"امْ

رأةٌ

أولُ البيت

لكنها

تدخلُ المتداركَ ناقصةً"

تدهورَ وضعُ سمير النفسي فصارَ لا يغادر غرفته ويضيق ذرعاً بأقرب الناس إليه، حتى زهير صار يخفي عني أخبار أخيه ويتهرب من سؤالي المتكرر عنه يومياً مما اضطرني إلى زيارته في البيت دونما موعد فارتبكَ زهير وقرأتُ على وجهه حرجاً غريباً، جلسنا في غرفة سمير نحاول استنطاقه بأي حديث إلا أنه ظل صامتاً وعيناه تخترقان الجدارَ بنظرات ساهية، وبين الحين والآخر تصدرُ عنه جملةٌ غريبة أو ضحكة بلهاءُ يطلقها غير آبه بنظرات الشفقة التي ارتسمت على وجهي بالتأكيد ولا بحرجِ أخيه، وحينما يئستُ من إخراجه من عزلته خاطبتهُ بالحديث الأثير إلى نفسه فارتكبتُ حماقةً أخرى من حيث لا أدري:

"سمير ! أتعلم بماذا تخاطبُ امرأةٌ ريفيةٌ طفلها الباكي؟ "

فزّ من غفوته مُصغياً إلي ببلاهة مجنون فرحتُ أقرأ عليه:

"لو تبجي كل الليل أبداً ما أهزّكْ

لو جنتْ ابنْ هواي جان إشْ مَعَزّكْ"

قفزَ عن سريره بحركة غريبة وراح يدوّنُ ما قرأتُ مردداً بيت (الدارمي) بصوت عالٍ محركاً يديه بإشارات غضب كأنه يؤدي دوراً مأساوياً على خشبة المسرح

توفي والدي في ٢٩ / ٢ / ١٩٧٦ وعلمتُ بالخبر بعد خمسة أيام فسافرتُ إلى (الكوت)، بقيتُ هناك عشرة أيام وحينما عدتُ إلى بغداد وجدتُ خبراً آخرَ بانتظاري.

لقد انتحر سمير صالح في غرفته شنقاً يوم ٩ / ٣ / ١٩٧٦ .

* * *

ما الذي يجعلُ شاباً لا يؤهلهُ عمرهُ الغضّ ولا تجربتهُ الفتية أن يدرك حقيقةً لم يستطع غيره إدراكها؟ وأي شيء يمنحُ هذا الشابَ الجرأةَ على إعلان يأسه من الحياة ليعلن رفضهُ المطلقَ لها بالانتحار؟ حقيقةٌ توصل إليها الملكُ سليمان بعد خوض بحار من التجارب ليعلن أن (لا شيء جديد تحت الشمس) و (كل شيءٍ باطلٌ وقبض ريح) كما وردَ في (سفر الجامعة) فكيف يتسنى لشاب طري العود وبتجربة حياتية متواضعة أن يصل إلى حقيقة بطلان الأشياء؟ قد يقول قائلٌ بأن هذا الشاب دعيّ أراد أن يلفتَ الأنظارَ إليه، ولكن حينما يؤدي هذا الادعاءُ بصاحبه إلى اتخاذ القرار الخطير (أعني الانتحار)، تصبح عندئذ تهمةُ الادعاء تسفيهاً لألمٍ جليل. وما الذي يجعلُ الفنانين أكثر الناس عرضةً للانتحار؟ ألأنهم أكثر الناسِ حساسيةً فهم لا يحتملون وطأةَ جهل هذا الكائن في دوامة الحياة؟ أم لأنهم منساقون بحدوس تنبئهم عن غيابِ النجم الهادي لميلاد الأمل أو المنقذ؟ أم أنهم ملائكةٌ يُرعبها دنسُ الكائن البشري في ممارساته اليومية، الكائنِ الذي يبحثُ في القمامة عن فتات متعة أو الدائر حول نفسه يدير طاحونة الغباء؟ . . . . . ، أسئلةٌ كثيرة يفرضها موتُ الفنان مجازاً فكيف إذا كان هذا الموت حقيقةً أو فناءً يختاره الفنانُ بمحض إرادته؟ وصعوبةُ اتخاذِ مثل هذا القرار يُلغي التهمةَ عن

صاحبه مهما كانت الأسبابَ والدوافع، ولا أعتقدُ أن تجربةً واحدةً تدفعُ الإنسانَ إلى الانتحار، لا الفشل في علاقة حب ولا الفقر ولا غيرهما من الأمور التي تعترضُ الإنسان في حياته الخاصة وإنما للانتحار دوافع تكمنُ في مشكلة تمسّ جوهره كإنسان، إنها خيبةُ إنسان يطمحُ إلى تجاوز نفسه فيصطدمُ بحقيقة عجزه الأزلية، يطمح إلى سموّ ونقاء يليقان بمكانته بين الكائنات الأخرى على هذه الأرض فيصطدم بحقيقة تشابهه معها في أغلب ممارساته اليومية، حيث يتطابق سلوكه كإنسان مع الحيوانات والحشرات في الأكل والشرب والنوم وممارسة الجنس، ولما كان الفنانُ إنساناً مختلفاً عن بني جنسه بدرجة الحساسية وبمشاغله التي يضيق بها محيط دائرة (الأكل، الشرب، الجنس . . . . الخ)، عندها ستكون للخيبة أجراسٌ تقرعُ في وجدانه المرهف، تؤرقهُ ويظلُ رنينها يذكره باللاجدوى.

"إلى أين تسعى يا جلجامش ؟

إن الحياةَ التي تبغي لن تجد"

هكذا قال الشاعرُ العراقي قبل آلاف السنين على لسان نادلة الحانة، ولمَ الحانة؟ هل أراد الشاعر أن يقول لنا إن هذه الحقيقة لا تُدرك بالعقل بل إنها تُدركُ بالروح المنفلتة من عقال العقل وبالوجدان السابح في فضاء الرؤيا المُنزّه عن الأدران والشوائب؟ وهذا ما يسعى إليه الصوفيّ والفنان، فكلاهما وعلى الرغم من كونه لا ينفصلُ عن مجتمعه بتقاليده وأفكاره وموقعه الحضاري، إلا أن العملية الإبداعية لكونها توحداً مع الذات (بل مع الذات المتسامية) لا مع الآخرين تشعره بأن طاقات كبيرةً كامنةً فيه لا تصلحُ للتوظيف في سوق الواقع اليومي الذي يتخبطُ الإنسانُ في مستنقعه كالضفادع أو كالجواميس.

عشرون عاماً مضتْ على انتحار صديقي سمير صالح وعشرين أرضاً طويتُ، التقيت بعشرات الشعراء والفنانين ولم أرَ من بينهم مَن تنطبق عليه عبارة رولان بارت (الفنانُ الحقيقي لا يعرفُ الضغينة)، أحدنا مخطئ بالتأكيد إما أنا وإما بارت نفسه لم يرَ التناقض الصارخ ما بين روح الفنان والآخرين والذي ينتج بدوره نفوراً وضغينةً في نفس الفنان.

في المرسم مازال الفنانُ الكبير يحاول ترويض حماستة الجامحة، يخرجها من قفصه لكنها سرعان ما تتمرد عليه، ينهالُ عليها بالسياط فتضحكُ ساخرة منهُ، يُعيدها إلى القفص ثانيةً ويكرر التمرين وهكذا، وأنا مازلتُ أرقبه محاولاً إيهامه بالتطلع إلى اللوحات حينما لامستْ كتفي كفٌّ ناعمة، التفتُّ فرأيتُ سمير يقفُ خلفي وقبل أن أعانقه أو أنطق بكلمة أمسك بكفي وسحبني خلفهُ إلى الشارع الذي لا يشبه شارع الرشيد أو السعدونَ في المدينة التي تشبه بغداد قليلاً.

"ما الذي جاء بك إلى هنا؟ "

"دعتني حيرةُ الرسام الكبير فجئتُ لمساعدته ولكن حينما رأيتكَ في مرسمه هاج بي حنينٌ إلى بغداد والناس وإلى نقاشاتنا الساذجة"

"أتقول الساذجة؟ "

"نعم"

"قل لي يا سمير متى يكونُ الفنان حقيقياً؟ "

"حينما يتخلص من الضغينة"

"ومتى يتخلص من الضغينة؟ "

"حينما يتحدُ مع ذاته العليا"

"ومتى يتحدُ الفنانُ مع ذاته العليا؟ "

"في لحظة تنفيذ القرار"

"أي قرار؟ "

"قرار الانتحار"

"لم أفهم"

"خذ الرسام الكبير مثلاً لماذا لم يستطع اليوم أن يمسك الفكرة؟ "

"لا أدري"

"لأنه ميتٌ رغماً عنه"

" ..... "

"أمس حينما أراد أن يفرض ذاتهُ بنصيحة يقدمها لابنته المراهقة صرختْ بوجهه متهمة إياه بالغباء وبالتعفن العقلي فإن كانت ابنتهُ على حق فهذا يعني أن الزمن تجاوزه وهذا يعني أنه ميت ، وإن كان هو صاحب الحق فهذا يعني بطلان حجته في الحياة فما نفع أمطاره الهاطلة على أرض بور؟ "

"وما علاقة هذا بالضغينة؟ "

"كلّ حيّ فاقد لإرادته فهو عبد"

" ..... "

"وكل عبد حاقد"

"إذن ليس هناك فنان حقيقي"

"بلى ، الفنان الحقيقي مَنْ يرسم لوحة واحدة عنوانها الحرية"

مددتُ له كفي مودعاً حينما وصلنا الجسر فتطلع إلي بذهول وسألني:

"ألن تأتي معي؟ "

"لا ، زوجتي بانتظاري"

"هل تزوجت؟ "

وانفجرَ ضاحكاً...

ابتعدت السيارةُ وأنا أطل من النافذة إلى سمير المنتصب على خط الأفق شجرةً خضراءَ، خضراءَ كالحلم. ولأني مازلتُ متمسكاً بخيط الأمل فقد حاولتُ اجتراح نهاية تحفظُ لي وللرسام الكبير ماء وهمنا، كانت السيارةُ تغيّرُ راكبيها في كل موقفٍ وكنتُ صامتاً أرى الرسام الكبير:

فجأةً ستحطّ فراشةٌ ملونةٌ على الطاولة بالقرب من اللوحة العارية، ستراود الرسام عن نفسه بغنجِ مراهقة لعوب وهي تفتحُ وتطبقُ جناحيها بغريزة أنثى، حينما سيرفع الرسام رأسه ستلفتُ نظره تلك الحركة الأنثوية الملونة، سينهض الرسامُ بحذر شديد كيلا يفزعَ فراشته، سيمررُ فرشاتهُ على اللوحة بألوان متداخلة بحركة تشبهُ حركة انطباق وانفراج الجناحين وستجترحُ الأفكارُ اللونيةُ نفسَها بغبطة الاكتشاف المتسامية ! زمن قصير سيمر حتى يضع الرسام فرشاته جانباً معلناً أمام نفسه ـ ربما بزهوٍ مبالغ فيه ـ اكتمال اللوحة ولكي يردّ الجميلَ إلى هذه المخلوقة المُلهِمة سيداعبها بنظراته، يمسكها بحذر ويضعها على راحة كفه، وكعادته باستصغار المخلوقات سيسدي لها النصائح مُشفقاً على ضعفها الطاعن في الجمال، ربما سيسمع صوتاً يتردد صداه في المرسم:

"وفّرْ نصائحكَ لنفسكَ أيها الخرِف، أيها العقلُ المتعفن"

عندئذ سيحاول سحقَ الفراشة ـ بحقد ـ إلا أنه يتوقف متذكراً لوحته المستوحاةً منها فيكتفي بتحريك يده فتتسرب من بين أصابعه الناحلة كفكرة عابرة، سيترك جسده غاطساً في الكرسي وسيغمضُ عينيه مُنصتاً إلى صوتِ المطلق في حفيف الأوراق المتساقطة مختلطاً بموسيقى فيفالدي الصادحة من آلة التسجيل.

* * *

فايله / الدنمارك
تشرين الثاني ١٩٩٦

أغنية (٢)

على بابي سأكتبُ جملةً
"أنا لستُ موجوداً"
وأنتظرُ الوجودَ يمرُّ من شرخِ الجدارِ
وربما
ريحٌ ستهدمُ ما يسوّرني
وتقرأُ في الحطامِ عبارةً
"أنا كنتُ موجوداً ولكنْ" .....

دمشق
١٩٩٦/١٢/٢٤

Plejehjem

.....هولا يتذكر متى جيءَ به إلى هذا المكان، المكان الذي فيه يُعد المسافر نفسياً إلى الرحلة الأبدية بينما جسده تنخرهُ عثة الانتظار بعد أن أنهت نخرها والتهامها الشيء الذي يسمونه الأمل، هنا أدرك سرَّ انشغال الناس عن الحقيقة على الرغم من إدراكهم بأن ساعة الرحيل قادمة لا ريب فيها، فحينما كان شاباً كانت أمور كثيرة تشغله عنها، قوته، طموحه، نزقه . . . الخ فنسيَ آخرة المطاف لبعدها عنه، أما الآن وقد نزلت الشمس إلى غروبها ولم يتبقَ منها في الأفق سوى قوسٍ نحيل شاحب وأصبح الرحيل بين لحظة وضحاها، كيف له أن يتقبل الحقيقة المرة هذي؟ قد تبدو المسألة بالنسبة إلى الكثيرين أمراً صعباً لكنها ليست كذلك فالمرء بعد أن يستنفد طاقته على التشبث بالحياة ويفقد رغبته بالمواصلة عندئذ يصبح الرحيل أمنية وخيبة الإنسان الأزلية تصير عزاءً ومن هنا تأتي الحكمة وتكون عبارة (كل شيء باطل وقبض ريح) خلاصة تجربة كل إنسان إنْ خاض بحاراً من المتعة والغنى كسليمان بن داود أو كحال (جبر) الذي لخص حياته بعبارة واحدة أوصى أن تدون على شاهدة قبره . . (جبرٌ، من بطن أمه للقبرْ) ، هذا حينما يستطيع الإنسان أن يحافظ على يقظة وعيه أما إذا أصيب بالخرف فسيكون عنده الأمر سيان حيث أنه سيتحرر من سطوة التفكير في أمور كهذي .

في هذا المكان يتم ترويض الإنسان على الخمود لإعداد النفس والجسد إلى الغفوة الأبدية، تُلبّى كل مطالبه كحال المحكوم بالإعدام في ليلته الأخيرة،

يأكل بنهمٍ ويدخن بشراهة ويعبُّ ما يشاء من الدواء فالأيام القليلة المتبقية له في ذمة القدر لا تستحق لحظة ألم واحدة.

بعد أن انتهى الطبيب من فحصه أخبره بأنه لم يعد قادراً على تدبير أموره اليومية بنفسه وعليه إذن أن ينتقل إلى السكن في الـ ((Plejehjem . هناك عليه الانتظار في طابور المسنين أمام قاطع تذاكر الرحلة إلى المكان الذي لم يجهد نفسه كثيراً في رسم تضاريسه.

في الصباح جاءته ممرضةٌ شابة تجيدُ زراعةَ الوهم في النفوس بابتساماتها الرقيقة وعنفوانها الجامح وراحت تسأله عن الحاجات المهمة التي سيأخذها معه إلى مقر سكنه الجديد بينما كان هو جالساً على كرسيه يدخن سيجارته بكبرياء وحزن، لم يجبها على سؤالها فأدركت الممرضة ما يدور في ذهنه في هذه اللحظات فراحتْ تلاطفهُ بكلمات تشير فيه نشوةَ إيقاظ أناه النائمة فسألته عن مؤلفاته الكثيرة وتجاربه العميقةَ في الحياة ممثلة دور تلميذة تقدم الولاء والاحترام إلى أولئك العظام ! الذين سيتركون لهذه الحياة آثاراً خالدة ستمنحهم الخلود في نفوس الأجيال القادمة. لم يكن حريصاً على شيء من أشيائه وكأنه أراد أن يقول " بأني راحل كما جئتُ أول مرة. "

الـ (Plejehjem) بناء واسع يتكون من عدة غرف متقابلة مع بعضها وصالة كبيرة للقاء النزلاء في أوقات تناول الوجبات والقهوة وللعب الورق أو الشطرنج، وكنيسة صغيرة يرتادها العجائز أيام الآحاد حينما يحضر كاهن شاب وسيم يتحدث عن الله واليسوع والرحيل إلى السماء، هناك حيث يجد المرء السكينة الدائمة من لدن أب رحيم، الشيوخ يرتدون معاطفهم ويعلّقون نياشينهم المتعفنة، قبعاتهم المضحكة يمسّون أطرافها كلما سمعوا حفيف ضحكة قادمة من الماضي ويتهامسون، عيونهم تتقادح تحت الأجفان المرتعشة ، في الدهاليز

يوصوصون مثل جرذان هرمة وفي الصالة ياكلون بنهم ويلعبون الشطرنج ببطء كي يبعدوا نهاية الشاه المحتومة، أما العجائز فذكرى غمازتين وخصر، يترنحن على كراسيهن كنارنجات ذابلة، يثرثرن وأصابعهن تتحرك بملل تحيك زهرةً للأبدية الراحلة بينا هو يتخذ ركناً في الصالة يحدق إلى الحديقة بأزهارها المتجددة أو يركز نظره في الصفحة الأخيرة من رواية أو كتاب.

لم يعد يتذكر كم سنة مرت وهو في هذا المكان ولكن الذي يتذكره هو أنه تحدى توقعات الطبيب والمسؤولين حتى صار مثلاً يضرب لجهل الإنسان بقدره وساعة رحيله، فكم من الوجوه مرت عليه، مكثتْ هنا ورحلت بهدوء ولا يزال هو يصارع الحياة باستعادة ذكرياته يقلّبها كل ليلة وينشرها أمامه يشيد منها قلاعاً حصينة بوجه عدوانية الزمن الغادر أو يخلقُ منها نساءً كسيرات الأرواح يوزع عليهن القُبَلَ أو يمسح جروحهن بالحب يغفر لهنّ خطاياهن ويمنحهن الأمل، مراهقين يوزعُ عليهم النزقَ والنصائحَ فيفرحُ حينما يجد كل ذكرى وقد ارتدت ثوب عرسها ونامتْ، عندئذ يُسدل ضوءهُ ويظل يصغي إلى نبضها وصوت أنفاسها فينام مطمئناً، أو يصغي إلى رمادها الخامد وكأنه ينقرُ على تأريخ الجمرات بسفّود الخبرة. يقضي معظم ساعات يومه صامتاً يطل على الحديقة من نافذة غرفته فلا يرى منها سوى ما توحيه إليه من أماكنَ وأفكار تدبّ في ذاكرته فيشعرُ وكأنها لمسةٌ من يد الله تمر على روحه لتحررها من هذا الجسد الفظ بسطوته القاسية ما بين شبق الصبا ورومانتيزم الشيخوخة، الجسد هذه الكلمة التي أخذت مساحة واسعة من قاموس الكائن الحي، الكتلة المنخورة والمستبدة على الرغم من خوائها كملك أرعن يعتلي العرش فتتهاوى تحت أقدامه رؤوس الملائكة وهو عارف بنفسه المنحطّة ويدرك أن حاشيته المرتعدة عارفة بما يدور في مضاجعه لكنه سادر بجنونه . . . (جسدي ليس له نفس

أفكاري) ردد مع نفسه عبارة رولان بارت التي ظلت محفورة في روحه منذ أن قرأها أول مرة قبل عشرات السنين . . (جسدي ليس له نفس أفكاري) قالها بغيظ وكأنه يرفع عن كاهلِ روحه عبء التردي أو ليسترد ثقته بروحه بإعلانه البراءةَ من الوهن والأدران. النور وحده يكشف تلوث الحياة فيتجمع غبار السنين على نبلة الشعاع المتسرب من النافذة لكنه ومن خلال تجاربه وتمارينه في التأمل وقراءاته للتعاليم الصوفية استطاع أن يتعلم كيف يرفو الثقوبَ التي تسمح للشعاع المغبرّ أن يتسلل إلى روحه ويظل يحدق في موشور قلبه ليرى العالم على حقيقة يتمناها هو ولكي يبقي الضوء في داخله. مرة قال للممرضة الشابة التي كانت تدفعُ كرسيه المتحرك في نوبة النزهة في الغابة :

"أتعلمين أن الشجرة أجمل خلق الله" !

صمتتْ وكأنها راحتْ تحاول فكّ رموز العبارة الغريبة التي نطقها هذا العجوز المتبقي في متحف الحياة كقطعة صلصال من مخلفات زمنِ التكوين، لكنّ المسؤولين في المكان ولطول المدة نشأت بينهم وبينه ألفةٌ حميمة واعتادوا سماع عباراته الغامضة بل راحوا أنفسهم يرددونها بمتعة مَنْ تستيقظ روحه على خواء عاوٍ فحاز على احترام الجميع وصاروا يلبّون له رغباته الغريبة في الخروج للنزهة في الغابة ليلاً " للبحث عن خاتم الله المفقود " أو " لإرشاد لحظة نبيلة ضلتْ الطريقَ " مصغين إلى ما يتمتمُ به من عبارات نافرة المعنى.

* * *

اليوم هو الثاني من شهر كانون الثاني من عام جديد، استيقظ هير حميد مبكراً، ضغط على زر في جهاز الريموت كونترول فأزيحتْ ستارة النافذة، كانت الحديقة مضاءةً ببياضِ الثلج على الرغم من أن الظلام يكون حالكاً في مثل

هذا الوقت من أيام السنة، كان الثلج مازال يهطل بغزارة حتى تحولت الأشجار إلى قامات بيضاء فاكتست الطبيعة بنقاء كضمير ملاك، النهار والليل أول رموز الطبيعة التي تشير إلى عنصرية صريحة ولكن يبقى اللّيل برغم سواده والرمزية التي ألصقها الإنسان به أكثر عمقاً ومهابةً من النهار خاصة حينما يخط الثلج شيباً في ذؤابته فيمنحه وقاراً لا يدركه إلا الضالعون في الحكمة. سحبَ جسده بتذمر إلى الأعلى قليلاً طاوياً الوسادة تحت رأسه وراح يرقب ندفَ الثلج وهي تنزل راقصة من السماء إلى أفق نظره أو ترتطم بزجاج النافذة الذي شكّل الثلج عليه لوحات فنية تنعكس في النفس إيحاءات وأفكاراً تتفتح ببطء كأوراق نبتة جذورها في أعماق الذاكرة، كان الكون يشيع في نفسه البهجة والوداعة فيهمس "اللـــــه"، وعلى ذكر وداعة الكون وكلمة الإعجاب هذي خطر في ذهنه سؤال حول أسماء الله الحسنى وهل (الوديع) من بينها؟ لم يعد يتذكر فراح يردد مع نفسه "الحميد، الوديع، الشاعر، الحالم، المتألم، المتأمل، العاشق، المشوق . . ."، وقد أرخى جسده وأغمض عينيه واستغرق في نوبة تأمل.

" God morgen Hr Hamid "

r "ه" Godt dag

استيقظ من نوبته على صوت ممرضة شابة دخلتْ غرفته تتبعها ممرضة أخرى، مبينةً تذكّر بأن اليوم هو الثاني من أيام السنة الجديدة، وقفتْ إحداهن عند رأسه وراحتْ تمرر أصابعها على جبهته برقة وحنو مذكّرة إياه بأنه قد أنهى دهراً من الزمان، قرّبتْ الممرضة الثانية كرسيه المتحرك من السرير، وقفت الأولى خلف رأسه داسّةً ذراعيها تحت إبطيه فاستقر رأسه بين نهديها الكاعبين فشعر برعشة ودبيب أشاع الدفء في جسده متذكراً نهدي (سهام) فربما سيكون

هذان النهدان آخر عهده باللذة التي لاتزال لها سطوة على جسده ولربما لم تكن لذةً حقيقية بل هي ومضةٌ من شعاعٍ تنبعث من ذاكرة الجسد، مَسَكَتْهُ الممرضة الأخرى من ساقيه وبجهد أخجلهُ حملتاه إلى كرسيه وخرجتا به إلى الصالة، هناك وجد صديقه مصطفى وقد سبقه إلى المكان الذي اعتادا الجلوس فيه متقابلين قرب النافذة.

"هل وصل البريد؟ "

سأل حميد بشوقٍ كأنه ينتظر رسالةً تأخر وصولها.

"لا أدري"

أجابَ مصطفى دون أن يرفعَ رأسه الهاطل على صدره بإهمال، وحينما وضعتْ العاملةُ صحنَ الإفطار وكوبَ الشاي أمامه سألها فَعَلَتْ ضحكتها مدويةً في المكان قارصة خدَّه برقةٍ:

"ومن أين تأتيك الرسائل أيها العاشق العجوز !؟"

أشعل سيجارةً وراح يراقبُ فجوةَ الباب كأنه بانتظار قادمٍ من الدنيا، وحينما يئسَ من قدومه ألقى رأسه على صدره وغفا. جاءت ممرضةٌ وأخبرت مصطفى بأن ولده جاء لزيارته فهبّ حميد من غفوته مرتعشاً وبتوسلٍ راح يلحّ بالسؤال:

"وأنا ألم يأتِ أحد لزيارتي؟ "

نظرت الممرضة إليه بامتعاضٍ وقالت:

"مَنْ يأتيك؟ "

"أحدٌ"

تنهدتْ الممرضةُ بصوتٍ مسموعٍ قائلة بنفاد صبر:

"انظرْ هير حميد أنت رجل وحيد بلا أهل ولا أبناء"

"لماذا؟ "

سألها بحزن وحينما أبدتْ له تذمرها من إلحاحه بكلمات ثقيلة الوطء على روحه، أشاحَ بوجهه إلى النافذة وراح يرقب ندفَ الثلج الراقصة في الفضاء غير أنه سرعان ما قطع صمته موجهاً سؤاله إلى الممرضة نفسها:

"ألم تصلني رسالة هذا اليوم؟ "

" For satan

هل تنتظر رسالة تأتيكَ من السماء؟ "

دوتْ صرختها في المكان فأثارت انتباه النزلاء والعاملين الذين هرعوا إليها مؤنبين فأصفرّ وجهها مدركة فظاظة جملتها وإخلالها بتقاليد الوظيفة، وقفتْ عند رأسه ممسدةً كتفيه معتذرةً عما بدرَ منها فارتسمتْ على شفتيه ابتسامة حزينة وتأرجحتْ دمعتان في عينيه مسحهما بكمّهِ ولكي يخفف من ارتباكها همسَ إليها:

"نعم أنا بانتظارِ رسالة من السماء ولكن من السماء الأولى. "

قال جملته بحزنٍ دافعاً كرسيهُ إلى الوراء بجهدٍ متوجهاً إلى غرفته.

* * *

خارجٌ من المكان إلى الصمت، خارج من الزمان إلى الصمت، حيث أصبح الصمت حيزاً يشغله الفراغُ، فراغٌ متجسدٌ يُرى ويُشم ويُلمس ويُسمع فله دويٌّ يشرخ الحواس جميعها، حيز يشغل الإنسان بعد أن كان

الإنسان شاغلاً له، وحينما يكون الـ (ابن آدم) شاغراً ولا يحتل مقعده غير الذكرى المشوبة بالأسى، ذكرى ماضيها الزمان وحاضرها المكان المنخم بالخواء ومستقبلها الصمت، حينها يأتي الندم على كل شيء، ليس على الأشياء التي يخسرها ابن آدم بعد امتلاكه لها بل على أشياء توهَمَها بل ربما تجده لا يملك، لا يتوهم ولا يخسر بل يندم.

(سُدى)

تركتكَ عند جدولها غريناً لا يجيدُ الرحيلَ فاصطفيتَ الحصى حليةً واصطفتكَ المسافات صوىً لا تشيرُ إلى أيما جهة فالجهاتُ افتراضٌ والمسافاتُ مفازاتٌ تقطعها قوافلُ الذنوب تباهلُ رمالَها وتدركُ خسرانكَ الأكيدَ ولكن لابد من الرحيل إلى جهة الأفق بدون دليل، توازي الطريق، تلتقيان في المدى، ربما، قد يضل الطريقُ فتتبعهُ مثل ظلٍ أو تضلُ الطريقَ وتتبعُ ظلكَ فأنتَ المتقاطع في نقطتين وأقصر الخطوطِ إلى المبتغى كان منحنياً.

(سُدى)

كان البدءُ خاتمةً، بالصفرِ تبدأُ عادةً وللصفر محاورُ تقفُ عليها الأعداد حائرةً وبالصفر يبدأ عدّكَ العكسيُّ كأنكَ واقفٌ والزمان يدور حولكَ مستصحباً الظل فيكَ دورةُ الأشياء، كم مرةً؟ أطفأت شهوةَ الإطفاء، لترى في الماء سرّ الأفول ولا تقوى على غوْر المرايا، كم مرةً؟ كنتَ تُساقُ طائعاً، كأنكَ تخافُ على بقاياَ صوفكَ، لله درُكَ ! ضحيةً تجري خفافاً خلف قاتلها وتعرفُ ذاك مصيرها الحتمي بين وضاعة الرحم ومجزرة الفناء.

(سُدى)

تفرُّ مذعوراً خلف ظلكَ، أنتَ الواقفَ تصدمكَ آلافُ الجدران، جراحكَ وطنٌ يطاردكَ فتهربُ ثم يهربُ كي يطاردكَ، وطنٌ تطارده فيهربُ ثم تهربُ كي تطارده فتلتقيان خصمين، كلاكما ثاكلٌ لبنيه يبحثُ عنهم في ذاكرته، تلتقي وظلكَ كصديقين حميمين فتبوح له بما اقترفتَ من خطايا، ثم يحين الفراق لأنكَ لا تطيقُ على السرّ صبراً فتكرهكَ الظلالُ لأنك لا تستقرُّ على حال وتكرهها لأنها تذكركَ بسواد نيّاتكَ وظلامِ روحكَ الذي تحاول أن تخفيه فيطوي كلّ منكما ظلهُ وينصرف.

(عبث)

تصطلي بالحنينِ وفي دمكَ رغبةٌ تتشهى اللهيبَ، جنونٌ هو الصمت حينما يستحيل البقاءُ ويتساقط شَعرُ البهاء وتنكرك شجيراتُ الطريق والأرصفة، عبثٌ أن تعيدَ المواسمُ نفسَ المياسم ونفسَ الرياح، عبثٌ أن تتدفأ بالأنفاس، عبثٌ أن تدخلَ العتمةَ مفتوحَ العينين وبلا حلم، عبثٌ أن ترمي قرنفلةً تحت أقدام السابلة، عبثٌ أن تهرب واقفاً. عبث . . . عبث

حدقْ

في الأفقِ كوةٌ مطلة على باحة معتمة، وفي السماء نافذة عمياء وهنالكَ في صحراء الروح بابٌ وحيدٌ لا تفتحهُ التعازيم، تصرخُ في الخلاء فيرجع الصدى محترقاً يضيء المدى فلا ترى غير مشنقة تدلّتْ من نجمة سوداء والمدى ليس نافذة بل جدار كُتبتْ عليه حكمة اليوم التي لن تتغير (لات حين مناص) وسهمٌ يشيرُ إلى الهاوية.

كانت الأرض مستويةً ثم انخسفت فجأة ومن صدعها جاء الصوت:

(اخلعْ نعليكَ أنك في وادي الروح)

اخلعْ نعليك ترَ جسداً محترقاً ونساءً يطفن حوله ممزقات الجيوب ناقرات بدفوف الشهوة، ضفادع تتقافز حول الجسد ناقّةً (أبي . . . أبي)، يحاول الإمساكَ بواحدة فتنفصل الذراعُ وتنتصبُ مثل فزّاعة لا تهش على غير اليقين والنسور تغرز براثنها في الجسد المحترق، الذراع (الفزاعة) تضحكُ شامتةً وصوتٌ يخرج من صدع الأرض:

(اخلعْ جسدكَ أنكَ في الوادي المقدس)

استيقظ الشيخُ على صوتِ المضيفة وهي تدعو المسافرين إلى شدّ الأحزمة معلنةً عن الوصول إلى مطار الكوت، فتحَ عينيه ببطء، تمطى ثم راح يطل بشوق على المدينة من نافذة الطائرة، كانت أوسع مما كان يتصور وقد ارتفعتْ فيها الأبنية العالية والأبراج، كان (دجلة) يبدو مثل ذراع الراقص وهي تلتف على خصر المدينة، تساءلَ مع نفسه هل مازال هذا النهر كسابق عهده " طويلاً مثل عنق إسرافيل / صغيراً في ذاكرة الإوز " هكذا كان يخاطبه كل يوم وكأنه يخاطب تأريخاً من الأسى والجمال، تقترب الطائرة من المدينة شيئاً فشيئاً وكلما اقتربت ازداد رهبة من اللقاء، تذكر قصيدته التي كتبها عنها وهو يغادر العراق شتاء عام ١٩٨٢ وراح يرددها هازاً رأسه طرباً:

(أنتِ ضيقةٌ والقصيدةُ متسعي

قد أواريكِ

لكنني سأسميكِ أرضاً

وأبقيكِ في اللامعي)

رفع الضابط الشاب رأسه متطلعاً إلى وجه الشيخ العائد من ذاكرة الزمكان فارتجف الماضي في نفس الشيخ وارتسمتْ أمامه الصورة المحفورة في روحه مثل أخدود عميق، وحينما شاهد الضابط عيني الشيخ وهما تحدّقان إليه بصرامة تشاغل بتقليب أوراق جواز السفر بغرور، ضغط على زر جهاز الاتصالِ فجاء شرطيان، أمسكا بذراعي الشيخ واقتاداه إلى غرفة صغيرة وأغلقا الباب. في الغرفة الصغيرة زارهُ النـدمُ فقد تحقق الكابوسُ أخيراً، الكابوس الذي اعتاد عليه منذ خروجه من العراق (يرى نفسه عائداً إلى العراق يطارده رجال الشرطة والانضباط العسكري، يمسكونه فيبرز لهم جواز سفره الدنماركي فيقتادونه إلى ساحة الإعدام وقبل أن يطلقوا الرصاص عليه يفزّ مرعوباً)، مرة كانت صديقته الدنماركية تصرخ وهي نائمة وحينما أيقظها قالت له "كنتُ في العراق" وفي الصباح لملمتْ ملابسها وغادرت شقته تاركةً إياه لكوابيسه المُعدية، ولكن هذه المرة جاء بنفسه إلى الكابوس. راودته فكرة الهرب ثانية لكنه تذكر شيخوخته فابتسم ساخراً من وهنِ جسده.

قال له الدليل الكردي حينما وصلا إلى (قلعه دزه) بأن عليه أن يغيّر ملابسه ويرتدي الملابس الكردية، يربط (الجمداني) على رأسه بإحكامٍ ويلتزم الصمت كيلا يكتشف بأنه عربي فيعرفون وجهته. قبيل الفجر امتطيا بغلين واتجها نحو المجهول، وبعد عشرة أيام من التنقل بين القرى الكردية ينام في الجوامع أو الزرائب تقيّده وجوه متعبة ترتسم على تقاطيعها الشفقة عليه كمخلوق هبط من كوكب البؤس، أخبره الدليل بأن عليهما أن يجتازا مفازة ثلجية لا تُرى نهاية لها، ربما بالأفق هكذا خطر بذهنه، ترجلا عن البغلين وسارا يدفعان

الثلج بصدريهما، كان الدليل يطلق أصواتاً غريبة محذراً إياه من التوقف كيلا يتجمدا في منتصف المسافة، وقتذاك ما كانت عيناه وحدهما تبكيان بل كان يشعر بأن كل خلية في جسده لها نشيجٌ مرعب يسمعه.

"هل تستحقُ الحياة كل هذه المعاناة؟"

تساءل مع نفسه بغيظ وأسى رافعاً رأسه إلى السماء وبنظرة عاتبة خاطبها:

"إنا عرضنا الأمانة على السماوات والأرض والجبال فأبينَ أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوماً جهولا"

مردداً مع نفسه بإيمانٍ عميقٍ وبحزنٍ مضطرمٍ كمتهمٍ يائس يحاول الدفاع عن نفسه في آخر فرصة له:

"مَنْ قال لكَ إني كنتُ قد قبلتُ تلك الأمانة لو عرضتْ علي"

كان ذاك في زمان مضى أما الآن فهو لا يقوى على حمل عصاه. حدق إلى الجدران كانت تخلو من أية ذكرى أو إشارة تركها عاشق كوابيس أو عابر سجون مرَّ من هنا قبلهِ.

حينما وصل مدينة (بيران شهر) الإيرانية بعد اجتيازه مفازة الثلج ألقوه في السجن. غرفة صغيرة مظلمة تملأُها الصراصير والروماتيزم، تكور في ركنها نادماً على خروجه من الرحم المظلم، أشعل عود ثقاب وراح يقرأ الخواطر التي كتبها المارون قبله:

"الشمسُ أجملُ في بلادي من سواها والظلامْ/ حتى الظلام هناكَ أجملُ فهو يحتضن العراق"

وتحت هذه المقطوعة قرأ عبارة:

"أخي اللاجئ لا تقلقْ ستمكث هنا يوماً أو يومين ثم سيتم نقلك إلى طهران "

عندها تنفس عميقاً ونام بانتظار اليوم أو اليومين. أما الآن فالجدران تشير ببياضها إلى المجهول. فُتح بابُ الغرفة ودخل شرطيان متجهمين ، سحباه بفظاظة إلى خارج الغرفة، اجتازا به أروقةَ المطار النظيفة كان أحدهما يحمل رزمةَ أوراقٍ لاح بينها جواز سفره الدنماركي، وكانت الأسهم الضوئية تشير إلى أنهم في طريقهم إلى خارج المطار، هناك كانت تقف سيارة بيك أب خضراء بانتظاره، دفعاه إلى ظهرها المكشوف حيث توجد مصطبة متضعضعة الألواح، شاهد على أرضية البيك آب بقعَ دمٍ وجمجمةً لايزال الشعر نابتاً فيها وعلى فمها ابتسامة سخرية، فرك عينيه من تحت نظارته فتلاشت الصورة، وقف متسمراً على ظهر السيارة فأجلساه بحنقٍ بينما جلسا إلى جانبيه صامتين يقطرُ العبوسُ من وجهيهما، كاد أن يرفع صوته بهتاف المناضلين السائرين إلى المشانق (أنعلمُ أم أنتَ لا تعلمُ/ بأن جراحَ الضحايا فمُ) إلا أنه تذكر بأن أوان البطولات قد انتهى منذ زمنٍ طويل فاستسلم لخدر العمر الغارب وصفعات الهواء. انطلقت السيارة فأرتطم جبينه بمؤخرة قمرة القيادة وسقطت نظارته، انتظر أحد الشابين أن يساعده على التقاطها إلا أنهما تجاهلاه فانحنى كي يلتقطها فارتطم جبينه بمؤخرة القمرة ثانية، تمتم بشتيمةٍ لم تستفز أحداً.

أرض جرداء وغبار يحجب الرؤية وحده النهرُ كان يسير بهدوء على الجانب الأيسر من الطريق " ذلكَ النهر الذي مرَّ من بابنا / توضأ بالحزن وصلّى علي " رددَ مع نفسه مقاطعَ من قصائد كان قد كتبها في غربته الطويلة عن (دجلة) ولكن ما بال هذا النهر يبدو الآن سادراً في هدوئه غير مكترث؟ ربما لكثرة ما أنشده الشعراءُ من مراثٍ وما أذاقه الطغاةُ من مآسٍ. اجتازت السيارة

جسراً صغيراً فتذكر أنه لابد أن يكون نهر الغراف عند تفرعه من دجلة فحدق إلى الجانب الآخر حيث كان بيتهم الذي غادره في (درب الصدّ) ذات فجر من عام ١٩٨٢ ، لفّ أصابعه ناظوراً ليستجلي المكان كما كان يفعل حينما كان طفلاً فلم يلمح شيئاً ، اقتربتْ السيارة من المدينة فظهرت السدّةُ ، هذا العملاق الكونكريتي الذي يتمدد على النهر ، تذكر حينما كان يأتي مع أخويه عندما تُغلق البوابات الحديدية ليرى الأسماك وهي تتقافز مع اندفاعات الماء المُحاصر واحتضارها على الحواجز الكونكريتية الفاصلة بين البوابات ، كان مشهداً يُمتعهُ ويخيفهُ في آن واحد ، يمتعهُ لأنه لم يرَ أسماكاً تسبح في الماء إلا في هذا المكان ، ويخيفه لأنه يرى لعبة الحياة على حقيقتها فبعض الأسماك كان يندفع مع الماء ليواصل مسيرة حياته في الجانب الآخر من السدة والبعض الآخر يسقط على الفواصل الكونكريتية فيبقى متقلباً ، يصارع الهواء من أجل الإفلات من قبضته الخانقة حتى يستسلم أخيراً يائساً مختنقاً بالهواء على خلاف جميع المخلوقات . توقفت السيارة قليلاً قبل اجتياز السدة ثم انطلقت ببطء وحذر ، أحس بالخوف وهو في منتصف الطريق حيث أنه شعر كأن هذا العملاق الكونكريتي قد أصابه ما أصاب جسده من شيخوخة وضعف ، كان يسمع أصوات تكسر حزمة من قصب أو صفير عظام خاوية تلاشت حينما وصلتْ السيارة إلى الجانب الثاني من النهر . سارت السيارة بموازاة النهر ، مبانٍ شاهقة وأشجار يوكالبتوس عالية تصطف على جانبي الطريق ، هنا كانت دار السينما الصيفي وهنا كان جامع (الحاج رضا) وقد حل محلهما بناء مجهول الهوية . انعطفت السيارة إلى الجنوب فشاهد أول علامة لاتزال باقيةً كما تركها ، مركز الشرطة الذي دخله أول مرة حينما كان في الرابعة عشرة من عمره ، أراد أن يتذكر تفاصيل القصة إلا أن السيارة دخلت نفقاً مظلماً فشعر بدوارٍ ، أغمض عينيه وقبل أن يفكر في سر بقاء مركز الشرطة على الحالة التي

تركها عليه اجتازت السيارة النفقَ فبدتْ له بوضوحٍ معالم مدينة يعرفها جيداً، شارعٌ متعرج يخترق بيوتاً قديمة وخرائب تحمل رائحة الماضي، نساء بعباءات سود يجلسن على شكل حلقات عند دكّات البيوت وصبيان بدشاديش متسخة يلعبون في الشارع، توقفوا مستَفزين لرؤية سيارة الشرطة تحمل على ظهرها شرطيين ومتهماً عجوزاً مكبلاً، انطلقوا جمهرةً خلف السيارة متصارخين، أدار الشيخ ظهره وراح يرقبهم وهم يحاولون الإمساك بمؤخرة السيارة لكنهم كانوا يعجزون عن اللحاق بها فيراهم وهم يتراجعون وقد تحولوا إلى مخلوقات هرمة مغبرة الوجوه سرعان ما تتلاشى في الأفق الكالح، على الجانب الأيسر من الطريق كانت أرض منخفضة محاطة بسياج حديدي وعلى الباب لاح صليبٌ كبير، إنها (مقبرة الأنكليز) ضحايا الحرب العالمية الأولى، لم تتغير صورتها كثيراً عن قبل غير أن أرضها ازدادت انخفاضاً عن السابق وغارت شاهدات القبور في الأرض حتى شاهدة قبر قائدهم التي كانت تتوسط القبور شامخة غدت الآن ذليلة لا يظهر منها إلا القليل فوق سطح الأرض. توقفت السيارة عند بناء خرب قريب من المقبرة، ترجل السائق البدين وقد بدا وجهه مكفهراً وهو يتجه نحو الباب الحديدي الكبير، ودونما صعوبة أدرك الشيخ الوجهة التي آل إليها مصيره، فها هو يقف الآن أمام (سجن الكوت) ثانية.

استيقظ الناسُ ذات فجرٍ صيفي على أصوات السجناء المضربين عن الطعام وقد ارتفعت على غير عادتها، كانت الأصوات تنفلق في سماء المدينة محدثةً دويّاً من الحماسة نافضة غبار الرعب والاستكانة، يخترق النشيدُ جدران البيوت إلى النفوس الملتهبة فتردد مع أصوات السجناء (إحنه سباع وخيط ابريسم وسيوفنا امتجاية). ارتفع النشيد هذه المرة مصحوباً بنشيجٍ

يتردد صداه في المدينة الجريحة بأبنائها المعتقلين، أفلتت النفوس من عقال الخوف مستجيبة للدعوة التي كان يطلقها السجناء (هبوا ضحايا الإضطهاد . . .)، وصلَ إمام المسجد الشيخ هادي الأسدي بطلبٍ من إدارة السجن كي يعظ السجناء ويثنيهم عن الاستمرار في الاضراب وإطلاقَ الأناشيد إلا أنه خرج بعد دقائق ساخطاً على السجناء شاتماً الشيوعيين الملحدين وقد قيل وقتذاك وتأكد في ما بعد بأن إدارة السجن استأجرتْ أحد المأبونين في المدينة (ل. ك) ليلعب دور المفاوض الذي يمثل السجناء المضربين فكان يجيب على أسئلة الشيخ هادي بشتمِ الدين ورجال الدين المسلمين بعبارات لُقِّنَ بها مثل الرجعية والعملاء والدين إفيونِ الشعوب وغيرها من العبارات التي كان يرددها بعض الشيوعيين، وقد انطلت اللعبة الخبيثة على الشيخ المعروف بورعه وحيازته على الاحترام من قبل الناس على اختلاف مشاربهم فخرج من السجن وهو يلعن الشيوعيين هادراً دمهم وهذا ما أرادته السلطة. حملتْ أمٌّ رضيعها وانطلقت به باتجاه النشيد وهناك انضمت إلى حشود النسوة الخارجات من أزقة الفقراء مولولاتٍ بالدعاء متوعدات الظالم باليوم المشهود.

روت الأم لابنها ما جرى ذلك اليوم فقالت:

"حينما وصلنا إلى الشارع المؤدي إلى السجن كان الحراس قد أغلقوه محذرين الناس من الاقتراب بتوجيه فوهات البنادق نحوهم بينما انتشر بعض الحراس على سطوح البيوت مدججين بالسلاح، كانت أصوات السجناء تعلو برهبة وإباء فتجد صدى لها في نفوس المتجمهرين فتردد حناجرهم بخشوع مشاركين السجناء النشيد (السجنُ ليس لنا نحن الأباة . . .)، وعند الساعة السادسة والنصف فتح الحراسُ النار على أفواه السجناء فاشتبكت الأناشيد مع دوي الرصاص حتى انتصر الصمت وقد شاهد الناس الدم وهو يتناثر في الفضاء

وعلى واجهات البيوت المقابلة للسجن وتدفقت من إسفلت الشارع عيون صغيرة ظلت تنزف وتنزف مكونة سواقي صغيرة يجري فيها الدم باتجاهٍ معاكس لاتجاهِ مجاري تصريف المياه الوسخة . "

وذكرت الأم:

"بأن جارتنا التي جُرحَ ابنها في ذلك اليوم قالت بأنها حينما عادت إلى بيتها فتحت حنفية الماء فسقطت بضع قطرات من الدم . "

وقالت نساء كثيرات بأن أطفالهن امتنعوا ثلاثةَ أيام عن الرضاعة .

فوجئ الحارسُ حينما فتح باب الزنزانة صباحاً فارتدّ خطوتين إلى الممر ثم ما لبث أن انفجر بضحكة رعناءَ هرع على صوتها حراس السجن ، كان الشيخ حميد عارياً تماماً وقد وضع رأسه بين ركبتيه بوضعٍ شبيه بوضعِ الجنين في الرحم . أفاق على لغط الحراس الذين تجمعوا في زنزانته فحرك رأسه متطلعاً إليهم بنظرةٍ خائفة ، نظرةِ رعبِ المستيقظ من كابوسٍ كانَ جاثماً على صدره لكنّ شفتيه افترتا بابتسامة سخرية وشفقة وهو يحدقُ إلى الوجوه البليدة التي أحاطت بسريره ، ودونما مبالاة أعادَ رأسه إلى حضنه ونام كجنينٍ يرفض مغادرة الرحم.

"انهضْ"

صرخ أحدهم ، وحينما لم يسمع غير التجاهل والاحتقار أعاد الأمر مرة أخرى غارزاً سبابته بخصر الشيخ بينما اقترح أحدهم أن يصب ماءً بارداً على جسده.

"انهضْ يا مخرف "

مدَّ الشيخ ساقيه متمطياً ثم استلقى على ظهره باسترخاء متطلعاً في الوجوه الصفر الغارزة نظراتها في الجسد العاري وقد فغرتْ أفواهها بعبارات جنسية سخيفة مصحوبة بقهقهات بليدة.

"تفووووووو"

فتناثرَ الرذاذُ على وجوه الحراس التي ارتدّت إلى أعناقها كابحةً ضحكاتها من هول المباغتة. لحظات ثقيلة من الصمت أنسحب خلالها الحراس من الزنزانة وهم يمسحون بأكمامهم الرذاذ عن وجوههم إلا واحداً ظل متسمراً في مكانه بانتظار الشيخ الذي جلس على حافة سريره يرتدي لباسه الداخلي ببطء.

"مَنْ أنتَ؟ "

سأل الضابطُ الجالسُ خلف مكتبه فاكتفى الشيخ بإشارة من عينيه الى جواز سفره الملقى أمام الضابط، الذي أدرك مغزى الإشارة فاعتذر بابتسامة خجلى.

"لماذا عدتَ؟ "

أزاح الشيخ نظارته إلى الأسفل محدقاً إلى عيني الضابط بنظرة تدلُّ على استهجان السؤال، تأفف الضابط ولكيلا يتعب نفسه في قضية ليست ذات قيمة، وجّه للشيخ سؤالاً أخيراً:

"هل تعرف أحداً في المدينة يكون كفيلاً لك؟ "

أعتدل الشيخ في جلسته وبنبرة جادة أجاب:

"لا أعرفُ أحداً ولكني متيقنٌ بأن ثلاثة أشياء تعرفني وأعرفها ولن تزول عن هذه المدينة"

ثم نهض من كرسيه متكئاً على مكتب الضابط الذي راح يصغي باهتمام إلى ما سيقوله الشيخ، قرّبَ وجههُ من وجه الضابط متطلعاً إلى عينيه اللتين تصلب جفناهما وبحزنٍ خاطبهُ، فارداً ثلاث أصابع من كفهِ اليسرى قريباً من أرنبةِ أنف الضابط:

"ثلاثة أشياء لا تختفي من هذه المدينة: السدة والسجن والجدة شمعه"

ثم عاد إلى كرسيه وهو يرددُ:

"هكذا قال حسوني المشلول وصدَقَ"

* * *

المدينةُ نائمةٌ برعونة تهب عليها سموم الماضي، الماضي المستمر الذي تأبى صفحاته الطي لكنها ممزقة بيد النسيان الذي يقلّبها في كل لحظة، لا ليتذكرها بل ليدمنَ نسيانها. أزقة متعثرة بخطى المنزوين فيها تنتهي بشوارع تمضي سادرةَ على غير هدى، أرصفتها فاقدة للذاكرة فلم تر على صفحتها آثار الأقدام التي كان المسافر يحلم أن يجدها عليها حين عودته، هكذا أوهمته الغربة أو الحنين ليصحو على ذكرياته وكأنها سنوات عاطلة تفترش الأرصفة مشمرة أردانها عن أذرع قوية تبحث عمن يستأجرها لبناء حاضر له لقاء اعتراف بجميل لها، صمتٌ لا يسمعه غير العائد من رحلة طويلة يردده الحنين كأغنية خرساء، ساحات ضالة لم تبرح مكانها ولكن من الذي يستطيع أن يرى خطوة الجراة الأولى على جسد الطريق؟ تماثيل لرجل واحد انتشرت في كل ساحة، كل تمثال منها يقف بشموخ كأنه رافع السماء على راحته، أبصاره مشرئبة إلى أفق بعيد وقدماه تسحقان تحتهما قاعدة صلبة من جماجم وعظام كان ينتصب عليها يوماً

تمثال شخص آخر، ساعة كبيرة تجمدت عقاربها وسقطت أرقامها، على الجدران طبعت آثار أكف بلون ناصل لا يمكن التأكد من طبيعته ولكن هذا لا يشغل المتطلع كثيراً فتخمين ذلك يسيرٌ فهي إما صبغة دمٍ أو حناء، قتل أو عرس وفي كلا الحالين افتضاض بكارة.

سار الشيخ وحيداً تلفحه نسمات خريفية منعشة ولأنه لا يعرف أحداً في مدينته هذي ولا يريد أن ينام كغريب في فندق أو ملجأ، لذا فأنه راح يتسكع على غير هدى، تقلّب عيناه تضاريس المكان ويتقرى الأشياء مصغياً إلى نبضها كدليلٍ على قلب الزمان أو على العكس، يضع بوصلة الزمان لتشير إلى الأطلال التي يحمل صورها في عينيه. عقود من الزمان مرت منذ أن غادر هذا المكان وعدد لا يحصى من المدن سارت قدماه في شوارعها وفي كل مدينة يدخلها ينصب بوصلته كمسّاحٍ يرسم في وهم الفكرة شاخصاً لم يتشخص، ربما لاح مرة في اللامكان واختفى، يضع للحكاية إحداثيات ليستدل عليها أو ليمنحها القدرة على مقاومة ظروف التعرية والنسيان، يصف الزمان الذي تجهله علامات الإشارة، والمكان الذي طُمستْ معالمُه بصوىً تشير إلى الهاوية، هنا / اللا هنا، هناك / اللا هناك، الزمان، المكان، الزمكان . . . . الخ، وحينما لا يرى أمامه غير مفازة التيه، يضع المسطرة على راقم الأفق ويقيس عمق الهوة التي ينبغي على المسافر ردمها للوصول إلى الأمل أو المبتغى أو ربما إلى نقطة اللا أين، يظل يحدق في ناظوره بصبر بعيرٍ، ولكن ماذا يرى؟ أو ماذا بوسعه أن يرى؟ لا شيء . . . لا شيء غير بخارِ السرابِ يتكاثف كأن جهنم الوهم قد أضرمت تحت الأرض.

توقف مستنداً على عصاه وراح يجوسُ المكان كأنه أكتشفَ شيئاً، تقاطعتْ في ذاكرته خطوطُ العرض والطول راسمة أمام عينيه إحداثيات المكان:

"هذه حديقة ١٤ تموز"

"ذاك شارع ١٤ رمضان"

"هنا دار السلام "

ردد مع نفسه شاعراً بأن المدينة بدأت تستعيد ذاكرتها وتعترف أمام ابنها ـ كاهنها بالخطايا التي اقترفتْ، النوافير عاطلة والأشجار مغبرّة، الشارع خال إلا من الصمت الذي تخترقه خطوات الشيخ ولحن عصاه، من هنا كانت تنطلق المسيرات، مسيرات العزاء أيام عاشوراء والمسيرات الثورية. في منعطف الشارع شاهد رجلاً تعتعهُ السكرُ يبول على جدار ويتحدث معه بحديث لم تستطع إذنا الشيخ التقاطه، جفل الرجل برعب حينما لمح الشيخ يمر من أمامه، تمتم بكلام غير واضح وهو يزرر أزرار سرواله، توقف بذهول لعله قد ظن بأن هذا السائر أمامه كائن خرافي قادم من المجهول، خمن الشيخ ما يدور في ذهن المخمور فقطع عليه توجساته:

"السلام عليكم"

قال الشيخ دون أن يلتفت إليه فارتبك المخمور:

"هلو حجي هلو"

رد المخمور متلعثماً وقد تسمر في مكانه فلم يكن يتوقع أن يصادف هرماً يمشي في هذه الساعة من الليل. بعد أن سار الشيخ مسافة بضعة أمتار، سمع وقع أقدام المخمور تخب مرتبكة خلفه وهاتفاً يناديه:

"جدّو . . . جدّو "

توقف الشيخ الذي يبدو وكأنه قد استأنس بهذه المصادفة التي سيعرف من خلالها شيئاً عن المدينة حتى وإن كان محدثهُ مخموراً أو مجنوناً فلربما سيجد ما

يفيده في الحديث مع رجل لا يملك لسانه، توقف ملتفتاً إليه، حدق المخمور بوجه الشيخ فاركاً عينيه وحينما أدرك حقيقة الرجل الشاخص أمامه سأله:

"إنت منو؟ "

قهقه الشيخ واضعاً يده على كتف المخمور الذي ازداد ارتباكه وتلعثم، ولكي يزيل عنه الوهم والارتباك سأله الشيخُ بود:

"وين طريق السدة؟ "

أشار المخمور بيده إلى الأمام دون أن ينطق بكلمة فسارَ الشيخُ على مهلٍ تاركاً المخمور متسمراً في مكانه بذهول.

* * *

في البدء كان يظن أنه هو وحده الذي يرى ترنح السدة وقد أكدَ له ظنه أكثر من شخص سأله حتى حسب البعض بأن الرجل يهجر فألقى اللوم على ضعف بصره وعلى اختلاط الوهم بالحقيقة في داخله لكنه ظل يتوجس شيئاً، فهو وإن بدا واهماً إلا أنه (وهذه عادة رافقته منذ الطفولة) لا يتخلى عن وهمه بسهولة وحينما تعترضه شكوك الآخرين ينتصب عناده بشهوة عارمةَ للتحدي، إنه يشق بحدْسه حد الغرور ولا يثق ببصائر الناس، فمنذ الأيام الأولى لوصوله إلى المدينة ظل مواظباً على قضاء ساعات الغروب جالساً على مصطبة في الحديقة القريبة من السدة يرقب الشمس وهي تنشر أشعتها الأخيرة على صفحة النهر أو يطعم النوارس التي ألفته فراحتْ تقترب منه مُطلقة أصواتها عالية فيثير المشهد فضول المارين الذين لم يألفوا ذلك.

اليوم جلس شيخان على المصطبة المجاورة لمصطبته وراحا يحدقان إلى السدة وهما يستعيدان ذكرياتهما عن المدينة، حاول الشيخ حميد أن يسترق السمع

إلى حديثهما إلا أنهما كانا يتحدثان عن زمن لا يثير الفضول، عن تأريخ ليس ببعيد حتى قال أحدهما:

"أعتقد السدة راح توكع"

اعترض الآخر ضاحكاً بسخرية وكأن الأمر مزحة أو تخريف وحينما أكد الشيخ الأول اعتقاده برؤيته لها وهي تهتز كلما مرت عليها شاحنة ثقيلة أجاب الثاني بثقة:

"يمعود صواريخ العجم والامريكيين ما وكعتها، اشلون توكع وحدها"

وهنا ارتفعت حدة النقاش بينهما متحولاً إلى جدال في أمور سياسية حول ما جرى من أحداث في المدينة معتمدين في أخبارهما على ما تمت روايته من قبل أهليهما أو ما يتذكرونه من أيام طفولتهما. وجد الشيخ حميد فرصته لمعرفة ما جرى في غيابه فراح يصغي إليهما مفتعلاً انشغاله بإطعام النوارس.

"السدة محمية بقدرة الله "

قال الشيخ الثاني بثقة عالية، وبعد لحظات من الصمت أردف:

" يكولون ظل الطيار العجمي يحوم فوك السدة نص ساعة وكلما رمى صاروخ ينحرف ويوكع بالمي لأن قبل بدقايق مشى عليها السيد مالك والله حماها لجاه السيد "

وحينما لم يجد لكلامه استجابة في وجه صاحبه راح يؤكد بصوت عال:

"والطيارين الأمركيين ها، والطيارين الأمريكيين مو رادوا يوكعوها بس ما كدروا؟ ضربوها بس ما كدروا يهدموها"

هزَّ الشيخ الآخر رأسه وبسخرية أجاب صاحبه:

"شوف أكلك لا سيد مالك ولا بطيخ، الطيار العجمي كان غشيم ماينذل . . . . . من اللحاف والطيارين الأمريكيين مارادوا يهدموها، صدقني هم مارادوا يهدموها فد مره ولو رايدين كان هدموها وما ينفع ألف سيد مالك"

كان ذلك في أيلول من عام ١٩٨٠، فبعد يومين من بدء الحرب العراقية الإيرانية جاء محافظ المدينة بصحبة رجل يسكن قضاء النعمانية وقد اشتهر هذا الرجل بخوارقَ وكرامات نُسبتْ إليه كشفاء المجذومين والمصابين بأمراض استعصت على الأطباء وإنطاق الخرسان وتوليد العاقر فصار موضع اجلال الناس البسطاء وانتشر صيته فصارت تأتيه الوفود من كل المدن والأرياف العراقية طالبة لمسة من يده أو قطعة خبز مُلاكةً بلعابه أو حتى صفعة من نعله شفاءً للمشلولين فحيكت عنه الأساطير، وكان الناس يحلفون برأسه متيمنين باسمه ويتناقلون أخباره بهيبة ورهبة مما جعل الحكومات لا تتجرأ على الاقتراب من دائرته فظل محتفظاً بأراضيه وعبيده فكان الإقطاعي الوحيد الذي لم يشمله بندُ مصادرة الأراضي من قانونِ الإصلاحَ الزراعي الذي سنته الثورة.

كان الشيخ حميد شاهداً على مشهد مرور الموكب الذي ضم جمهرة من رجال المدينة يتقدمهم المحافظ والسيد وهو يرتل آيات قرآنية محركاً ذراعه بنصف دائرة كأنه يرمي فوق السدة غطاءً سحرياً لا يراه غيره لكي يحجب هذا العملاق الكونكريتي عن الأنظار ويضلل الطائرات الإيرانية التي كانوا يتوقعون غاراتها على المدينة، وفعلاً أغارتْ طائرةٌ إيرانية بعد بضع دقائق من مرور الموكب وحاول

طيارها أن يوجه صاروخه إلى السدة إلا أنه لم يستطع إصابتها وسقط الصاروخ منفجراً في الماء حتى تمكنت المقاومات الأرضية العراقية من إسقاط الطائرة وتم أسر قائدها وهذا ما عزز اعتقاد الناس بعدالة قضيتهم وشفاعة السيد مالك الذي أعمى بصيرة الإيرانيين وفجّر النهر بالأسماك التي طفتْ على سطح الماء جراء انفجار الصاروخ فيه.

التفت الشيخ حميد إلى جهة المصطبة الأخرى حيث يجلس الشيخان حينما ارتفع صوتاهما بالجدال ثانية حتى انتهى باتفاقهما على الرهان ذلك حينما اقتربت شاحنة كبيرة من الطرف الآخر من السدة وهي تهم بالعبور إلى جهة المدينة، انشدت الأبصار نحو الشاحنة وهي تمر ببط ثقيل كالصمت الذي ساد بين الشيخين وهما يركزان بصريهما بانفعال مكتوم، وحينما اجتازتْ إلى الجانب الثاني قفز الشيخان معاً وفي وقت واحد معلناً كل منهما انتصاره على الآخر وحينما لم يتفقا على نتيجة الرهان التفتا إلى الشيخ حميد متوسمين فيه حاكماً عادلاً بينهما إلا أن الشيخ حميد لم يجبهما بغير ابتسامة فسّرها كل منهما تأكيداً لرأيه.

استل جسده من المصطبة بقوة متلمساً بيقين حدسَه الذي لن يخطئ، تاركاً الشيخين يتهم أحدهما الآخر بالعمى أو الخرف.

* * *

عند مقدمة السفينة وقفَ النوتيُّ الذي حَمَلَ البحرَ على راحته وعلّمه الطيران متطلعاً إلى الأفق قارئاً على صفحته ما يضمر النوءُ والغيب، أطلق صقراً . . لم يجد يابسة فعاد إلى السفينة ثم أطلق عصفوراً . . فعاد كذلك، وثالثةً أطلق لقلقاً فلم يعد، عندها أدرك بأن الأرض تمنحهُ

الفرصة للرسوّ عليها بعد هذه الرحلة المضنية وإن كانت رؤوس المنائر والأبراج العالية وحدها التي انحسر عنها الطوفان وهذا ما كان يبغيه فالروح لا تبحث إلا عن نقطة حافلة بالسمو، تذكر قصيدته التي كتبها قبل الإبحار فراح يرددها بنشوة العائد من المعركة محملاً بالغنائم:

(من سقفي جمّعتُ الأخشابَ
صنعتُ سفينه
حين رأيتُ الإعصارْ
لكنْ
حين دعوتُ الأهلَ ،
حبيبةَ قلبي ،
وطني
سخروا مني
فرفضتُ الإبحارْ)

ولكنه حينما تأكد من أن لا عاصم غير البحر، وأن الطوفان قادم لا محالة واستبد الخوف بالأهل وأصروا على رفضهم الرحيل، رفع مرساته وحده منعتقاً من عقال الأب حاملاً جذوره معه رافضاً الأرض التي تغريه برسوخ كاذب، وها هو يعود مرة أخرى وحيداً إلا من سفينة أحلام وذاكرة تضيء له عتمة البحار، وحده ولم يكُ بانتظار أحد ولكن عليه أن يتخذ القرار، فالبحر الذي صار خلفه كم تمنى أن يمشي عليه والبحر الذي صار أمامه ينحسر كلما راودتهُ الأمنية وهو بينهما واقف ومرج البحرين لا يلتقيان، وحده، واقفاً يغور إلى قرار نفسه، فهل يخرج للعالم ثانية؟ أو يدخل للنسيان.

نسيَ شيخوخته حينما استيقظتْ أناه التي راحت تتسع كلما أوغل في الزحام، شعر بلديب يسري في جسده كخطوة أولى على جسد الطريق، سمع هاتفاً يصرخ من عمق الوادي الذي أشرف عليه ليضع نهايةً لحياته:

"أخرجْ أيها التأريخ "!

فاختارَ الخروجَ إلى العالم ثانية، لكن هذه المرة عليه أن يغير مسارَ الأحداث وفق مشيته حتى لو وقف محتجاً على لعبة القضاء والقدر.

فجأة سادَ الصمتُ في الشارع وتوقفت النسوةُ الجالسات عند عتبات البيوت عن الحديث، توقف الصبيان عن اللعب وتسمروا في أماكنهم، راحت الأبصار تتقاطع فيما بينها حينما فتحَ الشيخُ حميد البابَ وأطل على الشارع بقامته الطويلة متكئاً على صولجانه، عيناه تقدحان كجمرتين وهما تحدقان إلى الوجوه التي ارتسمتْ عليها الحيرة، همساتٌ مستترة سرتْ بين الرجال الذين شعروا بالخجل لمقاطعتهم الشيخ طوال فترة إقامته بينهم فتسارعوا نحوه مكفرين عن ذنبهم بفيض من الترحيب والسؤال عن صحته متسابقين بتقديم العون والمساعدة، ربتَ الشيخُ على أكتافهم بودّ شاكراً لهم لطفهم ومودتهم. تلك الليلة ظل جالساً على عتبة داره كما كان يفعل حينما كان صبياً متطلعاً إلى الجدران والأبواب حتى ساعة متأخرة من الليل.

الشارعُ نفسه، سطرٌ تصطف عليه المفرداتُ نفسها، بيوتٌ متلاصقة، آجرها وحده يحتفظُ بالذكريات، فالجدارُ في هذه المدينة لوحٌ للطالب الذي لا يملك لوحاً وكتابٌ لمَن يريد قراءة التأريخ، لكن الجدارَ لا يمنح ذاكرته إلا لمَنْ يستطيع استنطاق الحجر، جهازٌ بلا أزرار يختزنُ ملايين المفردات وآلاف الأحداث التي صيغتْ كشعارات كتبها ثوريٌ أو مخمور، مرةً سألهُ طفلٌ حينما كان يعمل مربياً في أحد نوادي الأطفال الدنماركية:

"لماذا تحدقُ إلى الجدار وأنتَ تكتبُ؟ أتكمنُ القصيدةُ فيه؟ "

وقالتْ عنه امرأة:

"إنه مؤدبٌ ولطيفٌ لكنه صامتٌ مثل جدار. "

عندها خاطبتهُ القصيدةُ:

"حينما يتجردُ الجدار عن ذكرياته، هل ينهدّ بمحض أرادته؟ "

هزّ رأسهُ بأسفٍ وهو يخاطبُ الجدران التي شاختْ مثله فدبّ فيها الخراب:

"لو استطاع الناسُ أن يقرأوا ذاكرةَ الجدران في هذه المدينة لما بقيت حالتهم على منوالٍ واحد، لكنهم يتوارثون الأفكارَ ليدخروها كالعملة حتى يكتشفوا يوماً بأنها لم تعدْ صالحة للتداول، إنهم يشربون الحياة من كوزٍ نسوا أن يتأملوا الزخارفَ المرسومةَ على فخّاره. "

شارعٌ يتعثر بالأفق، يمضي إلى صحو شمسٍ تنامُ على سكرة البارحة، الشارع نفسه ونفس العسس ومازال الليل متنمراً يمتد إلى أقصى العمق كي ينهش أنثى ترقد عارية في مخدع الروح.

شارعٌ تتكدسُ فيه الأيامُ شرفةً شرفةً، كان الصبي حميد يجمع من بين أنقاضه ما يخلفهُ العاشقون من صَدَف الرغبات ومحار الكلام، هذه الكوى كانت ترتقها العيونُ بدمعات الشبق الفاضح وتلك الزوايا كانت تحمي قُبُلات العاشقين من الفضائح والوشاة، كان يقيمُ متاريسَ للروح يهدمها جنودُ الشهوة بأجسادهم النابحة ونزقهم اللامحدود فيكدسُ أيامَه حروباً مؤجلةً وسلاماً مهدَّداً بغارات الزمن.

* * *

كان الشيخ جالساً على عتبة داره متكوراً على أفكاره، يقضم أظافره بقلق واضح كأنه بانتظار قادم فاتَ موعد مجيئه، حينما اقتربت منه امرأةٌ نحيلةٌ متلفعة بوشاحٍ أسود، ألقتْ عليه السلام وجلست قبالته وهي تنظر إلى الأرض، قالت بانكسار وحزن:

"حدثني عن الحياة" !

"لَعِبٌ بالأحداث"

أجابها وهو يحدقُ إلى جهة بعيدة غير واضحة المعالم، نظرتْ إليه تبغي توضيحاً لما قاله إلا أنه تشاغل عنها بإشعال غليونه فنهضتْ ببطء كأنها تتسلل من الأرض خفيةً منسحبةً إلى موقعها في حلقة النساء الجالسات عند عتبة أحد البيوت. دقائق من الصمت مرت لم يشغل الشيخ نفسه بسؤال المرأة ولا بجوابه لها لكنه فوجئ بجمعٍ من النساء والرجال والصبية وهم يتجمهرون قبالته، حدق في الوجوه التي أنشبت أنظارها في وجهه فرأى في كل وجهٍ سؤالاً حالكاً يؤرقُ صاحبه.

صوت (١):

"حدثنا عن الرحلة" !

نهض الشيخُ متكئاً على عصاه، وقف على دكّة الباب وأطل عليهم، رآهم بوضوحٍ، كانت وجوههم مشرئبةً إليه تشير ملامحها إلى رعبٍ كامنٍ في النفوس، بدوا أمامه صغاراً بقاماتهم المتقزمة وعيونهم المتسائلة مثيرين الشفقة في نفسه فخاطبهم بودّ:

"مرةً كنتُ جالساً في منتصف الكون فرأيتُ محاربين يسحلون قمراً نازفاً، كان الليل شاحباً وكان صوتي يؤلمني، فقررتُ الرحيل إلى ضفة أخرى،

كنتُ أسمع صوتاً يصرخ بي (كنْ) فيرتبكُ كلّ شيء، ورأيتني أعبرُ الأفقَ إلى الجانب الآخر، هناك وجدتُ كل شيء إلا الطريق حيث كلما خطوتُ خطوةً محتْ خطوتي أثرَ الخطوة السابقة ولكني لم أخف لأني عزمتُ على الرحيل بلا عودة أو ندم. "

توقفَ قليلاً كي يعبّ أنفاساً عميقة من الهدوء، كانت الوجوه متشبثةً بالكلام الذي تصغي إليه متوسلة نظراتها بالشيخ كي يستفيض، فأستأنف حديثه:

"كنتُ واهماً ـ طبعاً ـ حيث أني كلما وصلتُ أرضاً وجدتها سافلةً جداً وكلما تطلعتُ إلى السماء وجدتها عالية جداً وكلما تلمستُ نفسي وجدتني مهيضَ الجناح حتى أدركتُ بأني أينما أكنْ أشتقْ وأينما أرحلْ أنتظرْ فما عادت الأرض مكاناً والبحرُ خوفٌ أجاجٌ وأنا راحلٌ بين غربةِ أرضٍ وبحرِ ضياع. "

وقبل أن يبادره أحد بالسؤال عن سبب عودته قال:

"حينما رأيتُ زهرتي آيلةً للذبول قلتُ سأتغنى بحكمتها لكن نضارتها الآفلة ظلت تخزني فقلتُ سأعتصرُ أوراقها الباقية بكأس سوداء وأعب مرارتها وحدي، لكني كنتُ واهماً فالروح التي يطعمها ثلجُ العالم لن يبقى في ذاكرتها غير آثار دبية. "

صوت (٢):

"وماذا عن رفاقِ رحلتك؟ "

ارتسمتْ كآبة على وجه الشيخ فاغمض عينيه لحظات ثم فتحهما باتساعٍ يدل على صرامةٍ وتحدٍ عميق، خاطبَ السائلَ وعيناه تحدقان إليه بأسى:

"الذين طاروا بأحلامهم عرفوا كم ضيق هو الفضاء، والذين طاروا بأجنحة شمعية أطفأوا الشمس والذين أرادوا أن يكونوا دليلاً للطريق صارت أجسادهم إسفلتاً وتلاشتْ أرواحهم في الصدى وهناك تحت الأرض موتى يعذبهم الانتظار. "

صوت (٣):

"وأية حكمةٍ منحتكَ الرحلة؟ "

أجاب الشيخ دون تفكير وكأنه كان يتوقع السؤال:

"قد يتسعُ الأصيصُ - يا بني - لزهرتين مختلفتين ولكن يضيقُ العالمُ أبداً بقاتلٍ وقتيل. "

صوت (٤)

"ما الرؤيا؟ :

أجاب الشيخ:

"رأيتُ الأرضَ واضحةً حينما كُسفتْ شمسُ أحلامي. "

صوت (٥):

"مَنْ هو الحالم؟ "

أجاب الشيخ:

"الذي يبحث عن كواكبَ في الطين وعلى القمر المخسوف يرفعُ عقيرته بالغناء. "

صوت (٦):

"مَن الواهم إذاً؟ "

أجاب الشيخ:

"الذي يحث الخطى إلى الـ (أين) ولا يعرف أن الخطى ما يسمح الشارع"

صوت (٧):

"من هو الشاعر؟ "

"نفسٌ متألقةٌ تعبرُ الأسى جسراً إلى أجمل النوايا. "

أجاب الشيخ وهو يحدق في عيني السائل وقد كان شاباً دميمَ الوجه أشعثَ الشعر يتأبط مجموعة من الكتب ويقف منزوياً يهرش لحيته الكثة.

صوت (٨):

"ما الوطن؟ "

تغيرتْ ملامحُ الشيخ وبدا مرتبكاً فالتفتَ المتجمهرون إلى السائل وعيونهم تخزهُ بالتأنيب فارتبك الصبي إلا أن الشيخ الذي جاهد أن لا يكتشف أحدٌ مواقع ضعفه أجاب:

"دمٌ متخثر على الصارية. "

ثم أشار بيده نحو عَلَمِ المدرسة قائلاً:

"اذهبْ هناك ترَ حقيقة ما أقول" !

صوت (٩):

"من هو العاشق؟ "

صدحَ صوتٌ خجول انفجر بعد تلعثمٍ فأثار لغطاً مكبوتاً بين الصبيّات اللواتي كن يقفن في الصف الأول من الجمهرة فضحك الشيخ مبتهجاً وأجاب برقةٍ وهو يحدق إلى وجه الصبيّة التي وجهتْ السؤال:

"العاشقُ ـ يا صغيرتي ـ ذلك الذي يطمئن أعضاءه كل ليلة بحلمٍ، الفم بقبلة، الأنف بعطرٍ، اليد بصداقةٍ . . . الخ ثم يطمئن أحلامه باللاجدوى وينام"

صوت (١٠):

"ما الجسد؟ "

أجاب الشيخ:

"شخصٌ آخر يقيمُ معكَ حيث تقيم، إن أردتَ مصاحبته اختفى وإن رغبَ في مصاحبتكَ رغبتَ عنه وتعاليتَ عليه "

صوت (١١):

"ما الشهوة؟ "

أجاب الشيخ:

"مشت الشهوةُ على شفرة الحلم وفي منتصف الدرب جلستْ واهنةَ الخطى فالمشتهى دربٌ ضاعَ في الضياع. "

صوت (١٢):

"ما الخيانة؟ "

أجاب الشيخ:

"المساومةُ على الظل بحجةِ سوادِ نيته. "

صوت (١٣):

"ما الإنسان؟ "

أجاب الشيخ:

"الجالسُ على حافة الهاوية، يدحرجُ حيرته على سفحٍ محترقٍ ويصغي إلى صدى أغنيته تردده الجبال. "

صوت (١٤):

"ما الخوف؟ "

أجاب الشيخ:

"خُلق الخوفُ ليكونَ الإنسانُ مسخرةً للقضاء والقدر. "

صوت (١٥):

"ما الأمل؟ "

أجاب الشيخ:

"برودةٌ محمصةٌ على نار التريث. "

صوت (١٦):

"هل الأمنيةُ مفردة؟ "

أجاب الشيخ:

"حينما يكون أقصر الخطوط إلى المبتغى منحنياً. "

صوت (١٧):

"مَن هو الضال؟ "

أجاب الشيخ:

"الذي لا يبرحُ مكانه. "

صوت (١٨):

"ما الوحدة؟ "

أجاب الشيخ:

"لا أحد يجيء لكنكَ طوال الليل تسمعُ وقعَ أقدامٍ على السلّم، تقتربُ من بابكَ ولن تصل. "

صوت (١٩):

"ما هي حقيقة ابن آدم؟ "

أجاب الشيخ:

"لم يكن الوقوفُ أمنيةً لكنه ولِد وفي الفخ خطواته. "

صوت (٢٠):

"ما لونُ الفراغِ حين ينصل؟ "

توقفَ الشيخُ كي يستردّ أنفاسه وقد فاجأه صبيّ تلوح في عينيه علاماتُ الجدّ والذكاء فأطرق قليلاً ثم رفع رأسه باتجاه الصبي وفاجأ الجميع بجواب لم يكن يتوقعونه:

"لا أدري. "

أدارَ ظهره إلى المتجمهرين الذين استعدوا للانصراف متجرعين جرعات كبيرة من ترياق الحكمة والشعر، ولكن وقبل أن يفتح الباب شاهد عجوزاً تدبّ على عصاها جاءت إليه من أقصى الشارع تسعى ملوحةً بذراعها القصيرة فتوقفَ حتى اقتربتْ منه ورمت إليه سؤالها لاهثةً:

"ما هو الموت؟ "

أجاب الشيخ بثقةِ الحكيم:

"رحلةٌ أخرى. "

وحينما لمحَ الخيبة على وجهِ العجوز التي لم تقتنع بجوابٍ مقتضبٍ رددهُ على أسماعها الكثيرون أضاف بحنو:

"رحلةٌ أخرى ـ وكما يقول عمر الخيام ـ إما إلى العدم أو إلى ربٍّ رحيم"

أشرق وجه العجوز بابتسامةِ فرحٍ وهي ترددُ:

"آمنتُ بالله ، آمنتُ بالله " .....

* * *

(رجلٌ تجاوز الزمن)

عبارةٌ سمعها تتردد على ألسنة الكثير من الرجال والنساء في المدينة وفي الحي الذي أقام فيه ، اصطدمتْ العبارةُ بسمعه محدثةً صدى لرنينٍ سابتٍ في ذاكرته فراح يرددها وعلى وجهه ابتسامةٌ تختصرُ مشاعر لا يستطيعُ إمساكَ خيطِ الكلام لوصفها فهي تختصرُ عشرات السنين وآلاف الوجوه والأماكن التي طوتها قدماهُ، ها هو إذاً يعود إلى النقطة التي بدأ منها مسيرته.

(شمعه إمرأةٌ تجاوزت الزمن)

(حميد رجلٌ تجاوز الزمن)

مسافة طويلة من الزمن تفصل ما بين العبارتين لكنها مازالت تحمل الغموض نفسه ، فهل استوعب الناس مغزاها أو أنهم لايزالون يرددون ما لا يعون؟ هل أدركوا أن للزمن حدوداً يمكن للمرء أن يتجاوزها؟

غيابهُ الطويل عن المدينة وجهله بمسارِ تطور الناس فيها جعلا الحكم على طريقة تفكير الناس صعباً ، فحينما كان صبياً ، كان واثقاً من أن الناس هنا لا يعون معنى للزمن ولا معنى العبارة ، ولهذا كان الذي يشغلهُ وقتذاك شاعرية

العبارة وسيرة حياة المرأة المعنية فحسب، أما الآن فقد أصبح في شك من ذلك بحكم التروي بإصدار القرار ولأن المعني الآن هو ذاته .

كان الشيخ حميد يقلّبُ أوراق الشارع ليصل إلى ما يود الوصول إليه باكتشاف مغاور هذا الكائن وما طرأ عليها من تغيير خلال فترة زمنية ليست بقصيرة معتمداً على طبيعة الأسئلة التي طُرحتْ عليه فكلماتٌ كـ (الرؤيا، الوهم، الشعر، الوطن، الحب، الجسد، الشهوة، الخيانة، الإنسان، الخوف، الأمل، الحقيقة، الفراغ . . . الخ) لم تكن شاغلاً للناس في هذه المدينة على الرغم من أنهم كانوا يحلمون ويتوهمون ويشتهون ويخافون ويخونون ويستشهدون في سبيل الوطن إلا أنهم كانوا يفعلون ذلك بغرائزهم ولا تعنيهم المفردات لذاتها حتى عبارة كـ (شمعه إمرأة تجاوزتْ الزمن) كانوا يرددونها بغريزة ببغاء لا غير، ولكن الأمر اختلف الآن كثيراً فهو على الرغم من هوسه بطرحِ الأسئلة الملغزة بغموضها وشطحاته الشعرية أو الصوفية إلا أنه لم يخطر في ذهنه يوماً أن يطرح على نفسه سؤالاً على شاكلة " ما لونُ الفراغِ حين ينصل؟ " وهذا يناقضُ طبيعة حياتهم اليومية فهم لايزالون كسابق عهده بهم، يذهبون ويرجعون ويدورون في مضمار مرسوم لهم سلفاً، يتزينون بالإطناب والبلادة حقيقةً أو تقمصاً، يتناقلون الإشاعات ويتوهمون يقيناً يعلّقون على شماعته رؤوسهم كي يناموا مطمئنين، والنساء مازلن كعادتهن كل مساء يتجمعنَ أمام بيتِ إحداهن يشربن الشاي ويتناقلن أخبارَ الشارع السرية غير آبهات لذلك الشيخ الذي (تجاوز الزمن) فيتحول الشارعُ إلى مقاه للنسوة تختلط أصواتهن بإيقاع مضغهن اللباد بشكل يثيرُ ذاكرةَ الجسد الذي نسيتْ خلاياه حرارةَ الشهوة. أحياناً كانت الحلقاتُ تندمج مع بعضها مشكّلةً دائرة واسعة وترتفع درجةُ غليان الرجال فتصدر عنهم حركات شاذة، عندها يدرك

الشيخ بأن حادثاً قد وقع أو على وشك الوقوع، سراً أفتضح أو إشاعةً تسللتْ إلى أفواه الناس فمازال لانتشار الخبر في هذه المدينة طبيعةٌ أثيرية خاصة فهو ينتشرُ في الفضاء وتشمهُ أنوفُ الناس في وقتٍ واحد.

صبيّةٌ جريئةٌ اقتحمتْ عزلةَ الشيخ فانشدّتْ إليها الأنظار بين مستنكرٍ ومؤيد، جاءت قاصدة إليه بخطوات واثقة ونهدين مرحين يتراقصان تحت ثوبها، نظر إليها الشيخ مزيحاً نظارته على أنفه فتذكر وجهها جيداً، إنها الصبية التي تجرأتْ وسألته عما يعني عنده العشق والعاشق، ابتسم إليها برقةٍ فحيّتهُ بضحكة لعوب، وقبل أن يقبل استئذانها بالجلوس جلستْ قبالتهَ وقد أطبقتْ صدرها على ركبته التي ارتعشت فسرى في جسده تيارٌ كهربائي لا يكفي لإضاءة الفانوس.

"جدّو عرفتني؟"

سألت بغنجٍ مراهقةٍ تجيدُ لعبة إغراء الحجر.

"وهل يخفى القمر؟"

أجاب الشيخ بتصابٍ وقد لمعَ نجمُ الشهوةِ في عينيه.

تطلعَ في عينيها فرأى فيهما سماءً مصطبغةً بغيماتٍ شفافة فتذكر أغنيةً أنجليزية كان يحبها ويرددها كثيراً:

(وحدي

في السماءِ المصطبغةِ بالغيمِ

المعلقِ بنظرةِ الشاعر

هناكَ

على الضفةِ البعيدة
تقودكَ أجنحةُ الحلم
عبرَ البابِ المفتوح)

رأى سراً يتململُ، يبرقُ مع الدموع ويكاد يفلتُ من بين الجفنين، أدركت الصبيةُ بأن الشيخ خمّنَ ما يدور في كوامنها، ألقتْ رأسها في حجره باكية فراحتْ يداه اللتان تلاشتْ في حنانهما الرعشةُ تداعب الشعر الأسود الطويل مصغياً إلى دقّات قلب الصبية المعمود.

رفعتْ رأسها وحدّقتْ بعينيها الدامعتين إلى عيني الشيخ، وبصوتٍ متكسرٍ سألتهُ:

"ما الحب؟"

أجابَ الشيخ:

"حجرٌ كريمٌ بيدِ الخالقِ صار جمرةً تفتقتْ عن عشاقٍ وأنبياء"

أغمضتْ عينيها كي تستوعب ما قاله الشيخ فاستأنفَ كلامه:

"في البدء خلقَ اللهُ الحبَّ لكنه سرعان ما احترقَ حينما لامسَ الوجود ومن رمادهِ كان الإنسان."

"ما الحقد؟"

"وجهٌ آخر للحب، وجههُ الذليل المتمرغُ في تراب الانكسار والمركوسُ في وحل المشاغل اليومية والنزوات السريعة الطافحة من كأس الحمق والاستهتار، وجهٌ نرى بعينيه النقصَ في كل شيء نحبه حتى أنفسنا، حدّقي في البياض تجدي نقاطاً سوداً هي من ماضيه أو لطخاتٍ صفراً هي مستقبله البالي."

"وما الخطيئة؟ "

سألتْ الصبيةُ بقلقٍ فأجاب الشيخ:

"قيدٌ صنعهُ الإنسانُ لنفسه كي يتأكدَ من عبوديته . "

صمتَ قليلاً ثم قال:

"انظري" !

فالتفتتْ الصبيةُ مُستفَزّة إلى الجهة التي ينظر إليها الشيخ فتابع كلامه:

"لا ، انظري إلى قلبك فسترين نبلةً من شعاعٍ تخترقهُ تفصلُ الخطأ عن الخطيئة ، إنه شعاعُ الحب الذي يضيء للإنسان وجوده ، يدخل الحبُ المكانَ ليخرجَ به من أسر تخومه فيصير الفراغُ فضاءً ولكن ـ وهذا أخطر الحب ـ قد يُغرقُ الروحَ في بحرِ سموّها فتختارُ موتها . "

"ولكن ما الغيرة؟ "

"الغيرةُ ضميرُ الجسد . "

ثم رفع سبابته بوجهها محذراً:

"قد تطهرُ الغيرةُ الجسدَ من أخطائه ولكن قد تنخرهُ كذلك"

استبدّ القلق والاضطراب بالصبية وهي تصل إلى نهاية الحوار ولم تتجرأ على طرح السؤال الذي من أجله لجأتْ إلى الشيخ ليطمئنها بحنانه ، نظرتْ إلى الأرض ثم رفعتْ رأسها وبثقةٍ مفتعلةٍ سألتْ:

"ما البكارة؟ "

صمت الشيخُ ولاح على وجهه حزنٌ عميق فهو يعرف كم تثير هذه الكلمة في نفسه من تناقضات وها هي الصبيّة الملعونة تفضح الآن تناقضاته فهو

يعشق بكارةَ الأشياء، كل الأشياء إلا أنه يدرك تماماً الضعف البشري ولا يريد أن ينكأ جرح الصبية التي لا تدرك الفرق بين بكارة الأشياء ونضارتها وبين غشاء تافه يختزن الزيف ومكابرات الإنسان وادعاءاته الرعناء، كاد أن يجيبها بكلام يطمئنها ويعيدُ الثقة إلى روحها فوضع سبابته تحت حنكها رافعاً رأسها إلى الأعلى فتوقف عن الكلام حينما رأى أثرَ حزّ لسكينٍ أو شفرةٍ يطوقُ جيدها البض فسألها:

"ما هذا؟"

ارتبكتْ الصبية وهي تحدقُ في عيني الشيخ القلقتين، قالت:

"لا أدري"

ولكن قلق الشيخ تسربَ إليها فازدادَ ارتباكها وتلعثمت ثم قالت بهدوء مفتعل:

"تقول أمي إنها آثارُ أظافرِ القابلة."

أغمضَ عينيه وراح يهبطُ ببطء إلى قاعِ الماضي كأن يدَ الغريق الذي جاء لإنقاذه تسحبه إلى الموت فينقاد إليها مستسلماً. نهضتْ الصبية بهدوء كيلا توقظ الشيخ من استغراقه في الحلم وانسحبتْ ببطء، وقبل أن تبتعد ناداها الشيخ:

"ما اسمك؟"

فأجابتْ بمرحٍ وهي ترفعُ يدها ملوحةً:

"سهام"

* * *

مَرِضَ الشيخ فعادهُ رجالُ الشارع ونساؤه وبقيتْ (سهام) عند سريره لا تبارحه ثلاثة أيام بعدها حاول أهلها أن يثنوها عن زيارة الشيخ الأعزل في داره

إلا أنها لم تطعهم في هذا الأمر، وحينما أصروا صارت تتسلل إليه ليلاً متسلقة الجدار الفاصل بين سطحي داريهما فيقضيان الليل معاً. كانت تنقل إليه أخبار الشارع وما عرفته عن سكانه قبل انتقال الشيخ إليه وكان يحدثها عن رحلاته السندبادية في بحار العالم وما لقيه من أهوال ومتع فكانت تصغي صامتة بذهول مَنْ يكتشف أن هنالك حياة أخرى خارج هذه الأرض، علّمها تمارين في التأمل فصارا يقضيان أوقاتاً طويلة جالسين على الأرض باسترخاء يرحلان في وهاد النفس وجبالها، فتحتْ له خزائن سريرتها وحدثتهُ عمّا يقلقها فطمأنها بلغة العارف وأبوّته قاصاً عليها حكايات تغرسُ السكينةَ في نفسها المضطربة، وحينما كان النعاسُ يطبقُ على جفنيه قبيل الفجر كانت تتسلل بهدوء من غرفته بعد أن تطبعَ على فمه قبلةً محملةً بالتآويل وتعود إلى بيتهم خلسةً.

استيقظَ الشيخُ عصراً بعد قيلولة ثقيلة لاعناً الكوابيس التي لا تنساهُ ولا تدعهُ يقضي ما بقيتْ له من أيام بسلام، جلس على حافة السرير شاعراً بدوار وقلق، أعاد على نفسه الشريط الذي شاهدهُ في المنام محاولاً تأويل الرؤيا إلا أنه طمأن نفسه بأن (الدم يفسدُ الحلم) هكذا كانت تردد أمه. سمع خطوات تهبط عجلى على السلّم فتهيأ للقادم الذي يحمل أخباراً لا تسرّه هكذا حدثتهُ نفسهُ بيقين. دخلتْ سهام الغرفة مرتعشةً وقبل أن يسألها عما وراءها راحت تسرد عليه لاهثةً ما يتناقلهُ الناسُ في الشارع:

"الناس يتحدثون عن طوفان دمٍ يجتاح المدينة"

هذا ما رآه تماماً في كابوسه، لذا فقد صدّقَ ما نقلته إليه سهام دونما شك، كابد آلام جسده ونهض متكئاً على عصاه وكتف سهام وانطلقا إلى الشارع حيث شاهد الناس وهم يتراكضون جماعاتٍ نحو مركز المدينة، وحينما

حاول الاستفسار عن الجهة التي يتجهون إليها جاءه الجواب الذي ارتسم على لوح حدْسه فصدّقه بيقين:

"سيولٌ من الدم تندفع في الشوارع قادمة من جهة السجن"

"عيونٌ من الدم تتدفقُ من إسفلتِ شارع السجن"

"جدرانُ السجن تنزّ دماً"

"سواقي دمٍ تنحرف عن فتحات البالوعات من تلقاء نفسها"

"ستغرقُ المدينة بالدم"

"دمٌ ساخن يتطاير منه بخارٌ أحمر"

"طوفان"

"غضب"

"قيامة"

حينما وصل إلى شارع السجن شاهد جمعاً غفيراً من الرجال والنساء متجمهرين عند مدخل الشارع الذي أغلقه الحرسُ صادّين اندفاعَ الناس وهيجانهم بتوجيه فوهات البنادق نحوهم متأهبين لفتحِ النار على صدر مَنْ يستبد به الهياجُ والفضول ليرى ما يحدثُ على مبعدة بضعة أمتار عن مكان التجمع. حرسٌ في الأزقة المؤدية إلى الشارع، حرسٌ على سطوح البنايات، حرسٌ في الساحات، حرسٌ انسلوا بين المتجمهرين مُخرسين الهمسات التي تتناقلها أفواهُ الناس، زعيقُ سيارات الإسعاف والإطفاء، صفارات إنذار متقطعة كتلك التي كانت تُطلق منذرةً بغارات جوية، رجالُ الشرطة يتبادلون الأماكن بسرعة تُتعبُ عينَ المراقب والدمُ يجري سواقي بين أرجلِ المتجمهرين. انحنى الشيخُ حميد واغترفَ حفنةً من الدم قرّبها من أنفه وعينيه، حاول

البعض تقليد حركته فاندفع حارسٌ ناهراً الشيخ بتوجيه ضربة إلى قبضته أطارت الدمَ على وجوه الناس فارتد البعضُ منهم مذعوراً. لم يعد للزمن حدود بل لم يكن الشيخ مشغولاً بالفاصل الزمني الذي يفصل حادثة فتح النار على السجناء عام ١٩٥٤ وما يراه اليوم فراح ـ بلا وعي ـ يرددُ أناشيد السجناء التي كانت تنطلق ذلك الفجر الدامي فوجد بعض تلك الأناشيد طريقاً الى أفواه بعض المتجمهرين خاصة الشيوخ منهم. قبيلَ غروب الشمس الدموي بوقت قصير هز المدينةَ انفجارٌ هائل فتناثر الدمُ في الفضاء واصطبغتْ واجهات البيوت والبنايات بالأحمر وتصاعدتْ غيمةٌ كثيفة من دخانٍ وغبارٍ من مكان السجن نحو الأعلى حتى غطتْ سماء المدينة وحجبت الرؤية.

* * *

كادتْ حادثة السجن أن تنسف الحياة القديمة للناس في هذه المدينة وتؤرخ تقويماً زمنياً جديداً في حياتهم، تجعلهم يتحدثون طويلاً عنها كعادتهم حينما تهتز مياههم الراكدة بحجرِ الحدث فيتحول الشارع إلى مسرحٍ تعاد عليه مسرحية الواقع بإخراج مختلف وممثلين مختلفين، كل يروي ما شاهدته عيناه مضيفاً إليه ما أوحت به أوهامه لاسيما وأن الذي حدث لم يكن حدثاً عابراً في زمن المدينة حتى أنه لم يتجرأ أحد من الذين شهدوا الواقعة ورأوا الدم وهو يجري سواقي أن يقرَّ بأن الذي شاهده هو فعلاً ما حدث ذلك المساء. قلتُ (كادتْ) لأن الذي حدث بعد تلك الحادثة كان لا يقل غرابةً عن نزيف جدران السجن فقد ولدَ تلك الليلة صبي سرقَ اهتمام الناس وانشغالهم بالطوفان وإن أُعتبر الأمرُ استمراراً للقصة التي لا يعرفون لها نهاية وصار الأمران مرتبطين ببعضهما كنذيرِ شؤمٍ أو علامةً من علامات الساعة التي اقتربتْ.

في البدء كان خبرُ ولادة الصبي لا يتعدى حدود الشارع أو الحي الذي يقيم فيه الشيخ حميد لكنه سرعان ما انتشر في المدينة كلها ونُشرتْ صورةُ الصبي وأمه في الصحف المحلية وظهرت صورهما على شاشة التلفزيون فوجدتْ الحكومة فرصتها الذهبية بالتركيز على موضوع الطفل كي تُنسي الناس ما جرى في سجن الكوت وترتقَ الآذان التي فُضت بكارةُ صممها بصراخِ الدم وأنينِ التأريخ.

ولدَ صبيٌّ بكرٌ مكتملاً قبل بلوغه الأربعة أشهر في بطن أمه هذا ما أكده الأطباء في البرنامج التلفزيوني الخاص الذي بثته القناة الفضائية الأولى ولم يصدق الناسُ الأمر لما انطوت عليه نفوسهم من سوء ظن على الرغم من تأكيد الأطباء وقسم الزوج بأغلظ الأيمان على براءة زوجته، لكن أموراً أخرى دحضتْ ظنون الناس فأقروا بمعجزة الطفل وإرادة الخالق، فقد وضعت الأمُ وليدها واقفة دون مخاض أو ألم ودون مساعدة من قابلة والأعجب من ذلك أنه سقط من بطن أمه ولم تسقط قطرةُ دم واحدة بل جاء الطفل نظيفاً وبلا حبل سري يربطه بوالدته أو مشيمة وكان معقود السرة. صعبَ إقرارُ الأمر من قبل البعض فراحوا يهمزون الأم بشكوكهم ليس لأنهم لا يصدقون الخوارق بل لأن من الصعب عليهم أن يتنازلوا عن سوء الظن ـ كما ذكرتُ ـ فصدقت الآذانُ ما تهمس به الأفواه وما يجترحهُ الشكُّ، حتى خرجت الأم النفساء إلى الشارع وهي تحمل وليدها صارخةً بالناس مدافعةً عن براءتها، تجمعت النسوة والرجال فأشارت إلى فم الطفل، لم يفهموا في بادئ الأمر ما تعنيه الأم بإشارتها حتى انتبهوا إلى فم الطفل المتبسم كاشفاً عن عدد مكتمل من الأسنان اللامع بياضها، لم تكتف الأم بهذا دليلاً بل أشارت إليهم أنْ يبتعدوا قليلاً فابتعدوا مشكلين محيط دائرة واسعة كانت الأم مركزها، حدقت بوجوه المتجمهرين حولها ثم رمت الطفل في الهواء

فسقطَ على الأرض ساحباً معه قلوب الناس الذين ظنوا بأن الأم تحاول قتلَ وليدها كي تتخلص من العار، غير أن البرهان جاء صفعةً لآخر ما تبقى في نفوسهم من سوء الظن، فها هو الطفلُ يفتح عينيه مبتسماً في الوجوه الحائرة ولم تند منه صرخة، وهذا ما أكدتهُ الأم حينما أخبرتهم بأنها لم تسمع للطفل صراخاً أو بكاء منذ ولادته.

عجزَ الأطباءُ عن إعطاء سبب لعدم بكاء الطفل فقرروا بأنه سيكون أخرسَ، ارتاحَ الناس إلى هذا التبرير فطويتْ صفحتهُ وانشغلوا بهمومهم اليومية متحاشين الخوض في أمر الطفل كيلا يعترفوا بكرامة امرأة وهبها الله غلاماً سيكون ذا شأن، ولكي يقطعوا ألسنةَ الواهمين التي راحت تهمس بأفكار يخافون تصديقها كولادة نبي جديد أو منقذ يملأ الأرض قسطاً وعدلاً بعد أن مُلئتْ ظلماً وجوراً. لم تفلح سهام باستدراج الشيخ حميد إلى إعطاء تفسير لهذه الولادة فقد ظل صامتاً يحاول الهربَ كلما ذكرَ الأمرُ في حضرته حتى جاء اليوم الذي أُقتحم صمتهُ ليكون أمام الأمر وجهاً لوجه حينما فتحَ بابهُ لطارق خائف التجأ إليه منتصف الليل، كانت الأمُ تحمل وليدها على ذراعها وقد غطتْ رأسها بشال أبيض وألبسته ملابسَ بيضاً فبدا مثل ملاك، انحنت الأم تقبلُ يدَ الشيخ فسحبها مرتعشةً وهو يستغفرُ الله، حدّق إلى وجه الطفل الذي ارتسمتْ عليه ابتسامة عريضة بانتْ بسببها أسنانٌ ناصعةٌ فاستعاذ بالله في سره، أسند ظهره إلى إطار الباب مصغياً باهتمام إلى المرأة التي أخبرته بأن عرّافاً أشار عليها أن تنيم طفلها ليلة واحدة في سرير شيخ صالح وترضعهُ من لعابه فستُحلُ عقدةُ لسانه. أذعنَ الشيخ لرغبة الأم بعد أن أعياه الاعتذار راضخاً لتوسلات أمّ ملتاعة تتشبثُ بأي أملٍ لحل عقدة لسان ملاكها الذي لا ينقصه غير حكمة القول لتتمَ معجزته.

حملَ الشيخُ الطفل إلى سريره وانحنى يقبلهُ فأطبق الطفلُ شفتيه على لسان الشيخ وراح يمصّه كما الثدي حتى ارتخت شفتاهُ وأغمض عينيه وعلى وجههِ ابتسامةُ شكرٍ، هكذا أوحيَ للشيخ. نام الطفلُ في سرير الشيخَ حميد ونامتَ الأم جالسةً على الأرض بينما كان الشيخ في الغرفة الثانية مستغرقاً في نوبة تأملٍ عميق.

لم يمضِ وقتُ طويل والشيخ مستلق على الصوفة محدقاً في السقف حتى أخترق سمعه صوتُ غناء عراقي قديم قادماً من الغرفة الأخرى، جلس فاركاً عينيه متأكداً من يقظتهِ، كان الصوت واضحاً ينتشرُ في أرجاء البيت، استلَّ جسده من الصوفة بإصرار بعد تردد متتبعاً الصوت إلى مصدره، كانت الأم نائمةً بإعياءٍ وكان الطفلُ مستيقظاً يحدق إلى السقف ويغني بصوتٍ جنوبي رخيم:

(هاذنّي الأيام مر العكربه مَرهن
كل مر جرعته ولكن هدّني مُرهن
.....
.....)

انحنىٰ الشيخُ وحمل الطفلَ بين ذراعيه مُصغياً إلى غنائه الحزين حتى انتهى من موّاله فضمّه الى صدره وأجهشا بالبكاء. استيقظت الأم على صوت النشيج فهبتْ مذعورةً وهي تتطلعُ إلى الشيخ الذي وقف وسط الغرفة محتضناً طفلها، لكنها سرعان ما أطلقتْ زغرودة فرح وهي ترى طفلها يصرخ بصوت عالٍ للمرة الأولى، حملتهُ بين ذراعيها وانطلقتْ به خارجةً ولسانها يطلق زغاريدَ

مجنونةً فازدحم الشارع بالناس الذين خرجوا من بيوتهم وهم يحاولون طرد النعاس عن عيونهم، عندها أعلنَ الشيخُ حميد أمام الحشدِ ولادةَ المنقذ الجديد، عمّده بالدمع وسماه (هابيل).

* * *

السماءُ الوحيدةُ لا تشعرُ بالعزلة فقوسُ الله المتألقُ فيكَ يُغري الكلمة أن تحرقَ الحجبَ ويضيءَ النوافذ المطلة على تخوم الوادي لا يسهرُ الليلُ وحدهُ فثمةَ الأحلامُ وحديثُ الغيبِ والذكرياتُ عبثاً تغمضُ عينيكَ لا تقتسم النسيانَ مع أحد ولا تخفَ صمتكَ فهديرُ الفكرةِ يفضحكَ تعرَ أمامَ نفسكَ واعتصمْ بقوسِ اللهِ.

ملعونٌ مَنْ يواجهُ الشمسَ هرباً من ظلهِ

ما أجرأ الفراشةَ وهي تمرّ أمامَ النارِ مزهوةً بألوانها

ملعونٌ مَنْ يدافعُ عن سنبلةٍ وهو جائع

ما أنبلَ الدمعةَ تنسابُ برّاقةً تحتَ الأمطار

ملعونٌ مَنْ يخوضُ بحاراً ولا يحملُ ضميرَ الماء

ما أقسى عاصفةً لا تركعُ لأنينِ الغرقى

يا

أيها

المُدّثرْ

قمْ

وانثر

انثرْ رذاذكَ على القمم المحترقة

وخذْ ليلاً اصقلْهُ بروحكَ سيكونُ فجراً.

فيكونُ

كنْ

لتكونَ

كلّ فكرة نبوءةً

كلّ خطوةٍ طريقاً

ولكلّ غصنٍ نشيد

صوتٌ يهمسُ تسمعهُ الروحُ

حدقْ

ترَ موتى يرجعونَ زرافاتٍ زرافات

لِمَ يرجعون بعدَ اجتيازِ برزخِ العتمةِ

لم تخبْ أحلامهم فهم لا يحلمون

ولم يتعبهم الانتظارُ فما كانوا إلا منتظرين

بلْ إنهم ضلّوا الطريقَ إلى الخلود

صوتٌ يهمسُ تسمعهُ الروحُ

منْ يعشْ في المكانِ يمتْ

منْ يعشْ في الزمان يمتْ

فادخُلِ اللامكانَ سيخرجُ المكانُ من أسرِ آفاقهِ

وأدخِلِ الروحَ بحرَ موتِها

يا أيتها النفسُ القلقه

أرجعي إلى مائكِ مُحترقه

ادخلي في عنادي

فأخرِجي غربتي

أيتها الروحُ

طفلُ اللازمانِ بلا ذاكرة

على صدرهِ تركَ اللهُ خاتمَهُ

قـدّوسٌ

قـدّوسْ

أنهى الشيخُ حميد صلاتَه ماسحاً وجههُ بكفّيه متمتماً بآخر كلمة " قدّوسٌ قدوس "، وحينما فتحَ عينيه شاهد الصبي هابيلَ جالساً أمامه مستغرقاً بالتأمل وشفتاه تتحركانِ بكلامٍ غير مسموع. انتظرَ الشيخ حتى انتهى الصبي من تأمله فضمّهُ إليه وعاد به إلى الغرفة الأخرى حيث كانت أمه وسهام جالستين بانتظار الشيخ. نهضتِ الأم وهي تعدّلُ وضع شالها الأبيض مرتبكةً، انحنتْ لتلثم كف الشيخ فسحبها كعادته مستغفراً، ساعدته سهامُ على الجلوس قبالة الأم التي طأطأتْ رأسها عفّةً ويدها تمسدُ خيوطَ السجادة، رفعتْ رأسها وقبل أن تفتحَ فمها بالسؤالِ أجابها الشيخُ مطمئناً روحها الخائفة:

"لا تخافي ! سيدركُ الناسُ أخيراً شناعةَ أفعالهم أو سيأكلُ بعضهم بعضاً عندئذٍ سيعيدُ ولدُكِ هذا دورةَ الحياةِ من جديد"

ثم أضافَ بعد برهةٍ صمت:

"أنا واثقٌ من ذلك، واثق من ذلك، صدقيني"

لم تفهمْ الأم شيئاً مما قالهُ الشيخ إلا أنها ابتسمت بزهوٍ ولاح في عينيها حبورُ اتسعتْ دائرتهُ حينما رأتْ طفلها نائماً بسكينةٍ في حجرِ الشيخ.

لم يشكّ الشيخ بنبوءة هابيل قطُ، فهو إضافةً إلى استغراقه بالتأملِ على طريقة العارفين وترديده لكلمات لم يسمعْ بها الشيخ من قبلُ وإصراره بثقة على دعوة سكان الشارعِ بأسماءٍ غير أسمائهم فقد جاءه اليقين حاسماً حينما شاهدَ الصبي مرتعباً وهو يحدقُ إلى السدة وحينما سأله الشيخ عن سببِ خوفه أجابهُ الصبيّ بثقةٍ مطلقة:

"ستنهارُ السدة"

افتعل الشيخ تجاهلاً لما سمعهُ فاستبدّ بالصبيّ غضبٌ غريبٌ وراح يبحثُ الأرضَ بقدميه هازاً ذراع الشيخ بقوةِ رجلٍ وهو يرددُ:

"ستنهارُ السدةُ، ستنهارُ قريباً"

يعرفُ الشيخ ذلك ولكنه أراد أن يختبرَ نبوءة الصبي فسألهُ مصطنعاً اللامبالاة:

"وما أدراكَ بذلك؟ "

حدقَ الصبي بوجهِ الشيخ بنظراتٍ صارمة ثم أشار بيده إلى السدة وأجابَ بحزن:

"أرى جرذاناً تنخرها"

ارتعشَ جسدُ الشيخ كمَنْ أدلق عليه ماءً بارداً فحملَ الصبي بين ذراعيه وهو يرتعد محاولاً إخفاءَ رأسه في صدره خوفاً عليه من حجرٍ راجمٍ يتربص بهِ شراً حتى ابتعدا عن مكان السدة، كان الصبي يردد بإصرار:

"والله أرى جرذاناً تنخرها"

وكان الشيخ يردد باستسلام:

"أصدقكَ والله"

* * *

"تباركَ السرُّ الذي يفضحُ العَلَن

تباركَ العدمُ الذي يمتلكُ الوجود

تباركَ القتيلُ الذي لا يموت

صوتٌ يهمسُ تسمعهُ الروح

أيها المركزُ

كنْ

خارجَ الدائرة

قدوسٌ

قدوسٌ"

دخل هابيلُ غرفة الشيخ وفي عينيه يبرقُ سرٌّ لا يحتمل كتمانه، أشار إلى الشيخ أن يتبعه فنهض صاغراً للأمر وسار خلف الصبي دون أن يسأل عن الجهة

التي ينوي الذهاب إليها . كان الصبي يسير بخطوات واثقة بالطريق فارجاً ذراعيه عن جسمه قليلاً كأنه يتحدى الهواء، نادته أمه أنْ يتوقفَ إلا أنه لم يصغِ إليها وكأنه سائرٌ في منامه، خمّنَ الشيخ الجهة التي يسعى إليها الصبي وتأكد تخمينه حينما اجتاز الشارع الفرعي متجهاً نحو الشارع الرئيسي المؤدي إلى السدة، كان الوقتُ عصراً وقد امتلأ الشارع بالسائرين على غير هدى، ففي مثل هذا الوقت من أيام الصيف يخرج الناسُ للنزهة قاطعين جيئةً وذهاباً شارع السدة الذي يربط ما بين ساحة ١٤ تموز وساحة الصياد التي تقع عند مدخل السدة، حثّ الشيخ خطاه تتبعهُ الأم حتى صارا قريبين من الصبي حينما لاحت السدة أمامهم، توقف مصغياً إلى صوت يمور في داخله، أدار ظهره إلى جهة السدة وأدخلَ سبابتيه في أذنيه مكوراً جسده فتسمرَ الشيخ والأم وهما يتطلعان إلى الصبي بذهول، مرت لحظات ثقيلة من الصمت المضطرب ثم دوى انفجار هائل هز المدينة بعنف نافضاً الأرض من غبار ناسها كما يُنفضُ بساطٌ قديم، انبطح الشيخ على الأرض حاضناً الصبي تحته مغطياً رأسه بعنقه وذراعيه مصغين إلى أزيز شظايا الكونكريت تمر من فوق رؤوسهم وتتساقطَ بالقرب منهم حتى استقرت الأرض تحتهم لكن صدى الانهيار لايزال يتردد بين الجدران التي راحت تتهاوى تحت وابلِ الدوي، عمّ الصمت وغطى الغبارُ المدينة حتى استحالتْ رؤية الأشياء القريبة فانطلقتْ أبواق سيارات الشرطة والإسعاف وزعقتْ صفاراتُ الإنذار منذرة بغارة جوية فراحتْ المقاومات الأرضية ترشقُ السماء بسهامٍ حمراءَ من الرصاص الحارق والصواريخ المضادة للطائرات.

ساروا مترنحين على الأرض التي مازالت تترنح من هول الانفجار متحاشين الاصطدام بجثث القتلى والجرحى التي تناثرت على الشارع والرصيف، متجهين إلى مكان السدة الا أنهم لم يستطيعوا الوصول حيث أن

رجال الشرطة أحاطوا بالمكان وهم يطلقون الرصاص بشكل عشوائي معتقلين أي شخص يقترب من قبضة سطوتهم. التفتَ الشيخُ فلم يرَ هابيل كان قد تسرب من بينهم كشبح غير مرئي، صرخت الأم وركضت مجنونةً في كل الجهات تبحث عن صبيها الذي اختفى فجأة مولولةً بصوت هيستيري ضاربةً صدرها بقبضتيها، شعر الشيخ بالخوف على الصبي من أن يصيبهُ أذى أو يتفوه بكلام لا يفهمونه فتحل الكارثة، لكنه تذكر بأنه يعرف ما يجهله هو نفسه وأن لهُ رباً يحميه.

"إلمن هذا النغل؟ "

كان صوتُ شرطي يرددُ بين الناس الذين استفزَّ السؤالُ آذانهم فراحوا ينقلون أبصارهم الخائفة بين وجوه بعضهم والشرطي الذي يسحلُ صبياً مشرق الوجه ضائعاً في الزحام. هجمت الأم على طفلها تحتضنه، وحينما حاولتْ أن ترد على السؤال الوقح الذي تفوه به الشرطي أشار إليها هابيل باسماً بأن تصمت فصمتتْ.

* * *

(ثلاثة أشياء لا تختفي من هذه المدينة : السدة والسجن والجدة شمعه)

عشراتُ الأعوام مرتْ على نبوءة حسونَي المشلول، قالها يوم اعتقلت الشرطةُ الجدةَ شمعه. عشراتُ الأعوام مرتْ وها هي النبوءةُ تستنفدُ قدرتها على البقاء فقد اختفت الجدةُ شمعه ولم تعدْ بصماتُ أصابعها على جبين أحد غير هذا الشيخ الطاعن في الذكرى. ثارت الحريةُ لنفسها أخيراً فتفجرتْ بالدمِ جدرانُ سجن الكوت الذي شهد ملايينَ من البشر وتدلت في دهاليزه ملايينُ المشانق ورددت فيه الملايين نشيداً واحداً وإن تغيرتْ كلماتهُ إلا أنه ظل

يضوع بالمضمون ذاته وها هو أخيراً تكتظ به الذكرياتُ فلم تقوَ جدرانهُ على حمل المزيد من آهات السجناء وصرخات المحكومين بالإعدام فسالت دماً في الشوارع التي ظلت تغلقُ أذانها كلما سمعتْ استغاثةَ الحريةِ وهي تُغتصب كل لحظة. وأخيراً جاء دور العملاق الكونكريتي الذي استعصى على صواريخ الراجمات وظل شامخاً بمتانة بنائه وعظيم أجره، ها هي الجرذان تُسقطه ذليلاً كأنهُ قطعةُ جبنٍ متعفن، ولكن ماذا بعد السقوط؟ أتنهار سباً ثانيةً ليعود زمان الهجرات والبدو؟ أم سيتحرر النهرُ من أسرهِ ليخلقَ من ذاته كائنات حيةً أخرى غير التي لوثتْ بالدمِ ماءَ خلقها.

يا أخي!

أنا لستُ شامتاً أو طالبَ ثأر لكني أريدُ أن أقول والحقَ أقول لمنْ لم يدركْ بعدُ بأن من الماءِ خُلقَ كل شيءٍ حيٍ لا من الدم وفي الحب يجتمعُ الجسدانِ لا في القتل.

.....من أجل ذلكَ

أقول إن ما كتبهُ نسلُكَ كان محاولةً لتبريرِ الخطأ وليس تصحيحاً للمسار ولكن ليس للحياة وجهٌ واحدٌ بل وجهان.

سقطت السدة واندفع الماءُ هادراً إلى الجهة الثانية مهدداً المدينة بفيضان لم تعرفهُ منذ زمانٍ بعيد، فقد ارتفعَ منسوبُ الماءِ في الجهة الثانية إلى مستوىً أعلى من مستوى السداد الكونكريتية التي تحمي المدينة فغطت المياهُ الشوارعَ والطوابقَ الأرضية من البنايات التي اكتشف ساكنوها سرّ سقوط السدة أو كادوا، فقد ذكر الكثيرون بأنهم شاهدوا أعداداً هائلةً من الجرذان تقتحمُ شققهم ومحلاتهم طافية على سطح الماء. أما في النهر نفسه فقد اندلقَ الطوفانُ خارج المجرى الطبيعي وغطتِ المياهُ مساحاتٍ واسعةً من الأراضي المترامية

بين مدينتي الكوت والعمارة منذرةً بكارثة زراعية غير الكارثة التي سيسببها جفافُ نهري الغراف والدجيله، أصواتُ استغاثة كانت تطلقها سيارات الشرطة والدفاع المدني أو مايكرفونات المآذن وهي تدعو الناسَ إلى التطوع في بناء السواتر الرملية على كتفي النهر، خرجَ الناس من بيوتهم يحملون المجارف والزكائب الفارغة وتصايحوا متناخين للعمل على إنقاذ المدينة من الغرق، كان رجال الشرطة السرية يوزعون على المتطوعين المجارف والزكائبَ والإشاعات التي يوقفون بها تدفق الأسئلة من أفواه الناس عن أسباب سقوط السدة أوَ تآمر السلطات المتعاقبة وكذب إعلامها.

في فجرِ اليوم التالي خرج الناس إلى موعد حفلة الدم، تجمع الرجال والنساء في مركزِ المدينة عند (ساحة العامل) حيث نُصبتْ عشرةُ أعمدة وإلى جانبها عشر مشانق تدلتْ حبالها معقودة بانتظارِ الأعناق المنكودة التي ستملأ فجواتها، بينما امتلأت الساحة بحرسٍ مدججين بالبنادق وصفي رصاص متقاطعين على صدورهم يزيحون الناس الذين وقفوا كمحيط دائرة واسعة مركزها تمثال الرئيس المنتصب وسط الساحة . عند الساعة الثامنة صباحاً وصلتْ سيارةٌ فارهة رافقتها سيارتا شرطة هبط منهما جنودٌ ضخامُ الجثث عيونهم تبحلقُ بالفضاء متوجسين شراً قادماً من المجهول، أحاطوا بسيارة المحافظ الذي خرج وهو يزررُ سترته الأنيقة، توقف ملوحاً للجماهير التي راحت تهتف بحياة السيد الرئيس وعزة الوطن منددة بالأعداء المجهولين. توقف الهتافُ فجأة وساد الصمتُ حتى لا يكاد المرءُ أن يسمع غير دقات القلوب الواجفة حينما وصلتْ سيارة شرطة كبيرة، ترجلَ منها عدد كبير من الحراس يسحلون عشرة أشخاص معصوبي العيون ومكبلي الأيدي إلى خلف ظهورهم، ربطوا إلى الأعمدة المعدة

إليهم بطقوسٍ معهودة ثم تُلي قرار تجريمهم بالخيانة العظمى. همسَ عجوزٌ كان واقفاً جنب الشيخ حميد ساخراً:

"والله لا خيانه ولاصيانه، جرذيّ أسقطَ سدّ مأرب "

التفتَ الشيخُ حميد إلى هابيل الذي أدركَ ما يدور في ذهن الشيخ فقال الصبي بصرامة بدتْ قاسيةً الوقع على قلب الشيخ:

"لا يُصحح الخطأ بل تُجتثُ أسبابه"

لكن حينما ضغطتْ السبّاباتُ وانطلقتْ الرصاصاتُ من المواسير ندتْ عن الصبي صرخةٌ لم يسمعها غير الشيخ.

يا أخي !

أنا لستُ شامتاً أو طالبَ ثأرٍ لكني أريدُ أن أقول والحقَ أقول لمنْ لم يدركْ بعدُ بأن من الماءِ خُلق كل شيءٍ حي لا من الدم وفي الحب يجتمعُ الجسدانِ لا في القتل.

.....من أجل ذلكَ

أقول إن ما كتبهُ نسلُكَ كان محاولة لتبرير الخطأ وليس تصحيحاً للمسار ولكن ليس للحياة وجهٌ واحدٌ بل وجهان.

قفْ وحدكَ على قمة شاهقة ترَ الناس بوضوح، صغاراً يثيرون الشفقةَ في النفس المتفردة، ففي الزحامِ يضيقُ صدرُ المكان وتتسع الأنا وكلما اتسع المكان تصاغروا وتبقى الذاتُ المتسامية وحدها تختصر الصورة في بؤرة السمو، و (هم) كلما حضروا غاب الضميرُ وتقهقر الشرفُ كلما شاختِ الحياة. فاشلٌ هذا الكائن وضئيل لذا فكل حضارة زائلة لأنها تصطدم

بهذه الحقيقة ولكن قد تطول فترة احتضارها، ولأن الحضارات السامية تنتحرُ في مهدها.

كان مشهدُ الأجساد العشرة وهي تتأرجح في الساحة نهاراً كاملاً كفيلاً بأن يجعل الأحلام كوابيسَ تطارد الرائي لكن لم يحدث ذلك ففي اليوم التالي أخذ الأحياءُ جرعات من التجلد دون أن يشعروا بوخز ضمير فخرجوا أفواجاً أفواجاً كأن الذي شاهدوه أمسِ كان فلماً أو هاجساً صغيراً شغلهم ساعات ثم نسوا، عبروا نهر دجلة إلى الجانب الآخر بزوارق صغيرة أو سباحةً وهم يحملون سلالهم كي يجمعوا الأسماك العالقة في قعر نهر الغراف الذي جف ماؤه بسبب انهيار السدة.

"إلى أين تسعى بي أيها الصبي ؟

وماذا تبغي؟

ولمَ تكشف سوءات العاري؟ "

سار هابيل جاراً وراءه التأريخ شائخاً فينقاد اليه ليدرك نهايته، جلسَ على صخرة ناتئة مطلاً على نهر الغراف مبحلقاً في القاع كأنه يبحث عن خاتمٍ مفقودٍ بينما تدافع الناس يتصارخون فرحين بما يجمعونه من أسماك محتضرة. اقتربت الشمسُ من أفق مغيبها والشيخ لم يدرك ما يبغيه الصبي، حاول أن يسأله ضجراً فتشاغل الصبي بصمته متسمراً في مكانه وهو يحدق في القاع كأنه يحل رموز أثارٍ قديمة أو يتهيأ للانقضاض على شيء مجهول يتوقع انبجاسه فجأة. دوت صرخة من أحد الخائضين في قاع النهر فهرعَ إليه الرجال ظناً بأن أفعى لدغته، تجمد الرجل واقفاً وانعقد لسانه فلم يستطع النطق مكتفياً بإشارة من يديه إلى مكانٍ في القاع، نظرَ هابيلُ إلى الشيخ وابتسامة انتصارٍ على شفتيه، سارا إلى المكان حيث تجمع الرجال وهم يزيحون كتلَ الطين

والغرين حتى ظهرت جثة إنسان مطمورة ، ارتفعت أصوات الرجال بنداء (الله أكبر) وراحوا يسحلون الجسد المتورم وهم يلهثون خارجين به إلى الضفة القريبة ، قامةٌ ضخمة لغريق لم يظهر وجهه بعدُ، رشقوا الوجه والجسد بدلاء الماء متفحصين ملامحه التي بدأت تتجلى بوضوح ، كان وجه امرأة مُسنة لمَ يمسحُ الموتُ ولا الطين تجاعيد جبينها ، ارتفعت أصوات الرجال متسائلة عمنْ يستطيع التعرف على هوية الغريقة فلم يرتفع صوتٌ غير صوت الصبي هابيل:

"نعم ، إنها الجدة شمعه"

كان الشيخ حميد ومنذ الصباح يدرك بأن الصبي يحتفظُ بسرّ يريد الكشف عنه لذا فأنه لم يفاجأ بالأمر ، اقترب من جثة الغريقة ماسحاً بقايا الطين عن جبينها وعينيها فتحركَ عرقُ دمٍ في جبينه هي آثار بصمات أصابعها ، قلبَ الجثة يساعده شيخ لا يعرفُ أحد كيف اخترق الزحام في تلك اللحظة ولم يره أحدٌ من قبل ، مسحَ الشيخُ حميد صدغ الجثة فلاح أثر رصاصة اخترقت الرأسَ ، أخرجَ منديله وراح ينظف الأثر من الطين كأنه يسعى لقراءة بصمات القاتل فانبجسَ خيطُ دمٍ سار بطيئاً على جبهتها حتى لامسَ الأرض مندفعاً بحركة واضحة نحو نهر الغراف الذي جف ماؤه . حدق البعض في عيون الآخرين بذهول وبلادة ، وحينما تيقنوا من يقظتهم تفرقوا صامتين يحملون سلال السمك الذي جمعوه.

* * *

"أنا البياض

أنا البياضُ المتآكلُ

الغاسلُ أدرانَ الضوءِ

تتكسرُ الألوانُ وترتدّ إلي رماداً

يشتمني الأزرقُ فأنا الغيمُ

ويكرهني الأسودُ فالفجرُ أنا

أرجمُ شيطانَ اللاجدوى بسبعةِ أحلامٍ متشابهةِ

تدنو مني حين ندورُ

وحينَ يكون لكلّ كرسيهُ

أبقى وحدي جالساً على حافة الهاوية

أتقرّى تضاريسَ الكآبة

وأصلي حتى ثمالةِ الحق

أنا البياضُ

العارفُ أناتِ الموتى وعويلَ الشاهدات

أنا طائرُ السؤال مهيضَ الجواب

أنا البياضُ

أقفُ على شفا الأرضِ حجراً أسودَ في العراء

أنا البياضُ

أنا البياضُ المقتول "

أنهى الصبي صلاته وتطلع مبتسماً ببهاء إلى الشيخ الذي كان صامتاً يغور في أعماق ذاته باحثاً فيها عن بقايا الراحلين متذكراً أخواته اللواتي أبينَ

تصديقَ خبر اختفاء الجدة شمعه وبقينَ يسردنَ للفراغ قصصاً عن عبد الكريم قاسم وساعة الصفر الآتية بلا ريبٍ تنقل إليهن أخبارها الجدة شمعه الغريقة في أرواحهن، لم يسمع أخبارهن منذ مغادرته البيت عام ١٩٨٢ وحينما عاد لم يجد أحداً يدلّه على آثار رحيلهن ربما هن الآن غائصات في قاع نهر كشمعه أو كعبد الكريم قاسم، مَن يدري؟

"لا تقلقْ يا شيخ" !

سمعَ الشيخُ النداءَ فهبّ غاضباً وقد أيقظهُ النهيُ البطرُ من غوصه في قيعان الأنهار أو الغور في قاع الروح الملتهبة بحثاً عن جثث الأحباب المطمورة في وحول الزمن، ولكن حينما حدق بوجه الصبي الجالس أمامه وشاهد الهالة الضوئية التي تحيط برأسه استرختْ روحه الغاضبة فابتسم للصبي بود مطأطئاً رأسه خجلاً من غضبٍ عارضٍ استبدّ به، رفعَ رأسه ثانية فشاهد نظرات الصبي المشفقة تخترقه، تقرأ أسراره، فتح ذراعيه فارتمى الصبي بينهما، سأله بوداعةٍ وهو يمسدُ شعرَ رأسه:

"مَن أنتَ؟ "

حرر الصبي نفسه من ذراعي الشيخ والتفت إليه متطلعاً بوجهه الحزين، وبنظرةٍ صارمةٍ سأله:

"أوَلم تؤمن؟ "

"بلى ولكن ليطمئن قلبي"

عاد الصبي إلى ذراعي الشيخ يفلّي شعرَ لحيته البيضاء مردداً:

"أنا هابيل، أنا قولةُ الحق التي أطلقها قلبكَ"

"ومَن أنا؟ "

سأل الشيخ بانخذال وجهل لم يستطع الحياءُ كتمانه فنهض الصبي واقفاً وسط الغرفة، ويأسىً متكلّسٍ في روحه قال مُخاطباً الشيخ الذي طفح القلقُ على وجهه وغاضت عيناه:

"الحق أقول لكَ ولدتُ أول مرةٍ وفي صُلبي جميعُ القتلى قُتلوا يومَ قُتلتُ وسيُبعثون تباعاً"

سار نحو باب الغرفة ثم التفتَ إلى الشيخ مشيراً إليه بسبابةٍ واثقةٍ من صرامتها، قائلاً:

"وستكونُ أنتَ أولَ المُبعَثين"

خرجَ الصبي متمتماً بكلمات غامضة لم يستطع الشيخ التقاطها، وحينما سمع اصطفاق الباب نهض متثاقلاً واستلقى على سريره محدقاً إلى السقف محاولاً أن يجد تفسيراً للعبارة الأخيرة التي نطق بها هابيل، فسّرَ الأمرَ على أن ساعةَ رحيله صارت بين لحظة وضحاها فأحسّ بخوف وفرحٍ ممتزجين، ربما هذه اللحظات هي آخر عهده بالحياة بكل ما انطوت عليه من رعبٍ ونشوة، وعلى عكس ما اعتادَ عليه حينما كان يردد صلاته أو يرحل في تأملاته فهذه المرة ساوره الخوف من أن يطبقَ جفنيه لئلا تكون آخر إطلالةٍ على الضوء، ظل مبحلقاً بالسقف مردداً صلاته:

"تدخلُ اللامكانَ

فيخرجُ من أسر آفاقه

هذه الروحُ

تُدخلني بحرَ موتي"

لم ينتبه حينما دخلتْ سهام ، شاهدها واقفةً وسط الغرفة برشاقة قدها وعنفوان نهديها تحدقُ اليه بنظرات نهمة لم يألفها من قبل ، دعاها إلى الجلوس على حافة السرير فأبتْ محركةً رأسها بغنج وأناملها تفتح أزرار القميص بتأن كراقصة تجيدُ استفزاز عروق الأجساد المتجمدة ، حاولَ أن يثنيها إلا أنها تجاهلته بنظرة شبق لامستْ جسده كوخز الإبر حتى رمتْ آخر قطعة من ملابسها على الأرض ، أطفأت المصباحَ فأشرق جسدها في العتمة أبيضَ خالياً من أي سوء ، رفعت الغطاء واندستْ بشقة لصقَ جسد الشيخ الراعش بالرغبة كالمصعوق ، مدّ لها ذراعهُ فاسترخى رأسها عليها ، تلمس أثر الجرح على جيدها فأغمضت عينيها وامتدت يدها إلى جسده فأضاءت في عتمته فانوس الشهوة ، شدّ جسدها إليه بكل ما أوتيَ من قوة حتى لامستْ حلمتاها المنتعظتان صدره العاري كلفحة ساخنة من سموم الهوس ، أحاط خصرها بذراعه وأغمض عينيه ناسياً موته ثم غابا بقبلة طويلة بين أشجار غابات اللذة.....

* * *

فتحَ الهير حميد عينيه ببطء فاصطدمتْ نظرتهُ بعبارة للفيلسوف الدنماركي سورن كيركغورد كان قد قرأها منذ زمن بعيد وأعجبهُ صدقها فخطها على لوحٍ علّقه على جدار الغرفة المقابل لسريره فوق النافذة:

(Gifter du dig eller gifter du dig ikke , fortryder du , begge dele.)

ضغطَ على زر الريموت كونترول فأزيحتْ ستارة النافذة ، كان الثلجُ يهطل بغزارة حتى بدتِ الأشجارُ بأكفانها كقامات موتى مُبعثين . حاولَ

النهوض لم يطعهُ جسده فألقى برأسهِ خائباً وراح يصغي إلى صوت الصمت في داخله.

ملاكان اختصما عند كتفيه:

"جنة"

"جحيم"

"جنة"

"جحيم"

أغمض الهير حميد عينيه مبتسماً، مردداً في سره:

"رحلةٌ أخرى في حلمٍ آخر"

.....

* * *

فايله ـ دمشق
كانون أول ١٩٩٦

plejehjem: دار العجزة بالدنمارك

ما سيحدثُ حتماً

(محاولة لوصف ما لا أستطيعُ وصفهُ لاحقاً)

حينما أرحلُ، سوف أترك الستائرَ مُسدلةً، أصصَ الزهرِ عند النوافذ عطشى يغطيها الغبارُ، وسأهدي جارتي العجوز سريري ومنضدتي ومقلاةَ البيض الصدئة، ومن النافذة سأنفضُ عن شرشفي ما قد علقَ فيه من سخام الظلام وصرخات الأرواح التي أزهقتها ثم أرميه في مزبلة رطبة. سأقول "وداعاً" للذكريات التي أوهمتني الجدرانُ بحفظها وللوجه الذي تخفّى بأقنعة من غبار المرايا. سأغافلُ مكتبتي وأهربُ من عيون القصائد ساخرةً ثم أهبطُ مبتسماً سلّم البناية دركةً دركةً إلى شارعٍ ليس يعرفني، واثقاً من هروبي (السيجارة للنصف في زاوية الفم، رمادها يقاوم السقوط بإرادة عجيبة ودخانها يغطي نصف وجهي فأغمض عيناً لأرى نصف الأشياء مثل أعورَ زاهدَ في رؤية الوجود، أصفّر لحناً غريباً، راكلاً الفراغ، شاتماً المجهول). سأسخرُ من كلبة تشبّثُ بي حينما أتذكر شعري والمخطوطة التي كنتُ أنوي نشرها عن حياة المغني الذي مات مختنقاً بصوته. سآخذ أول حافلة تاركاً للرصيف بقايا وجودي كبصماتِ مهربٍ على مقبض الباب أو على مرايا المراصد.

ربما سوف يكتشف الجارُ رائحةَ غيابي فتقتحم الشرطة شقتي الفارغة ليروني ـ كما كنتُ قبل الغياب ـ نائماً بعينين مفتوحتين وعلى شفتيّ ابتسامةُ سخرية مثل أُمنية خائبة.

لتسهيل مهمة المغني الذي قد يفكر بأداء الفصل الأخير من سيرتي الشخصية جداً، سأعيد كتابته بالشكل التالي :

حينما
سوف أرحلُ،
أترك في شقتي :
الستائرَ مسدلةً،
أصصَ الزهر عطشى
وأهدي لجارتيَ المُقعده :
سريري،
ومقلاةَ بيضٍ،
ومنضدتي.
وأنفضُ عن شرشفي
ما تخبأ فيه من الليلِ والإحتلاماتِ
أرميه في سلّةٍ رطبةٍ
وأقولُ:
"وداعاً"
لوجهٍ تخفّى بأقنعةٍ من غبار المرايا
أغافلُ مكتبتي
هارباً
من عيون القصائدِ ساخرةً
ثم أهبطُ
مبتسماً،
واثقاً من هروبي

سأسخرُ من كذبةٍ لا تفارقني
حينما أتذكرُ شعري
ومخطوطةً عن مغنّي الطريق
الذي مات مختنقاً
سوف أمضي بأول حافلة
تاركاً للرصيف بقايا وجودي
كما بصمةٍ للمهرّبِ في مقبض البابِ
أو في مرايا المراصد.

* * *

ربما
سوف يكتشفُ الجارُ رائحةً لغيابي
فيقتحم الشقةَ الفارغه
ليراني
ـ كما كنتُ قبل الغيابْ ـ
نائماً
وعلى شفتيَّ ابتسامةُ سخريةٍ
مثل أُمنيةٍ خائبه.

فايله
١٩٩٧/١١/١١

خاتمة

أحنَطُ الماضي

لا حبّاً ، بل لأني سأعودُ إليه يوماً ، أصلحُ هيأته ، وحينما أتجاوزُ أفقَ الحاضر أكونُ قد حنّطتُ سلالةً من الأخطاء التي سأعود إليها يوماً ، أصلحُ هيأتها وأدهوعا لنقطع السبيل معاً ، نكررُ مواعظنا الخاطئة التي سنحنّطها ، لا حباً بل لأننا سنعود إليها ، نصلح فطنتها . . . .

الفطنة التي ستدركُ أنّا سادرون في تيهنا .

الفهرست

١ـ الإهداء ٥
٢ـ مفتتح ١٠
٣ـ المسبحة ١١
٤ـ بزون ٢٨
٥ـ اللحى ٦٤
٦ـ الولد الخاسر حدّ الـ ٦٦
٧ـ شمعه ٧٨
٨ـ أغنية (١ ..... ١١٩
٩ـ عادل العرس ١٢١
١٠ـ الرسام والفراشة ١٣٠
١١ـ أغنية (٢ ..... ١٤٨
١٢ـ Plejehjem ١٤٩
١٣ـ ما سيحدث حتماً ٢١٣
١٤ـ خاتمة ٢١٦

للكاتب

*أقول احترس أيها الليلك ـ شعر ـ ١٩٨٦

*واقف بين يدي ـ شعر ـ ١٩٨٧

*بم التعلل ـ شعر ـ ١٩٨٨

*تضاريس الداخل ـ شعر ـ ١٩٩٢

*حديقة جورج ـ شعر ـ ١٩٩٤

*وحدي سافرتُ غداً ـ شعر بالدنماركية ـ ١٩٩٦

*كمائن منتعظة ـ شعر ـ ١٩٩٨

*غناء فحسب ـ شعر ـ مخطوط

*وثمة أشياء أخرى ـ قصص ـ مخطوط

دار الينابيع
طباعة . نشر . توزيع
دمشق - ص.ب ٦٣٤٨
هاتف ٤٤٦١٣٣٠